الوعظ المطلوب

من

قوت القلوب

تأليف

العلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي

(١٢٨٣ - ١٣٣٢هـ)

تحقيق وتعليق

محمد بن ناصر العجمي

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الوَعْظُ المَطْلُوبُ
من
قُوتِ القُلُوبِ

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣ e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمَة

الحمد لله غافِرِ الذُّنوب، وكاشِفِ الكُروب، وأشهدُ أن لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله خير من دعا إلى طاعة علاَّمِ الغيوب، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه في كُلِّ إشراقٍ وغروب.

أمـا بـعـد:

فقد كانت مجالسُ سيِّد الخلق صلَّى الله عليه وسلَّم مع أصحابه عامَّتُها مجالسَ تذكير بالله وترغيب وترهيب من تلاوة لكتاب الله الكريم أو مما أتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، فهو صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم البشير النذير، والسِّراج المُنير، فكيف لا تكون مجالسه موجبة لرقة القلوب، والزُّهد في الدُّنيا والترغيب في الآخرة.

يقول الصحابـي الجليل العرباض بن سارية: وعظنا رسول الله صلَّى الله عليـه وسلَّـم مَـوْعِظَـةً بَليغـةً وَجِلَـتْ منهـا القلـوب وذَرَفَـتْ منهـا العيون[1]...

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٢٦)، والترمذي (٥/٤٥)، وغيرهما، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٢٦٧)، وقد أفضت في =

وعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله، إنَّا إذا رأيناكَ رَقَّتْ قُلُوبنا وكُنَّا من أَهْلِ الآخرة[1]...

وكـان صلَّـى الله عليـه وسلَّـم يتعهـد أصحـابـه بـالمـوعظـة والنُّصـح والتذكير، ويُراعي في ذلك الأوقات، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كان النبـي صلَّى الله عليه وسلَّم يتخولنا بالموعظة في الأيام[2]...

والمواعظ كما يقول بعض أهل العلم: سياطٌ تُضْرَب بها القلوب، فتؤثِّرُ فيها كتأثير السِياط في البدن، فكلما قَوِيَ الضَّرْبُ كانت مُدَّة بقاء الألم أكثر[3].

وفائدة هذه المواعظ هي صلاح أحوال المؤمن المُهاجر بقلبه إلى ربه والدَّار الآخرة.

وقد اشتهر جماعة من علماء السَّلَفِ بالوعظ، والعناية بأعمال القلوب، والتذكير بأحوال الآخرة، كالحسن البصري، وبكر بن عبد الله المُزَني، ومحمد بن واسع، ومالك بن دينار، ومحمد بن المنكدر، وسفيان الثوري وغيرهم من أجلاء التابعين وتابعيهم...

ولعل من نافلة القول أن علماء الأُمة قد طرقوا التأليف في هذا الميدان وأفاضوا في ذلك، وصنَّفوا فيه المؤلفات الكثيرة الجليلة، وممن اشتهر بذلك الإمام ابن قدامة المقدسي، وابن الجوزي، وله القدح المُعلّى

= تخريجه وتطريقه في تحقيقي لـ «تخريج الأحاديث والآثار في منهاج البيضاوي» للعراقي (ص ٧٥ ــ ٧٨).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٥) وهو قوي بشواهده.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٦٢).

(٣) «لطائف المعارف» لابن رجب (ص ٥١).

في هذا الباب، والغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وزين الدِّين ابن رجب الحنبلي وأضرابهم من الأئمة الكبار رحمهم الله تعالى أجمعين.

هذا، وقد لمس العلاَّمة المصلح الشيخ محمد جمال الدِّين القاسمي الدِّمشقي حاجة الأمة ــ خصوصًا في عصره ــ إلى الوعظ والتذكير، فألف كتابه المشهور «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدِّين»؛ وذلك لأنه كان يعلم أن مَوعظة العامَّة والتصدي لإرشادهم في التدريس من الأُمور المهمة المنوطة بعلماء الأُمَّة؛ لأنهم أُمناء الشَّرع، ونور سراجه، ومصابيح علومه وحُفَّاظ سياجه.

وبعد تتبعه لكتب الوعظ وجد أن من خير ما كُتِبَ فيه هو «إحياء علوم الدِّين» للغزالي فجرَّد وحذف ما فيه من منكرات الأخبار، واقتبس منه اللَّباب في هذا الباب، فنفع الله بكتابه هذا في أصقاع المعمورة رحمه الله تعالى[١].

ثُمَّ إنَّه أتبع عمله هذا[٢] بتجريد كتاب «قُوتُ القُلُوب في معاملة المَحبُوب» تأليف أبـي طالب محمد بن علي، الحارثي المكي المتوفى سنة (٣٨٦هـ)[٣].

---

(١) ومن لطيف ما يُذكر في هذا المجال أنه جاءت رسالة إلى الأستاذ ظافر القاسمي ابن العلاَّمة جمال الدِّين من أندونيسيا بعد وفاة والده باثنين وأربعين سنة يطلبون منه الإذن بإعادة طبع كتابه «موعظة المؤمنين» فهذا هو الخلود العلمي (انظر: كتاب آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل لراقمه ص ١٥٣).

(٢) انتهى العلاَّمة القاسمي من كتابه «موعظة المؤمنين» سنة ١٣٢٤هـ.

(٣) لترجمته انظر: «سير أعلام النبلاء» للذَّهبـي (١٦/ ٥٣٦، ٥٣٧) والمصادر المذكورة في حاشيته ثَمَّةَ.

وهذا الكتاب يُعَدُّ أحد أهم مصادر «إحياء علوم الدِّين» للغزالي، إذ اختصره وهذَّبه واقتبس من مواعظه وفرائده مُسايرًا لترتيبه وتبويبه، مُعرضًا عما فيه من بعض الأخبار والآثار المُنكرة التي لا تصح ولا تناسب هذا المقام.

وهو بهذا يكون قد أضاف إلى ما سبق مادة أخرى للقائم على الوعظ والإرشاد، وسمى ما جمعه بـ «**الوعظ المطلوب من قُوت القلوب**» فرحمه الله وأجزل مثوبته على حُسن قصده وصواب عمله.

اللَّـٰهُمَّ إنّا نسألك حُسن القصد والعمل، ونعوذ بك من الخطل والزَّلل، ونستغفرك من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم.

وصلَّى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

وصف النسخة المعتمدة في التحقيق والعمل في الكتاب:

اتخذت النسخة الوحيدة الخطية لكتاب «الوعظ المطلوب من قوت القلوب» أصلاً[١]، وهي بخط المؤلف نفسه العلاَّمة القاسمي، الذي كان لخطه من اسمه ــ جمال الدِّين ــ نصيب، وهو بالخط الفارسي الأنيق، وقد جعله في جزء واحد يبلغ ٢١٤ صفحة من القطع العادي، في كل صفحة ٢١ سطرًا، وانتهى منه في التاسع عشر من شعبان سنة ١٣٣١هـ في رحلةٍ له إلى البقاع العزيز[٢]، أي قبل وفاته بنحو عشرة أشهر، فإنه توفي

(١) وهذه النسخة محفوظة لدى الأستاذ الأديب الشيخ السيد محمد سعيد القاسمي، حفيد العلاَّمة جمال الدِّين، في مكتبته الخاصة، بدمشق، فجزاه المولى عنا خير الجزاء.

(٢) أحد أقاليم لبنان تبعد عن العاصمة بيروت ٥٥ كيلاً، كما أن بينها وبين دمشق نحو ٤٠ كيلاً.

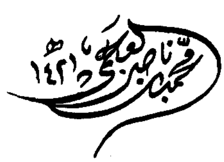
بعد غروب يوم السبت في ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٣٢هـ، وهو يعتبر من أواخر مؤلفاته.

وكان بين يدي في أثناء العمل أصل الكتاب «قوت القلوب»، الطبعة الأُولى، المطبوعة في الميمنية بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ.

والطبعة الثانية المطبوعة في شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة، المطبوعة سنة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.

هذا، وقد قوَّمت النص وقابلته بأصله مقابلة دقيقة إن شاء الله تعالى، ثُمَّ خرَّجت أحاديث الكتاب تخريجًا متوسطًا، مع بيان مرتبتها من حيثُ الصحّةُ والضعف، ومما ينبغي التنبيه عليه أن صاحب الأصل «قوت القلوب» لم يكن مُعتنيًا بالحديث؛ فإنه يورد بعضها بالمعنى وقد يزيد وينقص في بعض الألفاظ، كما أنني لم أُخرِّج الآثار الواردة فيه، فإن هذا مما يطول ولا يتسع له الوقت.

أسأل الله أن يجزي مؤلفه ومختصره أفضل الجزاء، وأن لا يحرمني الأجر والثواب، إنه ولي التوفيق والسداد، والحمد لله رب العالمين.



الكويت ـ الجهراء المحروسة

٦/ ٥/ ١٤٢١هـ

٦/ ٨/ ٢٠٠٠م

السَّيد جمال الدِّين القَاسِمي

(١٢٨٢ ــ ١٣٣٢هـ)

لمعالي العلاَّمة الكبير محمد بك كرد علي

وزير معارف سورية السابق ورئيس المجمع العلمي العربي(١)

تَلِدُ الولَّاداتُ كُلَّ يومٍ أولادًا، وتطوي الأرض أُناسًا لا يُحصي عددَهم غيرُ خالقهم، ولكن من يؤثرون الأَثَرَ فيُذكرون في حياتهم وبعد مماتهم أقل من القليل وأقل منهم في أهل هذا الشرق التعس، وفي أهلِ الإسلام خاصَّةً؛ وذلك لأن العَالَمَ الإسلامي بعد أن هبت أعاصير الاختلافات في القرون الوسطى، وحاربت حكومات تلكَ الأيام رجالات المعقولات، وأحرارَ الأفكار، ضعف مستوى العقول؛ لأنها لم يطلق لها العنان، وتقاصرت الهمم؛ لأنها لم تجد منشطًا فقل جدًّا النَّابِغُونَ النَّابهون.

وما ننسَ لا نَنْسَ ما وقعَ لشيخِ الإسلامِ؛ بل عَالِمِ السُّنَّةِ، وإمامِ الأئمةِ، ومجدد شَبابِ الحنيفيةِ السَّمْحاءِ، تقي الدِّين ابن تَيمِيَّة، فقد عُذِّبَ في القرن الثامن سنينَ كثيرة في سجونِ القاهرة، والإسكندرية، ودمشق،

(١) من مقدمة «لقطة العجلان» للزركشي شرح العلاَّمة القاسمي المطبوع في مكتب النشر العربي سنة ١٣٥٣هـ بدمشق، وقد صدرت هذه الطبعة بترجمة محمد كرد علي للقاسمي.

وناله من أذى أدعياء العلم في عصره حَسَدًا منهم لمكانته ما يُبْكي تَذكُّرُهُ المُقَلَ، ويهون بعده كل اعتداء على العلماء ينالهم من أهل الحشو والجُمود.

ومن قرأ تاريخَ رجالنا في القرون الثَّلاثَةِ التالية ـ أي في القرن الثامن والتاسع والعاشر ـ أو القرون الثلاثة التي سبقتها ـ أي الخامس والسادس والسابع ـ يعرف أن كثيرين قضوا شهداء أفكارهم، وعُذِّبوا وأوذوا في سبيلها؛ لأنهم رأوا غير ما رآه العلماء الرسميون، ومن مَالأَهم من أرباب الزَّعاماتِ في أيامهم.

ومنذ اضطر مِثْلُ حُجَّةِ الإسلام أبـي حامد الغزالي في القرن الخامس أن يَهْجُرَ العراق تخلصًا من حاسديه الذين لا يعدمون عندما تصبح إرادتهم حُجَّةً للاستعانة بالسلطة الزمنية للنيل مِمَّن أربـى عليهم، وإيقافِ تيار أفكاره إلى عصر ابن تيمية الذي ناله ما ناله في مصر والشَّام حَتَّى قَضَى في سجنِ دمشق شهيد الإصلاح، إلى أن جاء القرن العاشر والذي يليه من القرون، وقد أصبحت العلوم رسميَّة والمدارس صُوريةً، والأوقاف المحبوسة على العلماء مأكولةً مهضومة.

منذ جرى كُلُّ هذا والأمة لا تكادُ تفرحُ لها بِعَالِمٍ حقيقيٍّ يكسرُ قيودَ التَّقليد، ويقولُ بالأخذ من كُلِّ علمٍ، فَنَدَرَ النُّبوغُ؛ لأَنَّهُ نَدَرَ أن يلقى العالم ما يُنَشِّطُ عزيمته.

وكان قُصارى من تَسمو به الهمةُ إلى أخذ نفسه بمذاهب التَّعلم والتعليم أن يقتبسَ من كُتُبِ الفروع ما لا يخرج به عن مألوف معاصريه.

ومن حكَّم عقله في بعض المسائل كان اتهامُه بأمانته من أيسر الأشياء، وطَرْدُه من حظيرة الحَظوة لدى العامَّة، ومن سَمّوا أنفسهم بالخاصَّةِ، من الأمور المتعارفة.

أما التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق، فهذا لا يخلو منه عالم يريد أن يَخْرُجَ بالنَّاس من الظُّلماتِ إلى النُّورِ.

ولكن إرادة المولى سبحانه قضت بأن لا تحرِمَ هذه الأُمةَ من أعلام يَصْدَعونَ بالحَقِّ؛ فَيُجددونَ لها أمر دينها، ويستَطيبونَ الأذى في إنارَةِ العُقـولِ والـرُّجـوعِ بـالشَّـرعِ إلـى الحَـدِّ الـذي رَسَمَـهُ الشَّـارِعُ وأصحـابـه، والتابعون، والأئمة الهادون المهديُّونَ.

● ومن هؤلاءِ المُجددينَ نابِغَةُ دمشق، فقيدنا العزيز السَّيد جَمالُ الدِّينِ القَاسِمي الذي يعرِفُهُ قُراءُ هذه المجلة[1] بما نشرهُ في سِنيِّها الماضية من آثارِ عِلْمِهِ وأدبه، فقد قضى حياةً طَيبةً، ولم يُعِقْهُ عن الاشتغالِ ما لقيه من تثبيطِ المُثَبِّطينَ في أول أمره، وتنغيصِ الحاسدينَ في أواسط عُمْرِهِ مِمَّن لا يخلو منهم مصر ولا عصر، خصوصًا في بلادٍ يستمد منها كل شيء من ولاة أمرها.

● نشأ السَّيد القاسمي في بيتِ فَضْلٍ وفضيلةٍ، وكان والدهُ وَجَدُّهُ من المعروفين بالأدب، ومكارمِ الأخلاق.

وهذا من النَّوادرِ في عصر لا يكبر رجاله في العيون إلَّا على مقدار عدهم في صفوف أهل الرَّسم، وفي دور قل أن ينجب فيه ولدٌ لنجيبٍ، فَصَمَّ أو تصامَمَ منذ أوائل سِنِّ التَّحصيلِ عن كُلِّ ما يقف عثرةً في سبيل الطَّالِبِ، فكانَ منذ وعى على نفسه يعملُ على تهذيبها، ولا يكادُ يمضي عليه يوم لم يستفد منه فائدة، ولم يقيد شاردةً، فظهرت عليه مخايلُ النُّبُوغِ ولمَّا يبلغِ العشرين، فما بالُكَ به وقد نيف على الأربعين وقارب أن يتم العقد الخمسين؟!

---

(١) المقتبس: مج ٨ ج ٢.

جِماعُ الأسباب التي نَجح بها فقيدنا طهارةُ نفسه من المطامع الأشعبية، وشغفه بالعلم للذته، ونفعه في إنارة القلوب، واعتقاد أنَّه منج في الدُّنيا والآخرة، فهو لم يجعل الدِّين سُلَّمًا إلى الدُّنيا وجسرًا مؤقتًا يجتاز عليه لحيازة مظهر خلَّاب، والتَّصدر في المجالس بمفاخر الهندام، وبرَّاق الثياب، **بل فرَّغ قلبه ووقته للعمل النافع فَبُورِكَ له بساعاتِ عمره القصير، ويا للأسف!**

ولو عددنا ما كتبه من مصنفات وقسناه بالنسبة لهذا العصر الذي أضحت فيه بضاعة العلم مُزجاة بائرة، لما قل عن اللِّحاق بالمكثرين من التأليف في المتأخرين أمثال السُّيوطي، وابن السُّبكي، وأضرابهما، مع ملاحظة ما بين العصور والبيئات من الفوارق.

● تذرَّع الفقيد بعامة ذرائع النفع لهذه الأُمة، فكان إمامًا في تآليفه الوفيرة، إمامًا في دروسه الكثيرة، إمامًا في محرابه ومنبره ومصلاه، رأسًا في مضاءِ العزيمة، **رأسًا في العِفَّةِ، وهذه الصفة هي السِّرُّ الأَعظم الذي دار عليه محور نبوغه**، لأَنه لو صانع طمعًا في حطام الدُّنيا لما خرج عن صفوف أهل محيطه، ولكان عالمًا وسطًا، يشتغل بالتافهات، ويعيش في تقية ويموت كذلك.

● كان أجزل الله ثوابه إذا لقيه المُماحك في أحد المجامع عرضًا أو غشيه في درسه وبيته ناقدًا أو ناقِمًا علَّمه من حيث لا يشعر، وهداهُ إلى المحبة بلين القول، فإذا أيقن أنَّه من المكابرين المموهين أعرض عنه وقال: سلامًا، ولذلك لم يلق ما لقيه أشداء العلماء والفلاسفة في العصور الماضية من الإرهاق والإعنات أمثال ابن حزم الأندلسي، والشِّهاب

السهروردي، لأنَّه كان يتلطف في المُناظرة وإقناع المخالف فإذا رأى المناقش بمعزل عن الفهم سكت عنه.

نعم، كان مثال التلطف في بث الفكر فلم يصك به ـ كما قيل ـ معارضه صك الجَنْدَلِ، وينشقه متلقنه انتشاق الخَرْدَلِ.

● قام الأستاذ في دور زَهَّدَ النَّاس فيه في العلوم الدينية إلاَّ قليلاً، فأعاد إليها في هذه الدِّيار بنور عقله شيئًا من بهائها السابق، ولقد كان يجتمع به المُوافق والمُخالف، فما كانا يصدران عنه إلاَّ معجبين بعقله، مقرين بفضله، معترفين بقصور كثير حتى من المشاهير عن إدراك شأوه: **يخلب الألباب، ويستميلُ العقول، فكأنَّه خلق من معدن اللُّطف ورقَّةِ الشمائل.**

لم تجد الغلظة سبيلاً إلى قلبه، ولا الفظاظة أثرًا في كلامه وقلمه، ولا عجب إذا كثر في آخر أمره أنصاره، وعشقته النُّفوس فأكبرت الخطب فيه. جاء في الأثر: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلاَّ من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه.

دخل عبد اللطيف البغدادي فيلسوف الإسلام على القاضي الفاضل فقال: رأيت شيخًا ضئيلاً كله رأس وقلب، وهو يكتب ويُملي على اثنين، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكأنَّهُ يكتب بجملة أعضائه.

وهذا التَّعريفُ يصدقُ من أكثر وجوهه على الشَّيخ القَاسمي؛ فإنَّهُ كان نحيلَ الجِسْمِ، كبيرَ الرُّوحِ، ولو تهيأ لجمال الدِّين مثلُ صلاح الدِّين لسرت أفكاره أكثر مما سرت، وراقت أسفاره أكثر مِمَّا وُفِّقَ إليه؛ ولكن إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ.

وقديمًا زكا غَرْسُ العلم في الشَّرْقِ في ظل الملوكِ والأُمراء، واليوم يزكو في الغرب في حمى الجامعات والمجامع والجمعيات، والعلم مذ كان محتاج إلى العلم.

● بَرَزَ الفقيدُ الرَّاحِلُ ـ وأيّ تبريزٍ ـ في علوم الشَّرع وما إليها، ولم يَفُتْهُ النَّظَرُ في علوم المدنية، فَأَلَمَّ بأكثرها إلمامًا كافيًا؛ لتكونَ له عونًا على فهم أسرارِ الشَّريعة.

أَمَا وقد جمعَ الفضيلتين، فلا تَجِدُ لكلامه مسحةً من الجُمودِ المعهود لكثيرين ممن يقتصرونَ على العلم والعِلْمَيْن، ويعدون ما عداهما لغوًا.

فهو عَالِمٌ دينيٌّ كَامِلٌ؛ ولكنه كان يقرأ العلوم المدنية، ويطالع صُحُفَهَا وَمَجَلَّاتِها، وكُتُبَها الحديثة كما يطالعها المنقطعون إلى هذه العلوم وزيادة، ولا ينكر شيئًا يقال له عِلْمٌ أو فن، ولذلك لم يَمُجَّهُ العصريون ولا غيرهم.

● ربما قال من لم يعرف أن هذا كلامُ صَدِيقٍ فُجِعَ بصديقٍ تَسَلسلت الصَّداقةُ بين بيتيهما منذ نحو ثمانين عامًا، وعينُ الحُبِّ رمداء، أما أنا فلا أُحِيلُ المعترض إلَّا على الرُّجوع إلى كُتُبِ الشَّيخ وقراءة بعض ما طبع منها، وتحكيمِ العَقْلِ والإنصاف، وأنا الضَّامِنُ بأَنَّهُ لا يلبثُ أن يُساهمني قولي، ويُوقِنَ بأن المرحوم جَوَّدَ تآليفه التي تَنُمُّ عن عقله وَعلمه أكثرَ مِمَّا جَوَّدَها كثيرٌ من متأخري المؤلفين من بعد عصر السُّيوطي، ممن شُهِدَ لهم بالإِجادَةِ، ولو سَمحت له الحالُ أكثر مِمَّا سَمحت، ومُتِّعَ بحرية القول والعمل أكثر مِمَّا مُتِّعَ، لجاء منه أضعاف ما جاء، ولكن ضيق العيش، وضيق المضطرب لا يرجى منهما أكثر مِمَّا تَمَّ على يد فقيدنا العظيم من الأعمال والآثار.

وقد أُغلقت دونه أبواب الدواعي والبواعث رحمه الله وبارك لنا فيمن خلَّفَ من مريديه ومعاصريه، ومن ساروا بسيرته حتى لا نقع تحت مضمون الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد؛ ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رؤساء جُهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

ولقد كتبنا في تأبين الشيخ غداة وفاته في جريدة «الإصلاح» ما نصه[1]: **لا تحضرني عبارة تُشْعِرُ بمبلغ الحُزنِ الذي نالَ دمشق بفقد مَنْ كان عالِمَها الكبير، وأُستاذَها العَامِل النِّحرير، فقد كان أحد أفراد هذا العصر المعدودين في التَّحقيق بأسرار الشَّريعة.**

وهو ــ ولا مراء ــ عَالِمُ الكتاب والسُّنة بلا مدافِع، خُلِقَ ليعملَ على بث الدِّين المبين، خاليًا من حشو المتأخرين الجامدين، وتضليل المنحرفين والمعطلين.

● لم يكد فقيدُنا العزيز يطرق هذه الموضوعات، ويهيبُ بالنَّاس إلى الأخذ بمذاهب السَّلَفِ، ويتلطفُ في إبلاغها العقولَ المظلمة في دروسه وتآليفه، حتى أخذ بعض أهل الجمود يغتابونه ويحذرون عوامهم بدون برهان من الأخذ عنه، ولكن ظلمة تقليدهم ما لبثت أن انقشعت بنور اجتهاده وتراجع أمر خصومه بعد قليل، وقد بَهَرَ النَّاس فضله وعلمه، وأنشأوا بعد أن كانوا يزيفون أقواله في مجامعهم الخاصَّة والعامَّة يتبعون أقواله المدعومة بالسُّنة الصحيحة، ومذاهب الأئمة.

---

(١) لما توفي السيد جمال الدِّين، كانت مجلة «المقتبس» التي كتب فيها معالي الأستاذ كرد علي هذه الترجمة محتجبة فكتب عنه في جريدة الإصلاح التي كانت تصدر يومئذ هذه الكلمة التي أعاد نشرها في مجلته.

وأكبر دليل على ذلك ما شهدناه يوم مشهده الأخير من إجماع من كانوا خصومه أمس على إعظام الخطب فيه، والإقرار له بفضائل كانوا في حياته يغمطونه إيَّاها ولكن المعاصرة حرمان.

● رأيت رجالاً كثيرين من أهل الإسلام وغيرهم، وفي مصر والشَّام خاصة، فلم أرَ همَّة تفوق همَّة صديقي الرَّاحل، ولا نفسًا طويلاً على العمل ودؤوبًا عليه أكثر منه، ولا غَرامًا بالإفادة والاستفادة، ولا حُبًا بالعلم للعلم، فقد قضى عن ٤٩ عامًا وخلَّف ما خلَّف من عشرات من مصنفاته الدينية العصرية النَّافعة منها: «تفسيره» الذي لم يطبع[١] ومنها مقالاته الممتعة وأبحاثه المستوفاة، وأثر في عقول كثير من الطلبة تخرجوا به، وأخذوا أحكام الحلال والحرام عنه، دع دروس وعظه للعامة، وحلقات خاصَّته، ومع كل هذا كان حتى الرَّمق الأخير أشبهَ بطالب يريد أن يجوز الامتحان لنيل شهادة العالمية.

وكلما كان يُوغل في طلب المزيد من العلم والتحقيق تراه آسفًا على عدم إشباع أبحاثه حقها أحيانًا من النظر البليغ.

● رزق الصَّديق العلاَّمة صفاتٍ إذا جُمعَ بعضها لغيره عُدَّ قريعَ دهره، ووحيد عصره، فقد كان طلق اللِّسان، طَلق المُحيا، وافر المادة، وافر العقل، سريع الخاطر، سريع الكتابة، جميل العهد، جميل الود.

وكان بلا جدال جمالَ الدِّين والدُّنيا، ما اجتمع به أحد إلاَّ وتمنى لو طال بحديثه استمتاعه ليزيد في الأخذ عنه، والتَّشَبُّعِ بفضائله والاغتراف من بحر علمه.

---

(١) انظر ما يأتي (ص ٢١).

وبينا كنت ترى الأستاذ على قَدَمِ السَّلف الصالِح، عالمًا كبيرًا بين الفقهاء والأصوليين والمُحَدِّثينَ والمُفسرين، إذا هو من الأفراد المُختصين بالأدب وما يتعلق به، وبينا تراه يؤلف ويطبع، إذا بك تراه يواظب على تدريس طلبته، ووعظ المستمعين في درسه وخطبه، ومع كل هذه الأعمال التي قد يكون منها انقباض في صدر العامل تراه يهش ويبش كل ساعة، ويُفسح من وقته شطرًا ليغشى مجلسه أوفياؤه وأَخلاَّؤه وطلاَّبُ الفوائد منه.

فهو علامة بين العلماء، مُنوَّر ممدن بين المنورين بنور المدنية الصحيحة، ذهبَ مثال الرجل الصالح عفيف الطعمة، لم يسفِ إلى ما يسفي إليه بعض من يتذوقون قليلاً من المعارف، وما أنكر إلاَّ المنكر ولا أمر إلاَّ بالمعروف، ومع ضيق ذات يده كان يتصدق في السِّرِّ، ولا يخلو ساعة من عبادة وذكر، وما فقده جَلَلٌ على دمشق بل على الشَّام بل على أهل الإسلام، وشهرته التي نالها في العالم الإسلامي في هذه السِّن من الكهولة هي مما استحقه أو أقل مما يستحقه؛ لأنه ــ حقيقةً ــ العالم العامل الذي يُحبب الدِّين حتى لمن لم يتدين حياته.

فاللَّهُمَّ عوِّض المسلمين عن هذه الدرة اليتيمة التي أصيبوا بها، وارحمه عداد حسناته، وارزقنا الصبر عليه، وجميع أسرته ومريديه وأحبابه الذين فجعوا به؟

محمد كرد علي

مـؤلـفـاتـه

وأما مؤلفاته فقد بلغت أكثر من مائة كتاب، وهذا ذكر المطبوع منها:

١ ـ **الأجوبة المرضية عما أورده كمال الدين ابن الهمام على المستدلين بثبوت سنَّة المغرب القبلية**. ط ١ مطبعة روضة الشام، دمشق ١٣٢٦هـ.

٢ ـ **إرشاد الخلق للعمل بخبر البرق**. ط ١ مطبعة المقتبس، دمشق ١٣٢٩هـ.

٣ ـ **الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس**. أتمَّ تأليفه في جمادى الأولى عام ١٣٣٢هـ، ط ١ دمشق ١٣٣٢هـ.

٤ ـ **الإسراء والمعراج**. ط ١ دمشق ١٣٣١هـ.

٥ ـ **إصلاح المساجد، من البدع والعوائد**. ط ١ المكتبة السلفية، مصر ١٣٤١هـ.

٦ ـ **إقامة الحجة على المصلي جماعة قبل الإمام الراتب وأقوال سائر أئمة المذاهب**. ط ١ مطبعة الصداقة دمشق ١٣٤٢هـ.

٧ ـ **أوامر مهمة في إصلاح القضاء الشرعي في تنفيذ بعض العقود على مذهب الشافعية وغيرهم**. ط ١ مطبعة الترقي دمشق.

٨ ـ **الأوراد المأثورة**. ط ١ بيروت ١٣٢٠هـ.

٩ ـ **تاريخ الجهمية والمعتزلة**. نشر أولاً بمقالات متسلسلة في المجلد السادس من مجلة المنار، ثُمَّ جرد في كتاب مستقل. ط ١ صيدا ١٣٢٠هـ، ط ٢ مطبعة المنار، مصر ١٣٣١هـ.

١٠ ــ **تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب**. ط ١ مطبعة والدة عباس، مصر ١٣٢٦هـ.

١١ ــ **تنوير اللب في معرفة القلب**. مقالة كتبها في ٢٧ ربيع الثاني ١٣١٥هـ ونشرت في العدد الثاني والستين من جريدة الشام، دمشق، في ٣ صفحات.

١٢ ــ **جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل**. مقالة في مجلة المنار نشرت عام ١٣٢٥هـ.

١٣ ــ **جوامع الآداب، في أخلاق الأنجاب**. ط ١ مطبعة السعادة، مصر ١٣٣٩هـ.

١٤ ــ **حياة البخاري**. ط ١ مطبعة العرفان صيدا ١٣٣٠هـ.

١٥ ــ **خطب أو مجموعة خطب**. ط ١ دمشق ١٣٢٥هـ.

١٦ ــ **دلائل التوحيد**. ط ١ مطبعة المقتبس، دمشق ١٣٢٦هـ.

١٧ ــ **الشاي والقهوة والدخان**. ط ١ دمشق ١٣٢٢هـ.

١٨ ــ **الشذرة البهية في حل ألغاز نحوية وأدبية**. دمشق ١٣٢٢هـ.

١٩ ــ **شذرة من السيرة المحمدية**. ط ١ مطبعة المنار مصر ١٣٢١هـ.

٢٠ ــ **شرح أربع رسائل في الأصول**. الأولى في أصول الشافعية لابن فورك، والثانية لابن عربي، والثالثة في المصالح للنجم الطوفي، والرابعة للسيوطي من كتاب النقاية. ط ١ بيروت ١٣٢٤هـ.

٢١ ــ شرح لقطة العجلان. الأصل ــ أي لقطة العجلان ــ من تأليف الإمام بدر الدِّين الزركشي، جمع فيه أربعة علوم: الأصول والمنطق والحكمة والكلام، وأتمه في منتصف ربيع الأول سنة ١٣٢٥هـ. ط القاهرة ١٣٢٦هـ.

٢٢ ــ شرف الأسباط. ط ١ مطبعة الترقي، دمشق.

٢٣ ــ الطائر الميمون في حل لغز الكنز المدفون. ط ١ مطبعة روضة الشام، دمشق ١٣١٦هـ.

٢٤ ــ فتاوى مهمة في الشريعة الإسلامية. ط ١ مطبعة المنار، مصر ١٣٣٦هـ.

٢٥ ــ الفتوى في الإسلام. ط ١ في دمشق ١٣٢٩هـ.

٢٦ ــ الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين. ط ١ دار النفائس، بيروت ١٩٨٦ بتحقيق عاصم البيطار.

٢٧ ــ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث. ط ١ مكتب النشر العربي، دمشق ١٩٣٥م.

٢٨ ــ محاسن التأويل (تفسير القاسمي) في ١٧ جزءًا. ط ١ دار إحياء الكتب العربية، مصر من سنة ١٣٧٦ إلى سنة ١٣٨٠هـ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٩ ــ مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن. ط ١ مطبعة المقتبس، دمشق ١٣٢٨هـ.

٣٠ ــ **المسح على الجوربين**. رسالة ألَّفها في مجالس آخرها ربيع الثاني ١٣٣٢هـ. ط ١ مطبعة الترقي، دمشق ١٣٣٢ بتحقيق قاسم خير الدِّين القاسمي، ط ٢ مصر ١٣٧٧ بتحقيق أحمد محمد شاكر، ط ٣ المكتب الإسلامي، عمان وبيروت بتحقيق أحمد محمد شاكر.

٣١ ــ **منتخب التوسلات**. وهو متمم لكتابه الأوراد المأثورة جمعه عام ١٣١٥، وأراد به الابتعاد عن الأدعية الخرافية التي تتداولها العامة.

٣٢ ــ **موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين**. ط ١ مصر ١٣٣١هـ، ط ٢ بيروت ١٩٨٠م بتحقيق عاصم البيطار.

٣٣ ــ **ميزان الجرح والتعديل**. ط ١ مصر مطبعة المنار ١٣٣٠هـ.

٣٤ ــ **النفحة الرحمانية شرح متن الميدانية في علم التجويد**. ط ١ دمشق ١٣٢٣هـ.

٣٥ ــ **نقد النصائح الكافية**. ط ١ مطبعة الفيحاء، دمشق ١٣٢٨هـ.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه اجمعين ، اما بعد فاني كنت ألفت لوعظ العامة كتابا سميته «موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين» اختصرت من مباحث الاحياء ما ينابب العامة معرفته ، وما يسهل على المتصدي لارشادهم قراءته ، ثم رايت سنة (١٣٣١) أن اصنف كتابا آخر يكون مادة أخرى للقائم على وعظهم ، والداعي لأرشادهم ، فوفقت لاختصار كتاب «قوت القلوب في معاملة المحبوب» للأمام الكامل والمرشد الواعظ الصالح أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي[1] رحمه الله ورضي عنه المتوفى سنة (٣٨٦) وقد رأيت ان هذا الكتاب من اجمل الكتب المؤلفة في هذا الباب[2] كيف لا ومؤلفه ابو طالب رحمه الله من اهل الاختصاص بفن الوعظ والارشاد ، والمنقطع طول عمره لنفع العباد ، بيد ان كتابه هذا صار على طوله لا يلائم هذا الزمان ، على ما فيه من آثار واخبار منكرة عند اولي العرفان ، فتجريده عن ذلك من اهم المهمات ، واحسن الحسنات ، اذ به يعظم الانتفاع منه ، والأخذ عنه ، وسنقتبس من مواعظ لباب اللباب ، ونسايره في ترتيبه بعون الملك الوهاب ، وقد سميت ما جمعت «الوعظ المطلوب ، من قوت القلوب» نسأله العون على تقواه ، والتوفيق لما يحبه ويرضاه ، انه ولي التوفيق والهداية ، في البداية والنهاية

(١) قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله في كتابه شرح حديث النزول : قلت ابو طالب رحمه الله هو واصحابه السالمية اتباع الشيخ ابي الحسن بن سالم صاحب سهل بن عبد الله التستري لهم من المعرفة والعبادة والزهد واتباع السنة والجماعة في عامة المسائل المشهورة لاهل السنة ما هم معروفون به وهم منسوبون الى امامين عظيمين في السنة الامام احمد بن حنبل وسهل بن عبد الله التستري اهـ ملخصا وحسبه هذا الثناء من شيخ الاسلام رضي الله عنهما وأرضاهما .

(٢) ومما اجلّه عندي اني رايته من امهات احياء علوم الدين لاقتباس الامام الغزالي منه كثيرا كما تحققته من سبر الكتابين

الورقة الأولى من الكتاب بخط المصنف

وقد كان من سيرة القدماء من اهل الورع ان لا يستوعب احدهم كل حقه بل يترك
شيئاً خشية ان يستوفي الحلال كله فيقع في الشبهة ، ومنهم من كان يترك
من حقه شيئاً لقول الله عز وجل « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » قالوا فالعدل
ان تأخذ حقك كله وتعطي الحق ، والاحسان أن تترك بعض حقك وتبذل
فوق ما عليك من الحق لتكون محسناً ، ولان الله تعالى كما امر بالعدل
قد أمر بالاحسان لقوله « حقاً على المتقين . حقاً على المحسنين »

فالله الله في نفسك انظر ايها المسكين لمعادك ، واحفظ لدينك
فان كسبك من دينك ، وطعمتك من ايمانك ، فان تهاونت بذلك
فقد تهاونت بالدين ونبذت الاحكام ، وضيعت اليوم نفسك ،
ولم تنظر فيما قدمت لغد ،

فان كان المتصرف في السوق مخالفاً للاحكام غير متق في كسبه ، ولا مراع
لدين الله عز وجل فيه وحكمه ، فهو آكل للمال بالباطل ، قاتل لنفسه مفسد
لدينه ، غاش للمسلمين ، غير ناصح لله عز وجل ولخلقه في الدين ، مأمور
بالتوبة في جميع تصرفه ، مفترض عليه الانابة في جميع تقلبه ، قبل ان
يبغته الموت ، ويفجأه الفوت ، فيلقى الله تعالى ظالماً وقد قال عز
وجل « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » والله لا يصلح عمل المفسدين
كما لا يضيع أجر المصلحين

هذا آخر ما قدرنا اقتباسه من كتاب قوت القلوب وتم ذلك في مجالس من أشهر كان آخرها
قبيل عصر يوم الاربعاء ١٩ من شعبان في عام (١٣٣١) في قرية جب جنين من اعمال
البقاع ايام تجولي في بعض قراه ترويحاً للنفس من مرض الم والله الشافي
وكتبه الفقير محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي الدمشقي
غفر الله له ولوالديه ولمن ارشده واتم له العافية
بفضله

الورقة الأخيرة من الكتاب بخط المصنف

الوَعْظُ المَطْلُوبُ

مِن

قُوتِ القُلُوبِ

تأليف

العلّامة الشّيخ مُحمّد جمال الدّين القاسميّ الدّمشقيّ

(١٢٨٣ - ١٣٣٢هـ)

تحقيق وتعليق

مُحمّد بن ناصر العجمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للّٰهِ ربّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد خاتم النَّبيِّين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّـا بعـد:

فإنِّي كنت أَلَّفتُ لِوَعْظِ العَامَّة كِتابًا سمَّيتهُ: «مَوْعِظَة المؤمنين من إحياءِ عُلومِ الدِّين» اختصرت من مباحث «الإحياء» ما يُناسِبُ العَامَّة معرِفَتُهُ، وما يُسهل على المُتصدِّي لإرشادهم قراءته.

ثُمَّ رأيت سنة ١٣٣٠هـ أن أُصنِّف كتابًا آخر يكون مادَّة أُخرى للقائم على وَعْظِهم، والدَّاعي لإرْشَادِهِم، فوُفِّقت لاختصار كتاب «**قُوتُ القُلوبِ في مُعامَلَةِ المَحْبُوبِ**» للإمام الكامل، والمُرْشِد الواعظ الصَّالح أبـي طالب مُحمَّد بن علي بن عطية الحارثي المكي(١) رحمه الله ورضي عنه، المتوفى

(١) قال شيخ الإسلام تقي الدِّين ابن تيمية رحمه الله في كتابه «شرح حديث النزول»: قلت: أبو طالب رحمه الله هو وأصحابه السَّالمية أتباع الشيخ أبـي الحسن ابن سالم صاحب سهل بن عبد الله التستري، لهم من المعرفة والعبادة والزهد واتباع السنَّة والجماعة في عامَّةِ المسائل المشهورة لأهل السُّنَّة ما هم معروفون به، وهم منسوبون إلى إمامين عظيمين في السُّنَّة: الإمام أحمد بن حنبل، وسهل بن عبد الله التستري. اهـ مُلخصًا. وحسبه هذا الثناء من شيخ الإسلام رضي الله عنهما وأرضاهما. (المختصر).

سنة ٣٨٦هـ. وقد رأيت أن هذا الكتاب من أجمل الكتب المؤلَّفة في هذا الباب[(١)]، كيف لا، ومؤلِّفه أبو طالب رحمه الله من أهل الاختصاص بفنِّ الوعظ والإرشاد، والمنقطع طول عمره لنفع العباد، بيد أن كتابه هذا صار على طوله لا يُلائم هذا الزمان، على ما فيه من آثار وأخبار مُنكَرَةٍ عند أُولي العِرْفان، فتجريدُه عن ذلك من أهمِّ المُهمّاتِ، وأَحْسَنِ الحَسَنَاتِ؛ إذْ به يَعْظُمُ الانتفاعُ مِنْهُ، والأخذُ عنه، وسَنَقْتَبِسُ من مَواعِظِهِ لُبابَ اللُّبابِ، ونُسايره في ترتيبهِ بِعَوْنِ المَلِكِ الوَهَّاب[(٢)].

وقد سَمَّيتُ ما جمعتُ: «**الوَعْظُ المَطْلُوبُ مِنْ قُوتِ القُلوب**»، نسألهُ العون على تقواه، والتوفيق لما يُحبه ويرضاه، إِنَّه ولي التوفيق والهداية، في البداية والنهاية.

* * *

(١) ومِمَّا أجلَّهُ عِنْدي أَني رأيتُهُ من أمهات «إحياءِ علوم الدِّين»؛ لاقتباس الإمام الغزالي منه كثيرًا كما تحققتُهُ من سَبْرِ الكِتَابين. (المختصر).

(٢) ميزت تعليقات العلاّمة القاسمي بكلمة (المختصر) كما أنّه ختم بعض التعليقات بقوله: «اهـ جمال الدِّين».

الفصل الأول

في ذكر الآي التي فيها ذكر المعاملة

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١].

وقال جلّت قدرته: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وقال عزّ من قائل: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

* * *

الفصل الثاني
في ذكر الآي التي فيها أوراد الليل والنهار

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل: ٧، ٨].

وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال عزَّ اسمه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩].

وقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود: ١١٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

* * *

الفصل الثالث
في عَمَلِ اليومِ واللَّيلة
من فرائِضِ الأوامِرِ وفضائِلِ النَّوادب

فمن ذلك: أنه يُستحب عند طلوع الفجر[1] أن يصلي ركعتي الفجر، وهما معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٤٩]، قيل: ركعتي الفجر، يقرأ فيهما: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾، فهو أكثر ما روي أن النبي ﷺ قرأ فيهما[2]، فإن شاء خافت وإن شاء جهر، ثُمَّ يستغفر الله تعالى سبعين مرة، يقول في كل مرة: «أستغفر الله العظيم الذي لا إلـٰه إلاَّ هو الحي القيوم وأسأله التوبة»[3]. ثُمَّ

(١) هو: البياض المشتق من سواد الليل، المعترض في قطر السماء الشرقي عند إدبارِ النجوم، وإدبارُها ذهاب ضوئها؛ لغلبة ضوء الفجر عليها، وهو الوقت الذي أمر الله تعالى فيه بذكره، بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾. اهـ أبو طالب.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٠٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) الحديث الذي روي في الاستغفار سبعين مرة بعد صلاة الفجر. أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» كما في «إتحاف السادة المتقين» للزبيدي (٨/ ٦٠٢). وهو ضعيف. =

ليصلِّ صلاة الغداة في جماعة؛ ليكون في ذمة الله وجواره، وليكن قائمًا في صلاته بإلقاء سمع، وشهود قلب، وحضور عقل، وجمع همٍّ، وصحة تيقُّظٍ، وحُسنِ إقبالٍ، وتدبر للكلام، وترتيل، وتفهم بالتماس غرائب التنزيل.

فإذا سَلَّم من صلاته قال ما يستحب من الذِّكْرِ.

* * *

= وفي الاستغفار بعد الصلوات المفروضات ما أخرجه مسلم (١/ ٤١٤) عن ثوبان قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا. وقال: «اللَّـٰهُمَّ أنت السلام ومِنْكَ السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام».

الفصل الرابع
في ذكر ما يُستحب من الذكر
بعـد التسليم مـن صلاة الصبح

يستغفر الله ثلاثًا ثُمَّ يقول: «اللَّـٰهُمَّ لا مانِـعَ لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا يَنْفع ذا الجَدِّ مِنْك الجَدّ»، ثُمَّ ليقل وهو ثانٍ رجله قبل أن يتكلم عشر مرات: «لا إلـٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيـي ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير»، ثُمَّ يُسبِّح ثلاثًا وثلاثين ويحمد كذلك ويكبِّر أربعًا وثلاثين(١).

* * *

(١) ذكر هنا صاحب الأصل أبو طالب رحمه الله تعالى أذكارًا كثيرةً، ثُمَّ شَفعها بورد الصباح، ولها مؤلفات على حدة، ومن أجمعها كتاب «الأوراد المأثورة» الذي جمعناه وطبعناه من عشرة أعوام. اهـ. جمال الدِّين القاسمي.
انظر لمزيد معرفة الأذكار الواردة عن النبـي ﷺ غير ما ذكره المصنف كتاب «الأذكار» للإمام النووي (ص ١٣٩)، وأما رواية: «وهو ثان رجليه قبل أن يتكلم». فقد أخرجها الترمذي (٣٤٧٤) من حديث أبـي ذر وإسنادها ضعيف فيها شهر بن حوشب لين الحديث.

الفصل الخامس
في أعمال النهار والليل

اعلم أن الأخذ بذكره تعالى وتسبيحه بعد صلاة الغداة، وقبل طلوع الشمس لا يُقَدَّمُ عليهما إلاَّ أمران:

أحدهما: معاونة على برٍّ وتقوى فُرِضَ عليه أو نُدِبَ إليه، ما يختص به لنفسه أو يعود نفعه على غيره، ويكون ذلك مما يخاف فوته بفوت وقته.

وثانيهما: يكون إلى تعلم علم أو استماعه، مِمَّا يقرِّبه إلى الله تعالى في دينه وآخرته والأخذ عن العلماء الموثوق بعلمهم، فإن اتفق له هذان فالغدوّ إليهما أفضل من جلوسه في مُصلاَّه، لأنهما ذِكْرُ الله عزَّ وجلّ وعملٌ له وطريقٌ إليه؛ قال النبي ﷺ: «مَنْ غدا من بيتِهِ في طَلَب العِلْم فهو في سبيل الله حتَّى يرجع»[١].

وقال ابن مسعود: اغد عالمًا أو مُتعلمًا أو مُستمعًا ولا تكن الرابعَ فتَهْلِك.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧) من حديث أنس، وإسناده ضعيف؛ فيه أبو جعفر الرازي، إلاَّ أن له شاهدًا من حديث أبي هريرة عند ابن ماجه (٢٢٧) فيكون به الحديث حسنًا.

والغدوّ والغداة تكون قبل طلوع الشمس.

فإذا ارتفعت الشمس وابيضَّت، صلَّى الضحى ركعتين إلى ثمان ركعات، ثُمَّ ينظر؛ فإن عَلِمَ مريضًا عاده، وإن حضرت جنازة شيَّعها، وإن كانت معونة على برٍّ وتقوى سعى فيها، وإن كانت حاجة لأخ من إخوانه قضاها، وإن كانت فَرضًا يلزمه القيام به سارع إليه، وإن لاح له فضل نُدِبَ إليه انتهزه قبل فوته.

ثُمَّ ليأخذ بعد ذلك فيما نُدِبَ إليه وأُبيح له من التصرف في معاش، إن كان من تجارة بصدق أو صناعة بنصح.

وإذا حضر الزوال فليصلِّ بعده أربع ركعات نافلة، ثُمَّ ليصل الظهر في جماعة، ولا يدع قبلها أربعًا أو ركعتين وبعدها كذلك، وهذا الورد هو الإظهار الذي ذكر الله عزَّ وجلّ الحمدَ فيه فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٨].

فإن لم يكن [قد][(١)] رقد قبل الزوال فليرقد بعد الظهر ليتقوى بذلك على قيام الليل؛ فإن نومه بعد الظهر لِلَّيلة المستَقْبَلة ونومه قبل الظهر لِلَّيلة الماضية، ولا يستحب له أن يزيد في اليوم والليلة أكثر من نوم ثمان ساعات.

ومن الناس من يقول: إنه إن نقص من نوم هذا المقدار في اليوم والليلة اضطرب بدنه؛ لأن النوم قوت الجسم وراحته، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ [النبأ: ٩]، أي: راحة، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ

---

(١) زيادة من الأصل يقتضيها السياق.

مَعَاشًا ﴿١١﴾ [النبأ: ١١]، إلَّا أن يكون السهر عادةً، فإن العادة قد تعمل عمل الطبع وتنقل عن العرف فلا يُقاس عليها.

وإذا حضر العصر فليصل قبله أربعًا، ويغتنم الصَّلاة بين الأذان والإقامة فإنها ساعة مرجوة فيها الإجابة، وقد أقسم الله عزَّ وجلّ به في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ [العصر: ١]، وهذا أحد المعنيين في الآية، وهو أحد الوجهين من الوقت في الآصال الذي ذكره الله عزَّ وجلّ، وهو العشي الذي ذكر الله عزَّ وجلّ التسبيح فيه والتنزيه والحمد له، فقال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٨]. وقال: ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ١٨].

ثُمَّ ينتقل بعد العصر فيما شاء من أعمال القلوب والجوارح فيما فُرِضَ عليه أو نُدِبَ إليه.

وليقل عند أذان المغرب: «اللَّـهُمَّ هذا إقْبالُ لَيْلِك، وإدبارُ نَهارِكَ، وأصواتُ دُعاتِكَ فاغْفِر لي»، وكذلك فليقل مثله إذا سَمِع أذان الفجر إلَّا أنه يقول: «إدبار ليلك وإقبالُ نهارك»[١].

فإذا توارت بالحجاب فانظر أيُّها المسكين ماذا انقضى لك معها؟ وماذا انقضى منك عندها؟ وماذا قضي عليك فيها؟ فقد قطعت من عمرك مرحلة، ونقصت من أيامك يومًا، فماذا قطعت في سفرك بقطع مرحلتك؟ وماذا ازددت في غدك بما نقصت من يومك؟

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٢٠٢) من طريق حفصة بنت أبي كثير عن أم سلمة، وقال الترمذي بعده: «هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وحفصة بنت أبي كثير لا نعرفها ولا أباها».

وفي الحديث: «النَّاس غاديان: فغادٍ لنفسه فمعتقها أو راهن نفسه فموبقها»(١).

وقد قال الله عزَّ وجلّ في تصديق قول رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل: ٤]. وقال في معناه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]. وجاء في الخبر: «لا بُورِك لي في يَوْمٍ لا أزدادُ فيه خَيْرًا»(٢).

ثُمَّ ليصلِّ قبل فريضة المغرب ركعتين إن شاء، وبعد أداء فريضته يُبادر بركعتين قبل أن يتكلم ويشتغل بشيء، فإن كان منزله قريبًا من مسجده فلا بأس أن يركعهما في بيته.

وإذا غاب الشَّفق، أي: ذهبت الحُمرة الباقية من شعاع الشمس في القطر الغربي دخل وقت صلاة العشاء، وهذا آخر الورد الأول من أوراد الليل، والصلاة فيه ناشئة الليل، أي: ساعاته؛ لأنه أول نُشوء ساعاته، وهو آنٌ من الآناء التي ذكرها الله عزَّ وجلّ في قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠]، والآناء: جمع آن، أيْ وقتٍ، منه فصَلّ، وقيل: ناشئة الليل: قيام الليل. وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾

---

(١) أخرج مسلم (١/٢٠٣) نحوه من حديث أبي مالك الأشعري وفيه: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدو فبائعٌ نفسَهُ فَمُعْتِقُها أَوْ مُوبِقُها».

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ١٠٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٨٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٢٥٩) من حديث عائشة إلَّا أن فيه: «علما» بدل: «خيرًا». وإسناده ضعيف جدًا؛ فيه عبد الحكيم بن عبد الله الحمصي متهم بالوضع في الحديث.

[الانشقاق: ١٦]، والشفق: ما بين العشائين. وهي: صلاة الأوَّابين[١].

ويُستحب العكوف في المسجد بين العشائين للعبادة: من طلب علمٍ، وصلاةٍ، وتلاوةِ قرآن.

وإذا أدى فريضة العشاء فليركع بعدها ركعتين أو أربعًا.

ثُمَّ يوتر بثلاث إلى إحدى عشرة أو ثلاث عشرة، فإن هذا العدد أكثر ما روي أن النبـي ﷺ صلاَّه من الليل[٢].

ومن طمع أن يستيقظ آخر الليل فليؤخر الوتر إليه، وإلاَّ فليوتر أوَّله، كما جاء في الخبر الإرشاد لذلك[٣]، وفي «الصحيح»: «صلاةُ الليل مَثْنى مَثْنى، فإذا خِفْت الصُّبْحَ فأَوْتِر بركعةٍ»[٤].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «أوتَرَ رسول الله ﷺ من أَوَّلِ اللَّيل، ومن أَوْسَطِهِ، ومِنْ آخِرِهِ، وانتهى وتره إلى السَّحَر»[٥].

فإن نام على وتر ورزق القيام لم يوتر بعده، وكفاه وتره الأول.

وكان بعض السلف يصلي ركعة واحدة يشفع بها وتره من أول الليل، ثُمَّ يصلِّي صلاته من الليل ويوتر آخر صلاته.

ومن غلبه النوم حتى شغله عن الصَّلاة والذكر، فإن السُّنَّة أن ينام

---

(١) الذي ثبت في السُّنة إطلاق صلاة الأوابين على صلاة الضُّحى.

(٢) أخرجه مسلم (١/٥٠٨) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٥٦١)، ومسلم (١/ ٥١٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢/ ٤٧٧)، ومسلم (١/ ٥١٦) من حديث ابن عمر.

(٥) أخرجه البخاري (٢/ ٤٨٦)، ومسلم (١/ ٥١٢) من حديث عائشة.

حتى يعقل ما يقول وينشط في خدمته، وفي الحديث: «لِيُصَلِّ أَحدُكُم نشاطه فإذا غلبه النوم فليرقد»(١).

والصلاة بعد النوم هو التهجُّد الذي ذكره الله في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ولا يكون التهجد إلَّا بعد النوم، وتلك النومة هي الهجوع المذكور في آية: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات: ١٧]، فالهجوع: النوم، والتهجد: القيام.

والسَّحَر: وقته قبل طلوع الفجر الثاني بمقدار قراءة جزء من القرآن. ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٨]، أي: يصلون. وكذلك قوله عزَّ وجلّ: ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [الإسراء: ٧٨]، يعني به الصَّلاة، فكنَّى بذلك القرآن والاستغفار عن الصلاة لأنهما وصفان منها، كما قيل للصلاة: تسبيح، وسُبحة؛ لأنَّ فيها التسبيح، وكذلك يقال للصلاة: استغفار؛ لأنه يطلب بها المغفرة.

فإذا طلع الفجر فقد انقضى عمل الليل ودخل عمل النهار، فانظر: هل دخلت في دخوله عليك في جُملة العابدين؟ أم خرج عنك وأنت فيه من الغافلين؟ وتفكر: أيَّ لِبْسَةٍ أَلْبَسَك؟ فإن الليل جُعل لباسًا، هل أُلْبِسْتَ فيه حُلَّة النُّورِ بتيقظك؛ فتربح تجارة لن تبور؟ أم ألبسك الليل ثوب ظلمته؛ فتكون ممن مات قلبه بموت جسده بغفلتك؟.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٦)، ومسلم (١/ ٥٤٢) من حديث أنس.

الفصل السادس

في وقت الوتر وما يفعل من فاته ورده وما يُستحب لداخل المسجد

وقت أداء الوتر بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر الثاني، فإذا طلع الفجر الثاني فليصلِّ الوتر حينئذٍ من لم يكن أداه إلى قبل صلاة الصبح، فإذا صلَّى الصبح ذهب وقت قضاء الوتر.

ومن فاته ورد من الأوراد فليتدارك قضاءه بفعل مثله في وقته أو قبله إذا ذكره، وسرّ ذلك العنايةُ بالعبادةِ ورياضةُ النفس بها؛ ليأخذ بالعزائم كيلا يعتاد التراخي والتَّرَخُّص، وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ إذا غلبه النوم أو عاقَهُ مَرَضٌ فلم يَقم في تلك الليلة صلَّى من النَّهار اثنتي عشرة ركعة»[(١)].

ومن دخل المسجد ولم يكن صلَّى ركعتي الفجر، فإن كان قبل الإقامة صلاهما وإن دخل وقت الإقامة فلا يصلِّيهما، وليدخل في الصلاة المكتوبة فإنه أفضل، وقد قال ﷺ: «إذا أُقيمتِ الصَّلاةُ فلا صَلاَةَ إلاَّ المكتوبة»[(٢)].

ومن دخل مسجدًا فلا يقعد حتى يصلي ركعتين تحية المسجد.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥١٥) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٤٩٣) من حديث أبـي هريرة.

الفصل السابع
في أفضل الأوقات التي تُراعى فيها الصَّلوات

أما صلاة المغرب، فأفضل ما صُلِّيت فيه إذا تدلى حاجب الشمس الأعلى، وهو غيبتها عن الأبصار، روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أخَّر صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم، فأعتق رقبة.

وتأخير العشاء إلى ربع الليل أفضل ما لم تنم، والنوم قبلها مكروه، ووقتٌ حسنٌ في سنة أن تصلَّى بمقدار غيبة القمر ليلةَ ثلاث من الشهر، وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يصلِّي العشاء الآخرة لسقوط القمر ليلة ثلاث(١).

وأفضل ما صُلِّيت فيه صلاة الصُّبح إذا طلع الفجر الثَّاني، والسُّنَّة أن يقرأ فيها بطوال المُفَصَّل؛ لأنها قصرت، فعوض عنها طول القيام، فإن كان أجمع للمصلين وأكثر لعددهم إذا توسط الوقت فحسنٌ قبل أن تمحق

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ٣٣٠) من طريق هشيم عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية، عن حبيب بن سالم، عن النعمان بن بشير وإسناده ضعيف، هشيم لم يصرح بالتحديث، وجعفر بن أبي وحشية ضعفه شعبة في حبيب بن سالم كما في «التقريب».

النجوم، فأما أن يسفر حتى ينتشر البياض تحت الحمرة ـ وذلك هو شيء من شعاع الشمس ـ فلا وإن كثروا، فصلاتها بغَلَس في القليل أفضل.

والمحافظة على أوائل الأوقات من كلّ صلاة من أفضل الأعمال، وفي الخبر المشهور: أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «الصَّلاة لوقتها»[1].

والوقت الأول من كُلِّ صلاة عزيمة الدِّين، وطريقةُ المُقيمين للصلاة المحافظين.

والوقت الثاني رخصةٌ في الدِّين، وسعةٌ من الله عزَّ وجلّ ورحمةٌ للغافلين.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٩)، ومسلم (١/ ٩٠) من حديث ابن مسعود.

الفصل الثامن
في آدابِ النَّوْمِ، ومَعْنى الاعتبار به لِذَوي الأَبْصار

يُستحبُّ للمرء النوم على طهارة، ونية قيام الليل، وأن تكون وصيته مكتوبة عنده فإنه لا يأمن القبض بالوفاة، ولا ينبغي أن يبيت إلَّا تائبًا من كُلِّ ذنب، سليم القلب لجميع المسلمين، لا يُحدِّثُ نفسه بظلمِ أحد، ولا يعقد على خطيئة إن استيقظ، وأن ينام على شقِّهِ الأيمن مُتوجِّهًا للقبلة، وليذكر بنومه على هذين الحالين موته واضطجاعه في لحده، وقد قال الله عزَّ وجلّ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦]، أي: يكفتهم ويجمعهم أحياء على ظهرها وأمواتًا في بطنها.

وليقل إذا أخذ مضجعه: «باسمك رَبي وضعتُ جَنْبي، وبكَ أرفَعُه. إن أمسكتَ نفسي فارْحمها، وإن أرسَلْتَها فاحْفظها بما تحفظ به عبادك الصَّالحين»، وليقرأ آية الكرسي، وسورة الإخلاص، والمُعوذتين، وليُسبح ثلاثًا وثلاثين، وليحمد كذلك، وليُكبر كذلك[1].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى النَّوم من آياته الدالَّة عليه لأهل السمع

---

(١) كلها ثابت في السنة النبوية، وانظر لأذكار النوم: كتاب «الأذكار» للنووي (ص ١٦٦).

منه وهو سمع اليقين، وقرنه بالابتغاء من فضله فقال عزَّ وجلّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم: ٢٣].

وكان فقراء أهل الصُّفَّة وبعض زُهَّاد التَّابعين إذا رقدوا لا يجعلون بينهم وبين الأرض شيئًا؛ كان أحدهم يُباشر التُّراب بجلده، ويطرح ثوبه فوقه ويقول: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه: ٥٥]، كأنَّهم كرهوا التَّرفُّع عليها والوقاية منها، يجدون ذلك أرق لقلوبهم وأبلغ في تواضعهم.

ومثل النَّوم عند أهل الاعتبار مثل البرزخ، هو بين الدنيا والآخرة، كذلك النوم بين الحياة والموت، وقد قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكان بعضهم يقول: عجبًا لمن يعصي الله عزَّ وجلّ ثُمَّ ينام بعد ذلك.

وليعلم العبد أن الله عزَّ وجلّ يكون له بعد بعثه من قبره، كما كان العبد له بعد بعثه من نومه، فلينظر: إلى أي حال يبعث؟

فإن كان العبد لنظر مولاه مكرمًا، ولشأنه مُعظّمًا، ولحرماته مُعظِّمًا، وإلى محبوبه ومرضاته مُسرعًا؛ كان الله في آخرته لوجهه مُكرمًا.

وإن كان العبد في حق مولاه مُتهاونًا، وبأمره مُستخفًّا، ولشعائره مُستصغرًا؛ كان الله تعالى له مُهينًا، وبشأنه مُتهاونًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾، ثُـمَّ قـال: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [غافر: ٥٨]، موبِّخًا لهم بذلك. وقال في مثله: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ

كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم: ٣٥]، ثُمَّ قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم: ٣٦]، ذامًّا عائبًا لحُكمهم. ثُمَّ أخبر بحكمه فيهم فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١]، ثُمَّ عقَّب ذلك بذكر عدله في خلقه فقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٢]، فكان هذا فصلَ الخطاب، وتَذْكار أُولي الألباب.

وقال في معناه، وأمر بتدبر كلامه، وأمر بتذكر العقلاء عن خطابه فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩]، هل يتدبَّرون فيجدون أنا نجعل المُفسدين كالمصلحين، ونجعل المتقين كالفاسقين؟! وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٨]، فالتدبر: التفهم، والتذكر: التقوىٰ والعمل.

وفي أثر: «مَنْ أَحَبَّ أن يعلَمَ منزلتَه عند الله عزَّ وجلّ فلينظر: كَيْف مَنْزِلة الله تعالىٰ من قلبه، فإن الله عزَّ وجلّ يُنزل العبد عنده بحيث نزَّلَهُ العَبْد من نفسه»(١).

فإذا نام العبد على طهارة وذكْر، وعن مثل هذه المشاهدة والفكر، فإن مضطَّجعه يكون مَسجِدًا، وإنه يكتب مُصلِّيًا حتى يستيقظ.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٣٦٩/ أ) من حديث جابر بن عبد الله، وإسناده ضعيف؛ فيه عمر بن عبد الله مولى عفرة، وبه أعله الذهبي في «تلخيصه على المستدرك».

ومن كان هذا وصفه في منامه يسبق كثيرًا من العباد في قيامهم عن شهود غفلة وسهو، وفي خبرٍ: «نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح»[(١)].

وإذا قام من الليل مُتهجدًا فليقل: «الحمدُ لله الذي أحياني بَعْد إذْ توفاني، وإليه النُّشور»[(٢)]، وليستك وليتوضأ، ويستحب أن يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين.

* * *

(١) رواه ابن منده في «الأمالي» بسند ضعيف، قاله الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٣١)، وذكر فيه أنه بلفظ: «صوم العالم...».

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٣٧٨) من حديث حذيفة بن اليمان ولم يقيده بالقيام من الليل للتهجد وإنما بعموم القيام من النَّوم.

الفصل التاسع
في ذكر التَّهَجُد باللَّيلِ وَوَصْفِ القائِمينَ والمُتَهجِّدِينَ

قد قرن الله سبحانه وتعالى قُوَّام الليل برسوله المصطفى، وجمعهم معه في شكر المعاملة وحسن الجزاء، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد أخبر الله سبحانه أن قراءة الليل أشد وطأً للقلب، وأقوم قيلاً للحفظ والذكر، أي: يواطىء القلب اللسان بالفهم والحفظ.

وقد سَمَّى الله تعالى أهل الليل علماء، وجعلهم أهل الخوف والرجاء، وأخفىٰ لهم قُرَّة العين من الجزاء، فقال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩]، ثُمَّ قال: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، وهذا من المحذوف ضده لدلالة الكلام عليه.

والمعنى: أمَّن هو هكذا عالمٌ قانتٌ مطيع لا يستوي مع من هو غافل نائم ليله أجمع، فهو غير عالم بما يحذر وبما يرجو من ربه عزَّ وجل.

وقال عزَّ وجل في وصفهم في الدُّنيا، ووصف ما أعدّ لهم في الآخرة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٤]،

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦]، أي: تنبو عن الفراش فلا تطمئن، لما فيها من خوف الوعيد، ورجاء الموعود. ثم قال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧]، أي: كقيام الليل، وكونهم أهل الخوف والرجاء؛ فإن هذين من أعمال القلوب، عن مشاهدة الغيوب، فلما أخفوا له الإخلاص بأعمال السَّرائر، أخفى لهم من الجزاء نفيس الذخائر.

وقد جعل الله سبحانه قيام الليل من أوصاف الصَّالحين بقوله: ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وأقل الاستحباب من قيام الليل سُدُسُه.

وكان أبو سليمان يقول: أهل الليل في ليلهم ألذّ من أهل اللهو في لهوهم.

وقال علي بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء إلَّا طلوع الفجر.

قال بعضهم:

وزارني طَيْفُكَ حتى إذا ... أراد أن يمضي تعلّقت به

فليت ليلي لم يزل سَرْمدًا ... والصُّبْح لم أنظر إلى كوكبه

وقال بعض العلماء: ليس في الدُّنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلَّا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة.

وقال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلَّا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في جماعة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل، فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلاَّ اضطجع في مُصلاَّه حتَّى يأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة[1].

وقد كان السَّلف يستحبون هذه الضجعة بعد الوتر قبل صلاة الصبح.

وفي الثلث الأخير مزيدٌ لأهل المُشاهدة والحُضور، وهو راحةٌ وسكنٌ للعُمَّال وأهل المجاهدة؛ ولذلك حُظِرت الصَّلاة بعد صلاة الفجر، وبعد صلاة العصر؛ ليستريح عمال الله عزَّ وجلّ، وأهل أوراد الليل والنهار فيهما. والنَّوم من آخر الليل هو نقصان لأهل السهو والغفلة من حيث كان مزيدًا لأهل الشهود واليقظة.

وليفصل العبد في تضاعيف صلاة الليل بجلوس يسبح فيه؛ فذلك ترويح له وعون على الصَّلاة، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٤٠]، أي: أعقاب الصلاة.

وكان ﷺ مُفتَرَضًا عليه صلاة الليل كما ذُكِرَ في سورة المزمل، ففي آيتها الأُولى أمره تعالى بقيام الليل، وفي آيتها الأُخرى أخبر عنه بقيامه كيف هو، فالذي أمره به أنه قال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾، ثمَّ استثنى القليل منه فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المزمل: ٢]. ثُمَّ فَسَّر أمْره فقال: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ [المزمل: ٣]، يعني: ـ والله أعلم ـ: اُنقص نصف السدس أو نصف الثلث، هذان أقل أسماء النقصان عند العرب. ثُمَّ قال: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٤]، كأنه ردّ عليه نصف سدس الليل، لأنه أخبر عنه في

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٤٧٨)، ومسلم (١/٥٠٨).

الآية الأخرى، بأقل من الثلثين فقال: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ يكون هذا نصفًا ونصف سدس وهو أقل التسمية عندهم، ثم قال: ﴿وَنِصۡفَهُۥ﴾، أي: ويعلم أنك تقوم نصفه أيضًا: ﴿وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠]، أي: وتقوم ثلثه.

فهذه الأخبار أشبه بوطء الأمر من قراءة من كَسَر، فقال: ﴿وَنِصْفِهُ وَثُلُثِهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، يريد: وتقوم أدنى من نصفه وهو الربع أو الثلث، وأدنى من ثلثه وهو السدس أو نصف السدس.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل إذا سَمِعَ الصَّارخ»(١)، تعني: الديك، فهذا يكون من السَّحَر فقط، فكان هذا يكون سُدس الليل أو نصف سدسه، ففيه رخصة وسعة لقوَّام الليل.

قلنا: هذا تقريب لا تحديد، والله أعلم. والنصْبُ اختيارنا في القراءة على معنى كثرة القيام، ولمواطأة الخبر عنه للأمر.

وقد جاء في أثر: «صَلِّ من الليل ولو قَدْر حَلْب شاة»(٢) فهذا قد يكون أربع ركعات وقد يكون ركعتين.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إني أبيت معافى وأحب قيام

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٢٩٤)، ومسلم (١/ ٥١٠) والمراد بالصارخ هنا الديك، قال العلماء: وسُمِّيَ بذلك لكثرة صياحه. قاله النووي.

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٦٧٧) من طريق مخرمة بن بكير عن أبيه عن ابن عباس بنحوه ومخرمة بن بكير روايته عن والده وجادة ولم يسمع منه إلاَّ القليل، ووالده لم يذكر الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٤/ ٢٤٢، ٢٤٣) أنه سمع من ابن عباس، فبذا يكون الإسناد ضعيفًا.

الليل، وأتخذ طهوري، فما بالي لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيدتك يا ابن أخي.

وقال بعض السلف: كيف ينجو التاجر من سوء الحساب وهو يلغو بالنهار وينام بالليل؟

ويستعان على قيام الليل بثلاث: أكل الحلال، والاستقامة على التَّوْبة، وغمّ خوف الوعيد، أو شوق رجاء الموعود.

والذي يُحْرَمُ العبد به قيامَ الليل، أو يُعاقب معه بطول الغفلة ثلاث: أكل الشُّبُهات، أو إصرار على الذنب، أو غلبة همِّ الدُّنيا على القَلْبِ.

* * *

الفصل العاشر
في آداب عامَّة ينبغي القيام بها كُلَّ يوم وليلة

ليكن للعبد في كُلِّ يوم وليلةٍ وردٌ من التسبيح، وفي ذلك أنواع وردت بها الأخبار:

فمنها: «لا إلـه إلاَّ اللَّـهُ وحدهُ لا شريك له، له المُلك، وله الحَمْدُ، يُحيـي ويُميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيدِهِ الخَيْرُ وهو على كل شيء قدير» مائة مرة.

ومنها: «سُبْحان الله، والحمد لله، ولا إلـه إلاَّ الله ، والله أكبر» مائة مرة.

ومنها: «لا إلـه إلاَّ الله الملك الحق المبين» مائة مرة.

وليقل بعدها: «اللَّـهم صَلِّ على محمد عَبْدك ونبيك ورسولك النَّبـي الأُمِّي وعلى آله وصحبه وسلَّم» مائة مرة، ثُمَّ ليقل: «أستغفر الله الذي لا إلـه إلاَّ هو الحي القيوم وأتوب إليه» مائة مرة[1].

(١) لمعرفة الصحيح من الأذكار في اليوم والليلة والتقيد بالوارد منها، انظر ما ذكره النووي في «الأذكار» (ص ٥٩ وما بعدها).

قال هشام بن عروة: كان أبـي يواظب على ورده من التسبيح كما يواظب على جزئِهِ من القرآن.

وكلما سَمِـعَ العبد الأذان قال كما يقول المؤذن، فإذا فرغ فليقل: «رَضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا»(١)، «اللَّـهم رب هذه الدعوة التَّامة والصَّلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته»(٢)، ثُمَّ ليدع بما أَحَبَّ، وليغتنم الدعاء بين الأذان والإقامة فإنه مستحبٌ، ولا يدع السواك كلما استيقظ من نومه بالليل والنَّهار.

وقد كانوا يستحبون أن لا يأتي على العبد يوم وليلة إلاَّ تصدق فيه بصدقة وإن قلّ، مثل لقمة أو تمرة، حتى كان بعضهم يتصدق ببصلة وبخيط، والله سبحانه يشكر القليل الدائم، وهو أحب إليه من الكثير المنقطع، ألم تر كيف ذم من أعطى وقطع في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النجم: ٣٤]، أي: قطع. ومدح فواكه الجنة ــ يعيب بذلك فواكه الدُّنيا في تدبر الخطاب ــ فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، أي: فازْهَدُوا من فواكه الدُّنيا، فإنها مقطوعة ممنوعة، رغبةً في هذه الدائمة.

وكان من أخلاق السلف أن لا يردُّوا سائلاً إلاَّ بشيء وإن قلَّ؛ لقول رسول الله ﷺ: «اتقوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تَمْرةٍ»(٣)، ولقوله ﷺ: «لِلسَّائِلِ حَقٌّ،

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٩٠) من حديث سعد بن أبـي وقاص.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٩٤) من حديث جابر بن عبد الله.

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٤٨)، ومسلم (٢/ ٧٠٤) من حديث عَدِيٍّ بن حاتم.

ولو جَاءَ على فَرَسٍ»[1]، وقد كان من أخلاقهم أن لا يُسْأَلَ أحدهم شيئًا أو يراد بأمر مُباح فيقول لا؛ لكراهتهم الخلاف، ومحبتهم الائتلاف، وكان ذلك من أخلاق رسول الله ﷺ؛ ما سُئل شيئًا قط فقال لا، فإن لم يقدر عليه سكت[2].

وقد كانوا يجتمعون على الأمر الواحد بقلب واحد، ولا يستبدُّ بعضهم بأمر دون بعض، ولا يستأثر أحدهم بشيء دون أخيه، وبذلك وصفهم الله عزَّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٨]، أي: أمورهم مُشاعة فيما بينهم غير مقسومة، هم فيها سواء.

ولا يدعَنَّ الجماعة، سِيّما إذا سَمِع التأذين أو كان في جوار المسجد. وأولى المساجد أن يُصلي فيه أقربها منه إلَّا أن يكون له نيَّة في الأبعد لكثرة الخطا، أو لفضل الإمام فيه، والصلاة خلف العالم الفاضل أفضل، أو يريد أن يُعَمِّرَ بيتًا من بيوت الله عزَّ وجلّ بالصَّلاة فيه وإن بَعُدَ.

وليتوضأ لكلِّ صلاةٍ قبل دخول وقتها، فإنه من المحافظة عليها، ويُستحب له كلما توضأ أن يصلي ركعتين، وكلما دخل المسجد أن يصلي ركعتين.

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٠١)، وأبو يعلى (٦٧٨٤) وإسناده ضعيف لجهالة يعلى بن أبي يحيى وله شاهد من مرسل زيد بن أسلم. أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/٩٩٦) فيكون به الحديث حسنًا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/٥١٥) من حديث جابر، وإسناده صحيح.

ويُستحب له صلاة الضُّحى أربع ركعات، ويزيد ما يشاء الله إلى ثمان ركعات.

وقد كان من سيرة المتقدمين دخول المسجد سَحَرًا قبل طلوع الفجر والقعود فيه إلى صلاة الصُّبح.

وأفضل أوقات الليل والنهار أوقات الصَّلوات المكتوبات.

وإذا دعا الله سبحانه وتعالى فليدعه بمعاني أسمائه فإنها صفاته، وهو يُحب ذلك، وإنما أظهرها ليعرِّفَ بها الداعي، وليدعو بها مثل أن يقول: يا جبار اجبر قلبي، يا غفار اغفر ذنبي، يا رحمـٰن أصلحني، يا رحيم ارحمني، يا تواب تُبْ عليّ، يا سلام سَلِّمْني.

* * *

الفصل الحادي عشر
في آداب التلاوة ووصف التالين للقرآن الكريم

يُستحبُّ للعبد أن يختم القرآن في كل أسبوع، وقد روي: أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطٰه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صاد، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس.

وجماعة يُذكر عنهم ختم القرآن في كل يوم وليلة، وجماعة في كل ثلاثة أيام، وإنْ قرأ القرآن أحزابًا في كل يوم وليلة حزبًا فحَسَن، وذلك أشد لمواطأة القلب وأقوم للترتيب وأدنى إلى الفهم.

وأحزاب القرآن سبعة: فالحزب الأول ثلاث سور، والثاني خمس سور، والثالث سبع سور، والرابع تسع سور، والخامس إحدى عشرة سورة، والسادس ثلاث عشرة سورة، والمفصَّل من ق.

فهذه كانت أحزاب القرآن، ولذلك حزَّبه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وكانوا يقرؤونه كذلك. وكأنه حُزِّب على عدد آي كل حزب؛ إذ عددها ستة آلاف ومائتين وست وثلاثون آية، وقد اعتُبر ذلك في كل حزب

فكان يتقارب، وهذا قبل أن تُعمل الأخماس والعواشر والأجزاء، فما سوى هذا مُحْدَث.

واعلم أنه لا يجد فهمَ القرآن عبدٌ فيه إحدى هذه الخصال: أدنى بدعة، أو مُصرٌّ على ذنب، أو عبدٌ في قلبه كِبْر، أو مُقارب لهوىً قد استكنَّ في قلبه، أو محبٌّ لدنيا، أو غير متحقِّق بالإيمان، أو ضعيف اليقين، ولا من هو واقف مع مقروؤه، ولا مهتمٌّ بتتبُّع حروفه واختياره، فإنَّ هؤلاء محجوبون عن فهم حِكَمه وسرٍّ أمره ونهيه.

فإذا كان العبد ملقيًا السمع بين يدي سميعه، مُصغيًا إلى سرِّ كلامه، شهيدَ القلب لمعاني صفات شهيده، ناظرًا إلى قدرته، تاركًا لمعقوله ومعهود علمه، معظِّمًا للمتكلم، واقفًا على حضوره، بحالٍ مستقيم، وقلبٍ سليم، وصفاءِ يقين، وقوة علم وتمكين؛ سمع فصل الخطاب، وشهد علم غيب الجواب.

وأفضل القراءة الترتيل: لأنه يجمع للأمر والنَّدب، وفيه التدبُّر والتذكُّر.

روي عن علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبُّر فيها.

وعن ابن عباس: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتِّلهما وأتدبرهما أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله هَذْرَمة.

وأفضل الترتيل والتدبُّر في القرآن ما كان في صلاة، ويقال: إنَّ التفكُّر في الصلاة أفضل منه في غير الصلاة، لأنهما عملان، وهذا هو التفكر في معاني التدبُّر، والفهم بخطاب الوعد والوعيد، والزجر والأمر،

تعظيمًا للمتوعِّد، وإجلالاً للآمر. قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] قيل: القرآن، قوّى إيمانهم بعلم القرآن، فالقرآن روح الإيمان، وتقويتهم استعمالهم به.

وفي التفسير: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، قيل: بجدٍّ واجتهاد. ومثله: ﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، قيل: بعمل به.

وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تُحَدِّثُ نفسكَ بشيء؟ فقال: أوَشيْءٌ أحبّ إليَّ من القرآن أحدِّث نفسي به؟! وهذه صفة قويٍّ مكين.

وكان له ﷺ في كل رَدة فهم، ومن كل كلمة علم(١)، فينبغي أن يكون قلب التالي بوصف كل كلمة يتلوها مشاهدًا لمعناها إلى ما يفتح الله عزَّ وجلّ له من المزيد عليها. كان بعضهم يقول: كلُّ آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لم أَعُدَّ لها ثوابًا.

وكان بعض السلف إذا قرأ السورة ولم يكن قلبه فيها أعادها ثانية.

فإذا مرَّ التالي بتسبيح وتكبير سبَّح وكبَّر، وإن مَرَّ بدعاء واستغفار دعا واستغفر، وإن مرَّ بمخوِّف ومرجوّ استعاذ وسأل، فذلك معنى قوله عزَّ وجلّ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، وكذلك كان رسول الله ﷺ في تلاوته(٢).

وينبغي للعبد أن يشهد في التلاوة أن مولاه يخاطبه بالكلام، لأنه

---

(١) أخرجه الهروي في «معجمه» من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، قاله الحافظ في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٨٢)، وفيه «أنه ﷺ قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة»، وانظر: «قوت القلوب» (١/ ٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٣٦، ٥٣٧) من حديث حذيفة.

سبحانه متكلم بكلام نفسه، وليس للعبد في كلامه كلام، وإنما جُعِل له حركة اللسان بوصفه، وتيسير الذكر بلسانه بحكم ربه عزَّ وجلّ، حدًّا للعبد ومكانًا له. فإنْ قصرت مشاهدة التالي عن هذا المقام فيشهد أنه يناجيه بكلامه، ويتملقه بمناجاته، فإنَّ الله عزَّ وجلّ إنما خاطبه بلسانه، وكلَّمه بحركته وصوته، ليفهم عنه بعلمه الذي جعل له، ويعقل عنه بفهمه الذي قسم له حكمةً منه ورحمة.

ثُمَّ ليشهد العبد أنه مقصودٌ بجميع القرآن من فاتحته إلى خاتمته، له ضُربت الأمثال به، وفيه جميع ذكره وأوصافه، وقد سوَّى الله عزَّ وجلّ بين المؤمنين في تنزيل القرآن عليهم وبين النبي ﷺ بمعنى من المعاني، فقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]. كما قال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]. وكذلك قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]. كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [البقرة: ٩٩]. وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ [يونس: ١٠]. ثُمَّ قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]. وقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

غير أنه سبحانه عمَّ الجملة بالبصائر والبيان، وخصَّ بالهدى والرحمة أولي التقى والإيمان، فمن ذلك قوله عزَّ وجلّ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]. فالموقنون هم المتقون، والمهديون هم المرحومون.

وقد أُمِرْنا بطلب فهم القرآن كما أُمرنا بتلاوته، وفي خبر: «اقرؤوا القرآن والتَمِسوا غرائِبَهُ»(١).

وقال ابن مسعود: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور(٢) القرآن».

وفي حديث علي رضي الله عنه: «عليكُم بكتابِ الله عزَّ وجلّ فإنَّ فيه نبأَ ما كانَ قَبْلَكُم، ونَبأَ ما يأتي بعدكم، وحُكْمَ ما بينكُمْ، مَنْ خالفه من الجبابرة قصَمَهُ الله، ومن ابتغى العِلْم من غيره أضلَّهُ الله، وهو حَبْلُ الله المتين، ونورهُ المُبين، وشفاؤهُ النَّافع، عِصْمةٌ لمن تمسَّك به، ونجاةٌ لِمَن اتبعه، لا يعوّج فيقوم، ولا يزيغُ فيستقيم، ولا تَنْقضي عجائِبُهُ، ولا يَخْلُقُه كثرةُ الردِّ، هو الذي سمعته الجن فلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومهم منذرين، فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾، من قَالَ به صَدَقَ، ومن عَمِل به أُجِرَ، ومن تمسَّكَ به هُديَ إلى صراطٍ مستقيم»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٤٥٦) ومن طريقه أبو يعلى (٦٥٦٠) من حديث أبي هريرة؛ وإسناده ضعيف جدًّا؛ فيه عبد الله بن سعيد المقبري، متروك الحديث.

(٢) قال في القاموس: ثوّر القرآن: بحث عن علمه. اهـ. (المختصِر)، والأثر أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٥٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٤٨٢)، والترمذي (٢٩٠٦)، والدارمي (٢/ ٤٣٥) وإسناده ضعيف لا تقوم به حجة؛ فيه: أبو مختار الطائي، مجهول، وكذا ابن أخي الحارث الأعور كما في «التقريب» (ص ٧٧٤، ٨١٠ ط الشيخ محمد عوامة)، وكذا فيه الحارث بن الأعور، فيه ضعف.

وقال الترمذي بعده: «هذا حديث لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه، وإسناده مجهول =

وعن علي رضي الله عنه قال: ما أسرّ إليَّ رسول الله ﷺ شيئًا كتمه الناسَ، إلاَّ أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في كتابه(١).

وعنه رضي الله عنه أنه قال: ومن فهم فسَّر جُمَل العلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، قال: الفهم في كتاب الله عز وجلّ.

وقال أحسن القائلين: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فرفع الفهم مقامًا فوق الحكم والعلم، وأضافه إليه للتخصيص، وجعله مقامًا عامًّا فيهما.

فإذا فهم العبد الكلام وعامل به المولى تحقَّق بما يقول وكان من أصحابه ولم يكن حاكيًا لقائله، مثل أن يتلو منه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥]، ومثل أن يقول: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤]. ومثل قوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

فيكون هو الخائف لليوم العظيم، ويكون هو المتوكل المنيب، وهو الصابر على الأذى، متوكل على المولى؛ ولا يكون مخبرًا عن قائل قاله، فلا يجد حلاوة ذلك ولا ميراثه، فإذا كان كذلك وجد حلاوة التلاوة، وتحقق جزء الولاية.

= وفي الحارث مقال».

وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٤٨٢، ٤٨٣) من حديث ابن مسعود، وإسناده ضعيف فيه إبراهيم الهجري.

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١٢/ ٣٤٦).

وكذلك إذا تلا الآيَ المذمومَ أهلُها الممقوتَ فاعلُها، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]. وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩﴾ [النجم: ٢٩]. ومثل قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝١١﴾ [الحجرات: ٤٩]. فما أقبح مَنْ يعيب ذلك وهو من أهله، وما أعظم أن يذمَّ أهل ذلك وهو بوصفه، فهذا من حُجج القرآن عليه، فلا يجد مع ذلك حلاوة المناجاة، ولا يسمع خطاب المناجي، لأن وصفه المذموم قد حجبه، وهواه المُرْدي عن حقيقة الفهم قد حرمه، ولأن قسوة قلبه عن الفهم صَرَفه، وكذبه في حاله عن البيان أخرسه، فإذا كان هو المتيقّظ المقبل فهو التائب الصادق، سمع فصل الخطاب، ونظر إلى الداعي وله استجاب.

وقد اشترط الله عزَّ وجلّ للإنابة التبصرة، وحضور القلب للتذكرة، فقال عزَّ وجلّ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٨]. وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [غافر: ١٣]. وقال عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝١٩ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝٢٠﴾ [الرعد: ١٩، ٢٠]. فالاستقامة على التوبة من الوفاء بالعهد، وتعدي الحدود من نقض الميثاق وقلة الصدق، والإنابة هي التوبة والإقبال على الله عزَّ وجلّ، والألباب هي العقول الزاكية والقلوب الطَّاهرة.

وينبغي للتالي الخائف الناصح لنفسه وللخلْقِ، السليم القلب، إذا تلا آي الوعد والمدح ومحاسن الوصف ومقامات المقربين أن لا يشهد نفسه هناك، ولا يراها مكانًا لذلك، بل يشهد للمؤمنين فيها، وينظرْ إلى الصدِّيقين منها سلامةً ونصحًا، فإذا تلا الآيَ الممقوتَ أهلُها، المتهدَّد

عليها، المذموم وصفها، من مقامات الغافلين وأحوال الخاطئين، شهد نفسه هناك، وأنَّه هو المخاطب المقصود بذلك، خوفًا منه وإشفاقًا، فبهذه المشاهدة يرجو للخلق ويخاف على نفسه، ومن هذه الملاحظة يَسْلَم قلبه للعباد ويمقت نفسه.

وعن أبـي سليمان الداراني: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليالٍ ـ وذكر: خمس ليال ـ ولولا أنِّي أقطع الفكر فيها لما جاوزتها إلى غيرها.

وعن بعض السلف: أنَّه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ منها.

فإذا سجد العبد سجود القرآن فليَدْعُ في سجدته بمعاني الآية من الخير، وليستعذ من معاني شرها، فإنَّ ذلك فِعْلَ العلماء بالقرآن، والله يُحبُّ ذلك، ولتلك المعاني أسْجدَهم له، مثل أنْ يقرأ قوله عزَّ وجل: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]، فيقول: اللَّهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبِّحين بحمدكَ، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك. ومثل هذا قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩]. فليقل: اللَّهم اجعلني من الباكين إليكَ، الخاشعين لكَ. وعلى هذه المعاني ونحوها.

وقد نُدِب التَّحازُن في التلاوة والتباكي ليجتمع همُّ العبد في المتلوِّ فيتدبَّر الكلام، عسى أن يكون قلبه بمعناه، فيكون التباكي والتحزين سببًا

لجمع همِّه وفراغ قلبه، لأن المتباكي الصادق مجتمع الهمِّ فيما يبكِّيه، والحزين حاضر القلب مجموع الفكر مشغول عن سوى مُبكيه.

ولكن القرآن هو علمه وعمله، وذكره ودعاؤه، وهمُّه وشغله، فعنه يُسأَل، وعليه يُثَاب، وبتركه يُعاقب، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٦]، أي: تركتها فلم تعبأ بها ولم تنظر إليها، وهكذا اليوم تُترك فلا يُنظر إليكَ برحمةٍ ولا تُكَلَّم بلطفٍ، ولا تزلف بقُرْبٍ.

وكلُّ آية في التهديد والوعيد فللخائفين منها وعظ وتخويف، وللغافلين عنها وصف وتعريف، عَلِمه من علمه، كقوله تعالى في ذكر النار: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦].

وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، أي: أصرف عنهم فهم القرآن.

وفي الأخبار من ذمِّ قراءة البطَّالين أكثر من أن تُذكر، فمنها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَكْثَرُ مُنافقي أُمّتي قُرّاؤها»[(١)].

وكان ابن مسعود يقول: أُنزل عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إنَّ أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفًا وقد أسقط العمل به.

والمقصود بالقرآن: الائتمار لأوامره، والانتهاءُ عن زواجره، إذ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٢٨)، وأحمد (٢/ ١٧٥) من حديث عبد الله بن عمرو، وهو حديث صحيح.

حفظ حدوده مفترض ومسؤول عند العبد ومعاقبٌ عليه، وليس حفظ حروفه فريضة، ولا عقاب على العبد إذا لم يحفظ ما وسِعَه منه، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥]، أي: العمل به ثقيلٌ: وإلاَّ فقد يسَّره للذكر.

وقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من لا يحفظ إلاَّ السور المعدودة، ولم يستظهره منهم في العهد النبوي إلاَّ ستة[1]، وكلهم كان متّبعًا لأوامره مجتنبًا لزواجره عالمًا به فقيهًا فيه.

وقال يوسف بن أسباط ــ وقد قيل له: إذا ختمتَ القرآن، بأيّ شيء تدعو؟ فقال: ــ بأي شيء أدعو! أستغفر الله عزَّ وجلّ مائة مرة.

واعلم أن للعبد في قراءة القرآن بحسب ما له من تعظيمه والفهم له، والمشاهدة منه والمعاملة به، لأنه من أكبر شعائر الله في خلقه، وأعظم آياته في أرضه الدالاَّت عليه، وأسبغ نعمه الكاملة علينا، وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه، وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أُعطي من معرفة المتكلِّم وهيبته وإجلاله، فإذا عظُمَ المتكلِّم في قلبه وكبر في فهمه، أنعم تدبّر كلامه وأطال الفكر في خطابه، وأكثر ترداده وتكرره على قلبه، وأسرع بذكره عند النازلة به والحاجة إليه، فاتقى وحذر.

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [البقرة: ٦٣]. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٨٧﴾ [البقرة: ١٨٧]، و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢١﴾ [البقرة: ٢٢١] لأن كل كلام موقوف على قائله،

(١) راجع تتمة الكلام في ذلك في الأصل، أعني «قوت القلوب» صفحة ٥٨ من الطبعة المصرية. (المختصِر).

يعظم بتعظيمه، ويقع في القلب بعلو مكانه، أو يهون بسهولة شأنه، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] في العظمة والسلطان، وليس ككلامه كلام في الأحكام والبيان.

وإنما خفَّ القيام على أهل الليل لفهم الخطاب، وثَقُل على أهل النوم لانفصام القلوب عن الفقه وشدة الحجاب، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي: خفي علمها ــ يعني: الساعة ــ فثقلت عليهم، فسمَّى ما خَفِي علمه ثقيلاً، والله أعلم.

* * *

الفصل الثاني عشر
في حُكْمِ الجَهْرِ بالقرآنِ والإخفات، وما في ذلك من التفصيل حسب المقاصد والنِّياتِ

رُوي عن النَّبـي ﷺ: أنَّ فضل قراءة السرِّ على قراءةِ العلانية كفضل صدقة السرِّ على صدقة العلانية(١). وفي الخبرِ العامِّ: «يفضلُ عملُ السرِّ على العلانية بسَبْعين ضِعْفًا»(٢).

وسمعَ سعيدُ بن المسيِّب ذات لَيلَةٍ في مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبدِ العزيز يجْهَرُ بالقرآن في صلاتِهِ، وكان حسن الصوت، فقال لغلامِه: اذْهب إلى هذا المُصلِّي فمُرْهُ أن يخفضَ من صوته. فقال الغلام: إن المسجد ليس لنا وإن للرجل فيه نصيبًا. فرفع سعيد صوته فقال: يا أيها المصلِّي إن كنت تريد الله عزَّ وجلّ بصلاتك فاخفِض صوتك، وإن كنت

---

(١) أخرج أبو داود (١٣٣٣)، والترمذي (٢٩١٩)، والنسائي (٥/ ٨٠) من حديث عقبة بن عامر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجاهِرُ بالقُرْآنِ كالجاهِرِ بالصَّدَقَةِ، والمُسِرُّ بالقرآن كالمُسِرِّ بالصَّدَقَةِ»، وقال الترمذي بعده: «حديث حسن»، وهو كما قال.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٥١) من حديث عائشة، وإسناده ضعيف؛ فيه محمد بن حميد الرازي وإبراهيم بن المختار ومعاوية بن يحيى الصدفي، وكلهم ضعيف الحديث كما في «التقريب».

تريد النَّاس فإنهم لن يغنوا عنْك من الله شيئًا. قال: فسكتَ عمرُ وخفَّف ركعته، فلمَّا سلَّم أخذ نعليه وانصرف، وهو يومئذٍ أمير المدينة.

وقد روي أنَّ رسول الله ﷺ كان يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة في صلاة اللَّيل في مسجده فيستمع إليهم[1].

وقد استمع إلى أبـي موسى الأشعري، وقال عنه: «لقد أُوتي مِزْمارًا مِنْ مزاميرِ آل دَاود»[2].

قال أبو طالب رحمه الله: فنقول ــ والله أعلم ــ: إنَّ المخافتة بالقراءة أفضل إذا لم تكن للعبد نيَّة في الجهر؛ لأنه أقرب إلى السَّلامة وأبعد من دخول الآفة، وإن الجهر أفضل لمن كان له نيَّة في الجهر، ومعاملته مولاه به.

وفي الجهر بالقراءة سبع نيَّات، **منها**: التَّرتيل الذي أمر به.

ومنها: تحسين الصوت بالقرآن الذي ندب إليه في قوله ﷺ: «زيّنوا القُرآنَ بأصواتِكُمْ»[3]، وفي قوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يتغنّ بالقُرآن»[4]، أي: يحسن به صوته[5]. **ومنها**: أن يُسمع أُذنيه ويوقظ قلبه، ليتدبر الكلام،

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ١٣٦)، ومسلم (١/ ٥٤٣) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٩٢)، ومسلم (١/ ٥٤٦) من حديث أبـي موسى.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤)، وأبو داود (١٤٦٨)، والنسائي (٢/ ١٧٩، ١٨٠)، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص ١٦٠)، والدارمي (٢/ ٤٧٤) من حديث البراء بن عازب، وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه البخاري (١٣/ ٥٠١) من حديث أبـي هريرة.

(٥) هذا أحد الوجهين في معنى الحديث وأحبهما إلى أهل العربية، والوجه الآخر، أي: من لم يستغن به، من الغنية والاكتفاء. (المختصِر).

ويتفهم المعاني. ولا يكون ذلك كلّه إلاَّ في الجهر.

ومنها: أن يطرد الشّيطان والنَّوم عنه برفع صوته.

ومنها: أن يراه بطّالٌ غافلٌ فينشط للقيام، ويشتاق إلى الخدمة، فيكون مُعاونًا له على البرِّ والتقوى. **ومنها**: أن يكثر بجهره تلاوته، ويدوم قيامه على حسب عادته للجهر، ففي ذلك كثرةُ عمله.

فإذا كان العبد معتقدًا لهذه النيّات، طالبًا لها، ومتقرّبًا إلى الله سبحانه وتعالى، مصححًا لقصده، ناظرًا إلى مولاه الذي استعمله فيما يرضاه، فجهره أفضل؛ لأن له فيه أعمالاً، وإنما يفضل العمل بكثرة النيّات فيه، وارتفع العلماء وفَضُلت أعمالهم بحسن معرفتهم بنيَّات العمل واعتقادهم لها، فقد يكون في العمل الواحد عشر نيات، يعلم ذلك العلماء فيعملون بها فيعطون عشرة أجور، وأفضل النَّاس في العمل أكثرهم نية فيه وأحسنهم قصدًا وأدبًا.

والتَّالي شريك المُستمع في الأجر؛ لأنَّه أكسبه ذلك، سِيَّما إذا كان عالمًا بالقرآن، فقيهًا فيه، فيكون مقرؤه ووقوفه حجَّة وعلمًا لسامعه.

فإن لم يكن للتَّالي نيَّة في شيء ممَّا ذكرناه وكان ساهيًا غافلاً عن ذلك، فعليه أن يحتمي الجهر، وقد يكون العبد واجدًا لحلاوة الهوى في الصَّلاة والتَّلاوة وهو يظن أن ذلك حلاوة الإخلاص، وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفية، وقد يلتبس ذلك على الضعفاء، ولا يفطن له إلاَّ العلماء، وإنما يجد حلاوة الإخلاص الزاهدون في الدُّنيا في مدح الناس لهم به، المحبون لله عزَّ وجلّ، الخائفون فيه، وعلامة ذلك استواء المدح والذم، وفي هذا المقام يستوي السر والعلانية.

وليحذر العبد من صنوف الرِّياء ودقائق آفات النفوس، وقد روي أن النبي ﷺ سَمِعَ رجلاً يجهر بقراءته فناداه: «يا فلان أَسْمِعِ اللَّهَ ولا تُسْمِعني»[1].

واعلم أنَّ السمعة مقرونةٌ بالرِّياء، ومحكوم لها بحكمه من فساد العمل ونقصان العامل، وهي مأخوذة من السَّمع، كأنّ العبد يُسمع بعمله غير الله عزَّ وجلّ، ويحب أن يُسْمِعَ به مخلوقًا ليمدحه به؛ لغلبة هواه وضعف نفسه، فيكون قد أشرك في عمله غير الله عزَّ وجلّ، فيبطل عمله لجهله بالتوحيد، إذ لو علم يقينًا أن لا نافع إلاَّ الله عزَّ وجلّ ولا ضار ولا معطي ولا مانع إلاَّ إياه، خلص له توحيده من الشِّرْكِ فخلص له عمله من الرّياء.

وكذلك الرّياء: مأخوذ من رأي العين، فالسّمعة هي بمعناه، وفي الخبر: «من سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ راءَى راءَى اللَّهُ بِهِ وصَغَّرَه وحَقَّرَه»[2].

---

(١) أخرج أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٦٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٩٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (جزء عبد الله بن جابر ـ عبد الله بن زيد) (ص ١٣٠) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سمع رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة يقرأ في المسجد، يجهر بقراءته في صلاة النهار فقال: «يا ابن حذافة سَمِّعِ الله ولا تُسَمِّعْنا»، وهذا السند ظاهره الإرسال؛ فإن المِزِّيَّ في «تهذيب الكمال» (٣٣/ ٣٧١) لم يذكر أن أبا سلمة بن عبد الرحمن روى عن عبد الله بن حذافة.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢) والطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» (١٠/ ٢٢٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢٣، ١٢٤، ٥/ ٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو، =

فأما من كانت له نيّة صالحة في أن يُسمع أخاه كلام الله ليتعظ به ويتدبره، أو ينتفع باستماعه ويتذكر به، فليس داخلاً في السمعة؛ لوجود حُسن النية وصحة القصد، ولفقد اقتران الآفة لإرادة طمع عاجل من مدح أو غرض دنيا.

وقد روي أن النبي ﷺ استمع إلى قراءة أبي موسى، فقال: «لقد أوتي هذا مِزْمارًا من مزامير آل داود»، فبلغ ذلك أبا موسى، فقال: يا رسول الله، لو علمت أنّك تستمع إليّ لحبَّرتُهُ لك تحبيرًا[1]. فلم ينكر النبي ﷺ، لأنَّه ذو نيّة في الخير، وحسن قصد به. وكأن الذي أنكر عليه، وقال له: «أسْمع الله ولا تسمعنى»[2] شهد فيه السّمعة أو التشويش. والله أعلم.

وقراءة القرآن في المصحف أفضل من قراءته عن ظهر قلب، لأن النَّظر في المصحف عبادة، وكان كثير من الصَّحابة والتابعين يقرؤون في المصحف، ويستحبّون أن لا يخرجوا يومًا إلاَّ نظروا فيه، فرضي الله عنهم.

* * *

= وإسناده صحيح، وقال الهيثمي بعده: «رجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني في الكبير رجال الصحيح». اهـ.

(١) أخرجه مسلم (١/٥٤٦)، وزيادة: «لو علمت...». أخرجها البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/٢٠٣، ٢٣١) وهذه الزيادة إسنادها صحيح.

(٢) تقدم تخريجه (ص ٧٢).

الفَصْلُ الثَّالِث عشر
في صَلاَة الجُمُعة، وهيآتِها، وآدابِها، وما يُسْتَحَبُّ من العَمَلِ فيها

صلاة الجُمُعة واجبةٌ بأوصافٍ، وساقطة بأوصاف.

فوجوبها: يكون بالإقامة، والاستطاعة، وحضور وقت الظُّهر، وكون مُجَمِّعيها رجالاً أحرارًا.

وسقوطها: بالسفر، ودخول وقت العصر، وبالأنوثة، وبالرِّقِّ، والصبا، والمرض.

وهي من أعمال الأُمراء، أو مأذونيهم إذا مسَّت الحاجة إلى التعداد، فتصلَّى خلف كلٍّ من أقام بها منهم.

فإن اجتمع في بلد كبير جامعان فصلاتها في الجامع الأعظم وحيث يكون المسلمون أفضل، ومن صلَّى في أيهما بعد أن تمس الحاجة إليه أجزأت صلاته.

وهو يوم عظَّمَ الله به الإسلام وزيَّنه، وشرَّفَ به المسلمين وفضَّلَهم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ

﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ٩، ١٠] فالبيع والشراء محرّم بعد الأذان للجُمعة عند طائفة من العلماء؛ لعموم النهي عنه. ومنهم من قال: يُرَدُّ البيع لأنه فاسد.

قال أبو طالب رحمه الله: إلاَّ أنِّي أحسب أنَّ ذلك يحرم عند الأذان الثَّاني، وهو مع خروج الإمام إذا قعد على المنبر؛ لأن هذا كان هو الأذان على عهد رسول الله ﷺ وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والأذان الأول أحدثه عثمان رضي الله عنه لمَّا كثر الناس.

وتُقصد من فرسخين أو ثلاثة، واستحب لمن بكّر إليها من أهل القُرى فأدركها، وأدركه الليل فآواه إلى أهله إذا رجع أن يشهدها.

ومن شهدها ممن لم تجب عليه كالصبيّ والمملوك والمرأة والمسافر والمريض فصلاَّها أجزأت عنه وكان مُؤدِّيًا لفرضه.

وقد رُوي في فضله أحاديث كثيرة، منها: قوله ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فيه الشَّمْسُ، يَوْمُ الجُمُعَة، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدخِلَ الجَنَّة، وفيه أُهْبِطَ إلى الأرض، وفيه تقوم السَّاعة»(١).

وقال ﷺ: «مَنْ راحَ إلى الجُمعة في السَّاعة الأُولى فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَدنةً، ومَنْ راحَ في السَّاعَةِ الثَّانية فكأنّما قَرَّبَ بَقَرَةً، ومن راحَ في السَّاعَةِ الثَّالثةِ فكأنَّما قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ راحَ في السَّاعة الرَّابعَةِ فكأَنَّما قَرَّبَ دجاجةً، ومن راح في السّاعَةِ الخامسة فكأَنَّما قرَّبَ بَيْضةً، فإذا خَرَجَ الإمامُ طُوِيت الصُّحف، واجتمعت الملائِكة يستمعون الذِّكْرَ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٢/ ٥٨٢) من حديث أبي هريرة.

قال أبو طالب: ولا تقعد إلى القصَّاص يوم الجمعة، فقد كُره ذلك، ولا في حلْقةٍ قبل الصلاة، إلاَّ أن يكون عالمًا بالله تعالى يذكِّر بأيام الله عزَّ وجلّ ويفقه في دين الله عزَّ وجلّ.

ولا يدع الغسل يوم الجمعة إلاَّ من ضرورة: فإنه عند بعض العلماء فرض؛ لقوله ﷺ: «غُسْلُ الجُمُعَةِ واجبٌ على كُلِّ مُحْتَلِمٍ»(١).

وفي ترك الغسل رخصةٌ استنادًا لخبر مُسْنَدٍ: «مَنْ توضأ يَوْم الجُمعة فَبِها وَنِعْمَتْ، وَمَنْ اغتَسل فالغسلُ أفضل»(٢).

ومن اغتسل بعد طلوع الفجر للجمعة أجزأه، ولكن أفضل الغسل لها عند الرواح إلى الجامع.

ويُستحب أن يستاك، وأن يَلْبَسَ من صالح ثيابه، ويجتنب الشُّهرة من الثياب، ومن أفضل ما لُبس البياض، ولْيُقَلِّمْ أظفاره، ويأخذ من شاربه، وليتطيَّب بأطيب طيبه مما ظهر ريحه وخفي لونه؛ فذلك طيب الرِّجال، وطيب النِّساء مما ظهر لونه وخفي ريحه.

وليخرج إلى الله عزَّ وجلّ خاشِعًا مُتواضعًا ذا سكينةٍ ووقارٍ، وإخباتٍ وافتقارٍ، وليُكثر من الدعاء والاستغفار، وينوي في خروجه التقرب إلى مولاه بأداء فريضته والعكوف في المسجد إلى حيث انقلابه، ثُمَّ لينو كفَّ جوارحه عن اللَّهو واللَّغو.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٣٤٤)، ومسلم (٢/ ٥٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٨، ١٩، ١٦، ٢٢)، وأبو داود (٣٥٤)، والترمذي (٤٩٧)، والنسائي (٣/ ٩٤)، والدارمي (١/ ٣٦٢) من حديث سمرة بن جندب، وقال الترمذي بعده: «حديث حسن» وهو كما قال.

ومن السَّلف العابدين مَن كان يتقي الشّغل ويترك راحته في ذلك اليوم في مهناه من عاجل حظٍّ دنياه، فكان يواصل الأوراد فيه، فيجعل أوّله إلى انقضاء صلاة الجمعة للخدمة بالصَّلاة في المسجد، وأوسطه إلى صلاة العصر لاستماع العلم ومجالس الذكر، وآخره إلى غروب الشمس للتسبيح والاستغفار، فرضي الله عن الصالحين وحشرنا في زمرتهم.

ومن صامه فحسنٌ أن يضمّ إليه يوم الخميس، أو يضيف إليه يوم السبت، وقد كره إفراده بصوم. ومن لم يصمه وكان له أهل فالمستحب أن يجامع فيه؛ فقد روي فضل ذلك، وكان بعض السلف يفعله.

وقد روِّينا عن رسول الله ﷺ: «من غَسَّلَ واغتَسلَ، وبَكَّرَ وابتَكَرَ، وَدَنا من الإمامِ ولَمْ يَلْغُ، كان له ذلك كفَّارة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام»[١].

وفي رواية: «ولم يتخطّ رقاب النَّاس»[٢].

فمعنى قوله: «من غسَّل» ــ بالتشديد ــ أي: غسل أهله، كناية عن الجماع، وبعض الرواة يخفِّفه فيقول: «غسَل واغتسل» فيكون معناه: غَسَل رأسه واغتسل لجسده.

وليتق أن يتخطَّى رقاب النَّاس؛ فإن ذلك مكروه جدًّا، وقد جاء فيه وعيد شديد.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الحاكم (١/ ٢٨١)، والبيهقي (٣/ ٢٢٧) من حديث أوس بن أوس، وإسناده صحيح.

(٢) أخرج هذه الرواية: أحمد (٣/ ٨١)، وأبو داود (٣٤٣)، والحاكم (١/ ٢٨٣)، والبيهقي (٣/ ٢٤٣) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، وإسناده جيد.

وفي الخبر المشهور: «إنَّ في الجُمُعة ساعةً لا يُوافقها عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسأل الله عزَّ وجلّ فيها شيئًا إلاَّ أعطاه»[1].

وفي رواية: «لا يُصادِفُها عَبْدٌ يُصلي»[2]، وقد قيل: بأن هذه الساعة إذا قام الناس إلى الصلاة. وقيل: عند الزوال. ويقال: مع الأذان. وقيل: بعد العصر. فليتوخ هذه الأوقات، وليتعهد الدُّعاء فيها.

وقد قال بعض العلماء: إن هذه الساعة مبهمة في جميع اليوم، لا يعلمها إلاَّ الله عزَّ وجلّ؛ ليكون العبد طالبًا إلى الله عزَّ وجل وراغبًا، مُتضرعًا مفتقرًا في جميع ذلك اليوم، فمن عمَّر بالذكر ساعاته صادفها بإذن الله عزَّ وجلّ.

وليُكثر من الصَّلاة على النَّبـيّ ﷺ في يوم الجمعة وليلتها.

ومـن صيغهـا المـأثـورة: اللَّـهـم صـلِّ علـى محمَّـد عبـدك ونبيِّـك ورسولك النبـيِّ الأمّـيِّ، والصلاة المشهورة هي التي رويت في التشهد.

ومن صيغها الجليلة: اللَّـهم صلِّ على محمد وعلى آل محمَّد صلاة تكون لك رضاءً ولحقّه أداءً، وأعطه الوسيلة، وابْعثه المقام المحمود الذي وعدته، واجْزه عنَّا ما هو أهلُه، واجزه أفضل ما جزيت نبيًّا عن أمته، وصلّ على جميع إخوانه من النبيِّين والصَّالحين يا أرحم الراحمين.

ومنها: اللَّـهم اجْعل فضائل صلواتك، وشرائف زكواتك، ونوامي بركاتك، ورأفتك ورحمتك وتحننك، على محمد سيِّد المرسلين، وإمام

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٤١٥)، ومسلم (٢/ ٥٨٤) من حديث أبـي هريرة.

(٢) أخرج هذه الرواية أحمد (٢/ ٤٨٦)، والحاكم (١/ ٢٧٨، ٢٧٩) من حديث أبـي هريرة، بإسناد صحيح.

المتقين، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، قائد الخير، وفاتح البرّ ونبي الرحمة وسيد الأمة. اللّـٰهم ابعثه مقامًا محمودًا تزلف به قربه، وتقرّ به عينه، يغبطه به الأولون والآخرون. اللّـٰهم أعطه الفضل والفضيلة، والشَّرف والوسيلة والدَّرجة الرفيعة، والمنزلة الشامخة المنيفة. اللّـٰهم أعط محمَّداً سؤله، وبلّغه مأموله، واجعله أوَّل شافع وأوَّل مشفّع. اللّـٰهم عظِّم برهانه، وثقِّل ميزانه، وأبلج حجَّته، وارفع في أعلى المقرَّبين درجته. اللّـٰهم احشرنا في زمرته، واجعلنا من أهل شفاعته، وأحينا على سنَّته، وتوفّنا على ملَّته، وأوردنا حوضه، واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين، ولا شاكين ولا مبدلين، ولا فاتنين ولا مفتونين، آمين يا رب العالمين[1].

وليُكثر من الاستغفار يوم الجمعة وليلتها، وأيّ لفظ ذكر فيه سؤال المغفرة فهو مستغفر، وإن قال: «اللّـٰهم اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التَّواب الرَّحيم»[2] فهو أفضل.

وإذا دخل الجامع فلا يقعد حتى يصلي ركعتين قبل أن يجلس، وكذلك إن دخل والإمام يخطب صلاَّهما خفيفتين.

وليس يُروى أن النبي ﷺ كان يقرأ سورًا بأعيانها إلاَّ يوم الجمعة وليلتها، فإنَّا روِّينا أنّه كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[3].

---

(١) انظر: «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي (ص ٨٧ وما بعدها).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٢٣٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٣ ـ ١٠٦) من حديث رجل من الصحابة، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن حبان (١٨٤١) من حديث سمرة بن جندب، وإسناده ضعيف جدًا فيه سعيد بن سماك متروك الحديث.

وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين[1]، وقد روي أنَّه كان يقرأ بهاتين السورتين في صلاة الجمعة[2]، وكان يقرأ في صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، وسورة: ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾[3].

وليحذر أن يمرّ بين يدي المصلي؛ ففي الخبر: «لأَنْ يقف أحدكم أربعين خيرٌ لَهُ من أن يَمُرَّ بين يدي المُصلِّي»[4].

وليدن المصلي من أسطوانة أو جدار، فإن فعل ذلك فلا يدعنّ أحدًا أن يمرّ بين يديه، وليدفعه ما استطاع، فإن لم يتّفق له أسطوانة فليجعل شيئًا بين يديه يكون طوله عظم الذراع.

وكان الحسن يقول: تَخَطَّوْا رقاب الذين يقعدون على أبواب الجامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم.

وليقترب من الإمام وينصت ويسمع ويستقبله بوجهه، كذلك السنَّة، إلَّا أن يخاف أن يسمع أو يرى منكرًا، من لبس حريرٍ أو ديباجٍ أو جميلِ سلاحٍ ثقيلٍ، ولا يستطيع تغييره، فليبعد حينئذ فهو أسلم.

ولا يلغو ولا يتكلم في خطبة الإمام وإن بعد، ولا يقول لآخر اسكت، ولكن يومىء إليه إيماء أو يحصبه بحصاة، فإن لغا والإمام يخطب بطلت جمعته، ولا يتكلم في العلم في خطبة الإمام، ومن لم يقرب من

---

(١) الحديث الوارد في ذلك هو نفسه الوارد في قراءة صلاة المغرب، أي حديث سمرة بن جندب المتقدم (ص ٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٣٧٧، ٥٥٢)، ومسلم (٢/ ٥٩٩) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٥٨٤)، ومسلم (١/ ٣٦٣) من حديث أبي جهيم الأنصاري.

الإمام ولم يستمع فلينصت وإن بعد، كذلك المستحب.

ومن خشي الفتنة والآفة في قربه من الإمام بأن يسمع ما يجب عليه إنكاره، أو يرى ما يلزم الأمر فيه أو النَّهي عنه، كان بُعده من الصفوف المقدمة أصلح لقلبه وأجمع لهمه، لقلة ملاقاة الناس ولترك النظر إليهم، فالأصلح للقلب والأجمع للهم هو الأفضل حينئذٍ.

وقد كان جماعة من العلماء والعباد يُصلُّون في أواخر الصفوف إيثارًا للسَّلامة.

ونظر سفيان الثوري إلى شُعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى خطبة أبي جعفر، فلما جاءه بعد الصلاة قال: شغل قلبي قربك من هذا، هل أمنت أن تسمع كلامًا يجب عليك إنكاره فلا تقوم به؟ قلت: يا أبا عبد الله، أليس في الخبر: «ادن واستمع»، فقال: ويحك، ذاك للخلفاء الراشدين المهديين، فأمَّا هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب لك إلى الله عز وجل.

والصَّدقة مستحبَّة مفضَّلة يوم الجمعة خاصَّة، فإنها تضاعف إلاَّ على من سأل والإمام يخطب، فمن العلماء من كره الصدقة على سؤَّال الجامع الذين يتخطّون رقاب الناس، إلاَّ أنْ يسأل قائمًا من غير أن يتخطّى المسلمين، أو قاعدًا في مكان.

وإن سمع قراءة الإمام لم يقرأ في صلاته إلاَّ سورة الحمد لا غير، وإن لم يسمع قراءته قرأ سورةً مع الحمد إن أحب.

ويُندب له أن يصلِّي بعد الجمعة ركعتين أو أربعًا، فقد روي كل ذلك من فعله صلَّى الله عليه وسلَّم(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٠٠، ٦٠١) من حديث أبي هريرة وابن عمر.

فإذا صلَّى الجمعة انتشر في أرض الله عزَّ وجلّ يطلب من فضل الله عزَّ وجلّ [فيأخذ في البيع والشراء والأخذ والعطاء والحرفة والصنعة التي يعتاش بها ويرتاش][1].

ومن الفضل طلب العلم واستماعه، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠]، يعني العلم بدليل، نظيرها من الآية الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ [النمل: ١٥].

والذِّكر بالعلم، وتعليم النَّاس إياه، والتذكير بالله عزَّ وجلّ، والدعوة إليه في يوم الجمعة له فضل، فللقلوب فيه إقبال، وكذلك السعي إليه والاستماع له.

وإن حضر عالم يتكلم بعلم الدِّين وكان العبد محتاجًا إلى ذلك وجالسه فهو الأفضل، فإن مجالس العلماء في الجامع من زين يوم الجمعة، قال الحسن: **الدنيا ظلمة إلاَّ مجالس العلماء**.

وليلة الجُمَعِ من أفضل الليالي، فيستحب فيها ما يستحب في يومها من الذكر والصلاة على النبي ﷺ فلا يدعنَّ ذلك مَن وجد إليه سبيلاً، فإن للصادق المريد للخير في كل وقت مفضل من الله عزَّ وجلّ مزيدًا، وبالله التوفيق.

* * *

(١) ما بين المعكوفين من وضع العلاَّمة القاسمي ليفيد به أنه من كلامه لا من كلام صاحب «قوت القلوب».

الفَصْل الرَّابع عشر
في الصِّيامِ وَوَصْفِ الصَّائِمينَ

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، جاء في التفسير: الصبر، يعني الصوم[١]. وكان رسول الله ﷺ يُسمِّي رمضان شهر الصبر[٢]؛ لأنَّ الصَّبر حبس النفس عن الهوى وإيقافها وحبسها على أمر المولى، وكذلك الصَّوم: منع النفس عن ملاذِّها وشهواتها من الطعام والشراب، ففي الصوم عون على مُجاهدة النَّفس وقطع حظوظها ومنع عادتها ونقصان هواها.

وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: كُلُّ عَمَلِ ابن آدمَ له إلاَّ الصَّوْمَ، فإنَّه لي وأنا أجزي به»[٣]، فأضافه عزَّ وجلّ إليه تفضيلاً له وتخصيصًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

---

(١) الظاهر: أنه من باب تفسير العام بأهم أفراده، وقد كثر هذا في كلام المفسرين في نظائره، ولذا كان لا ينافي في تفسيره بغيره مما يتناوله الصبر، فاحفظ هذا ينفعك في مواضع عديدة. اهـ. جمال الدِّين.

(٢) أخرج النسائي (٤/٢١٨، ٢١٩) بسند صحيح من حديث أبـي هريرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شَهْرُ الصَّبرِ وثلاثة أيام من كُلِّ شهر صوم الدهر».

(٣) أخرجه البخاري (٤/١١٨)، ومسلم (٢/٨٠٧) من حديث أبـي هريرة.

[الجن: ١٨]. وكما قال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، فلمّا كانت المساجد أحبّ بيوت الدنيا إليه، وكانت مكّة أشرف البلاد عنده أضافها إلى ذكره، وله كل شيء، كذلك لما كان الصيام أفضل الأعمال عنده وأحبّها إليه ـ لأنَّ فيه خُلقًا من أخلاق الصَّمديَّة، ولأنه من أعمال السِّرِّ بحيث لا يطَّلع عليه إلاَّ هو ـ أضافه لنفسه.

وهو أحد الوجوه في قوله عزَّ وجلّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، قيل: كان عملهم الصِّيام.

وكذلك في تأويل قوله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، قيل: هم الصائمون، كأنهم ساحوا إلى ربهم عزَّ وجلّ بجوعهم وعطشهم، وتركوا قرَّة أعين أبناء الدنيا من أكلهم وشربهم، فآواهم مولاهم فيما أخفى لهم من قرَّة أعين جزاءً لعملهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، قيل: الصائمون.

والصبر: اسم من أسماء الصوم، فلما أخفى ذكره بالصوم في نفسه أخفى الله عزَّ وجلّ جزاءه إيَّاه عن غير نفسه.

ويُستحبّ صوم ثلاثة أيام من كلِّ شهر وهي أيام البيض، وصوم الاثنين والخميس، وصوم عاشوراء، ويوم عرفة، وستة أيام من شوّال.

ولا يجوز أن يستقبل رمضان بيومين أو ثلاثة إلاَّ أن يوافق عادةً له. وكان بعض الصحابة يكره أن يُصام رجب كله لئلاَّ يضاهي به شهر رمضان، وكانوا يستحبّون أن يفطروا منه أيَّامًا.

وقد كره قوم صيام الدَّهر كلّه، ووردت أخبارٌ في كراهته، ودلَّت

الأخبار على فضل صوم نصف الدَّهر، بأن يصوم يومًا ويفطر يومًا[(١)]؛ وذلك ليكون العبد بين حالين: حال صبر، وحال شكر.

وقد رويت آثار في فضائل أنواع من الصِّيام.

قال أبو طالب رحمه الله: وليس مذهبنا الاشتغال بذكر فضائل الأعمال، إنما طريقنا تهذيب قلوب العمال، فبطهارة القلوب وحقيقة الإيمان تزكو الأعمال، ويتقرّب العاملون من ذي الجلال، ولا حول ولا قوّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم.

واعلم وفَّقك الله تعالى أنَّ الصَّوم عند الصَّائمين هو صوم القالب، فأما صوم الخصوص من الموقنين فإنَّ الصَّوم عندهم هو صوم القلب عن الهمم الدنيَّة والأفكار الدنيويَّة، ثُمَّ صوم السَّمْعِ والبصر واللِّسان عن تعدِّي الحدود، وصوم اليد والرِّجل عن البطش والسَّعْي في أسباب النَّهي.

فمن صام بهذا الوصف فقد أدرك وقته في جملة يومه، وصار له في كل ساعة من نهاره وقت، وقد عمَّرَ يومه كلّه بالذِّكر، ولمثل هذا قيل: نوم الصائم عبادة، ونَفَسه تسبيح[(٢)].

وقد قَرَنَ الله عزَّ وجلّ الاستماع إلى الباطل والقول بالإثم إلى أكل الحرام. ولولا أنَّ في المسموعات والمقولات حرامًا على المستمع

---

(١) أخرج البخاري (٤/ ٢٢٤)، ومسلم (٢/ ٨١٥ ـ ٨١٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ.
وفيه: «لا صام من صام الدهر»، وفي آخره: «لا صوم فَوْقَ صَوْمِ داود عليه السلام: شطر الدَّهْرِ، صُمْ يومًا وأَفْطِرْ يومًا».

(٢) انظر ما مضى (ص ٤٨).

والإصغاء إليه وحرامًا على القائل النطق به ما قرنهما إلى أكل الحرام، وهو من الكبائر، فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وقال سبحانه: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]، فمن صام من الأكل والجماع وتعدَّى الحدود وأضاع، فهو مفطر عند الله عزَّ وجلّ صائم عند نفسه؛ لأنَّ ما أضاع أحبُّ إلى الله عزَّ وجلّ وأكثرُ مما حفظ.

وكان أبو الدرداء يقول: يا حبَّذا نومُ الأكياس وفِطْرُهم، يَعيبون صومَ الحمقى وسَهَرَهم.

ولَذَرَّةٌ من ذي يقين أفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترِّين.

وكلّ محظور عليك أن تتفوّه به فمحظور عليك أن تستمع إليه.

وكل حرام عليك أن تفعله فمكروه أن تنظر إليه، أو يخطر ببالك. وقد سوَّى الله عزَّ وجلّ بين المستمع والقائل في قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

ومثل الصائم مثل التوبة؛ لأنَّ الصبر من أوصافها، وإنما كانت التَّوبة مكفِّرة لما سلف من السيِّئات؛ لأجل أنَّه صبر عمّا سلف من سيِّء العادات ثُمَّ اعتقد ترك العود إلى مثل ما سلف بصيانة جوارحه التي كانت طرائق المكروهات، كذلك كان الصيام جُنَّةً من النار، وفضيلة من درجات الأبرار، إذا صبر عليه الصائم فحفظ جوارحه فيه من المآثم، فإذا أمرحها في الآثام كان كالتَّائب المتردِّد النَّاقض للميثاق لم تكن توبته نصوحًا، ولا كان صوم هذا صالحًا وصحيحًا، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «الصَّوْمُ

جُنَّة من النار ما لم يخرقها بِكَذبٍ أو غِيبة»[1]، وأمره في قوله عليه السلام: «إذا كان يَوْمُ صَوْمِ أَحدِكم فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهل، وإن امرؤٌ شاتَمه فليقـل: إنِّي صـائم»[2]، أي: يذكـر الأمانـة التـي حمـل، فـلا يضيِّعها. والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه النسائي (٤/ ١٦٧)، وابن خزيمة (١٨٩٢)، والبيهقي (٤/ ٢٧٠) من حديث أبـي عبيدة، وإسناده ضعيف، فيه عياض بن غطيف لين الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١١٨)، ومسلم (٢/ ٨٠٧) من حديث أبـي هريرة.

الفصل الخامس عشر
في مُحاسَبَةِ النَّفْسِ

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ . . .﴾ إلى قوله: ﴿أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقرئت: ﴿آتَيْنَا بِهَا﴾ ممدودة، أي: جازينا بها؛ فالتخويف بهذا الحرف أشدّ وأبلغ. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ . . .﴾ الآية [الزلزلة: ٦].

وأوصى أبو بكر عمرَ رضي الله عنهما عند موته، فقال: إنَّ الحقَّ ثقيل، وهو مع ثقله مريء، وإنَّ الباطل خفيف، وهو مع خفَّته وبيء. وإنَّ لله عزَّ وجلّ حقًّا بالنهار لا يقبله بالليل، وحقًّا باللَّيل لا يقبله بالنهار. وإنك لو عدلت على الناس كلهم وجُرت على واحد منهم لمال جورك بعدلك؛ فإن حفِظتَ وصيَّتي لم يكن شيء أحبَّ إليك من الموت، وهو مدركك؛ وإن ضيَّعتَ وصيَّتي لم يكن شيء أبغضَ إليك من الموت، ولن تُعجزه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوها قبل أن توزَنوا، وتزيَّنوا لِلعَرْض الأكبر على الله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، وإنما خفَّ الحسابُ في الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدُّنيا، وثقُلت موازينُ قوم في الآخرة وزَنوا أنفسهم في الدُّنيا، وحُقَّ لميزانٍ لا يوضع فيه إلاَّ الحقُّ أن يكون ثقيلاً.

فمحاسبة النَّفس تكون بالورع، والموازنة تكون بمشاهدة اليقين، والتزيُّن للعرض الأكبر يكون بمخافة الملك الأكبر، وهو حقيقة الزُّهد.

وأوصى رسول الله ﷺ أبا ذرٍّ، فقال له: «اتَّقِ اللَّـهَ حيثُما كُنْتَ، وأَتْبِـع السيِّئَةَ الحَسنةَ تَمحُها، وخالِقِ النَّاس بخُلقٍ حسن»(١). ووجدت هذه الوصية في كتاب الله عزَّ وجلّ لعباده بقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. والكلمة الثانية في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]، أي: يدفعون بعمل الحسنة ويُتْبِعونها السيئة المتقدِّمة تكفِّرها. والكلمة الثالثة في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقد أخبر الله عزَّ وجلّ عن وصيَّة عباده الصَّالحين بثلاث، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ٢]، أي: لفي خسران ونقص بفوت أوقاته وفقد أرباحه، ثُمَّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]. وقال في الوصف الثالث: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٢٨، ٢٣٦)، والترمذي (٤/٣٥٥، ٣٥٦) وغيرهما، وهو حديث قوي، وقد أفضت في الكلام عليه في تحقيقي لكتاب «التنقيح» لابن ناصر الدِّين الدمشقي (ص ١٣٨، ١٣٩).

واتِّباع الحقِّ بمخالفة الهوى فيه الصلاح، إذ في موافقة الهوى الفساد.

والصبر قوام الأمر، وبمقداره يكون الرِّبح.

والرَّحمة للخلق باب الرحمة من الخالق، ومفتاح حسن الخلق، ومعها حسن الظَّنِّ، وسلامة القلب، وعندها ينتفي الحسد والغلُّ، ويوجد التواضع والذلّ، وهذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ الذين اختارهم لصحبة نبيِّه عليه السلام، وأنزل عليهم السكينة وأيدهم بروح منه، فقال: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال تعالى في حقيقة الرَّحمة: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقال في مثله عن وصف أحبابه لإخوانهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهذه الثَّلاثة مفاتيح رقة القلب ومغالق القسوة؛ وفي الرِّقَّة الإقبال على الله عزَّ وجلّ، وعلى الدَّار الآخرة، والتيقُّظ لأمره، والتفكُّر في وعده ووعيده. وفي القسوة الإعراض، وطول الغفلة.

فمحاسبة النَّفس تكون بالورع، وموازنتها تكون بمشاهدة عين اليقين.

وفي الخبر المشهور: «ثلاثٌ منْجياتٌ، وثلاثٌ مهلكاتٌ؛ فأمَّا المُنْجيات: فَخشية اللّٰهُ في السِّرِّ والعَلانية، وكلمة العَدْلِ في الرِّضا والغَضَب، والقَصْدُ في الغنَى والفَقْر؛ وأما المُهْلكات: فَشُحٌّ مطاعٌ، وهوىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بنفسِهِ»[1].

---

(١) أخرجه البزار (٨٠ ـ كشف الأستار)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٣) من =

وقد روي عنه ﷺ حديث جامع مختصر في اللفظ والمعنى، يقال: إنه نصف العلم، وهو قوله: «مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيه»[1].

وما لم يؤمر به العبد فرضًا، ولم يُندب إليه فضلاً، ولا يحتاج إليه مباحًا فهو مما لا يعنيه.

وفي حديث آخر، هو نصف الورع، قوله ﷺ: «دع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك؛ فإنَّ الإثم جوار القلوب»[2]، أي: دع ما تشكَّنَّ فيه من قولٍ أو فعلٍ ــ فإنَّ فيه غنيمةً أو سلامةً ــ إلى شيءٍ أنت على يقين من الفضيلة فيه أو السلامة معه. وما حزّ في قلبك ولم ينشرح له فدعه؛ فإنَّ ذلك إثم وإن قلَّ ودقَّ.

وصورة المحاسبة: أن يقف العبد وقفةً عند ظهور الهمَّة وابتداء الحركة، ثُمَّ يُميز الخاطر وهو حركة القلب، والاضطراب وهو تصرُّف الجسم، فإن كان ما خطر به الخاطر من الهمَّة، التي تقتضي نيَّةً أو عقدًا أو عزمًا أو فعلاً أو سعيًا، إن كان لله عزَّ وجلّ، وبه وفيه معنىً لله

= حديث أنس، وقال الحافظ المنذري بعده في «الترغيب» (١/ ٣٦٢): «وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى». اهـ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان (٢٢٩) من حديث أبي هريرة، وحسنه النووي وأقره الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٠)، والترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٨/ ٣٢٧) وغيرهم من حديث الحسن بن علي، وقال الترمذي بعده: «حسن صحيح» وهو كما قال وليس فيه زيادة: «فإن الإثم جوار القلب».

عزَّ وجلّ، أي: خالصًا لأجله ــ ومعنى به: أي: بمشاهدة قربه، لا بمقاربة نفسه وهواه. ومعنى فيه: أي: في سبيله، وطلب رضاه عنه، وما ندب إليه ــ أمضاه وسارع في تنفيذه. وإن كان لعاجل دُنيا أو عارض هوىً أو لهو وغفلة، نفاه وسارع في نفيه، ولم يمكِّن الخاطر من قلبه بالإصغاء إليه والمحادثة له، فيولد فيه همًّا رديئًا يصعب عليه بعد حين طرحه، ويؤثِّر ذلك في قلبه أثرًا يستبين له بعد حين فعله.

فإن اشتبه عليه الخاطر فلم ينكشف له ما ورد به، أمحمود يرضاه الله أم مكروه لا يحبه؟ فالحكم فيما اشتبه من الأمور: الإمساك والوقوف، وأن لا يقدم العبد على ذلك بعقد ولا عزم إن كان من أعمال القلوب، ولا يمضي ذلك بفعلٍ ولا سعيٍ إن كان من عمل الجوارح، بل يقف ويوقف الأمر حتَّى يتبيَّن له، وهو صورة الورع؛ لأنَّ الورع هو: الجبن والتأخُّر عن الإقدام على المُشكلات وعن الهجوم في الشبهات، لا بقولٍ ولا بفعلٍ ولا بعقدٍ حتَّى تنكشف، وانكشافها بغامض العلم لغموضها وتدقيق معرفة المعاني لدقتها وخفائها، فمن لم يتوقف عند الشُّبُهات وأقدم عليها كان متبعًا لهواه معجبًا برأيه.

فأما الإقدام على الأمور الغامضة، مما لم ينكشف للأسماع ولا ظهر للأبصار، فإنَّ القلوب تُسأل عن عقود سوء الظَّنِّ بها والقطع بظاهر الأمر عليها، وهو معنى قول الله عزَّ وجلّ عن قَفْوِ ما لم يبين علمه، إذ لم يُجْعَل من علم العبد، وتَهَدَّدَه عليه بمساءلة الجوارح عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الأعراف: ٣٦]، أي: لا تَتَبَّـعْ ولا تَجَسَّسْ أثر ما لم تعلم فتشهد عليه بسمع أو رؤية أو عقد قلب؛ إذ حقيقة العلم السَّمع والمشاهدة، فلذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكُمْ والظَّنَّ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث»[١].

فمن اشتبه عليه الأمر فقطع به فهو متَّبع للهوى، ومن تفرَّس في فعل أوْ أمر غاب عنه حقيقته فأخبر به وأظهره على صاحبه، فقد أساء. وفي أثر: «من حدَّث بما رأته عيناه أو سمعت أذناه كتبه الله عزَّ وجلّ من الذين يحبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا»[٢]، وذلك لكشف ستر الله على عباده ومحبَّته للساترين منهم.

ولذلك كان من دعاء أبـي بكر الصديق رضي الله عنه: اللّٰهم أرنا الحق حقًّا فنتبَّعه، والباطل باطلاً فنجتنبه، ولا تجعل ذلك علينا متشابهًا فنتَّبع الهوى.

فنعمة الله سبحانه في كشف الباطل باطلاً، وبيان الضَّلال ضلالة، مثلُ نعمه في إظهار الحقِّ، وبيان الصِّدق، لأنه من باب اليقين، ولذلك تجمَّل الله به على نبيه ﷺ وجعله من تفصيل آياته في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]، فنصبُ ﴿سبيل﴾ على إضمار السمة، ورفْعُه على كشف دلالاته وتبيان طرقه.

والتحقيق بالمحاسبة، هو: أول المراقبة عن رؤية رقيب. والمقام من المراقبة هو: حالٌ من أحوال الموقنين.

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٩٨)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥) من حديث أبـي هريرة.

(٢) أخرجه ابن أبـي حاتم في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٣٤) من قول خالد بن معدان.

وقد قال بعض السَّلف: كان أحدهم يحاسب نفسه أشدَّ من محاسبته الشَّريك لشريكه.

وقال بعض العلماء: من علامة المقت أن يكون العبد ذاكرًا لعيوب غيره ناسيًا لعيوب نفسه، ماقتًا للنَّاس على الظنِّ محبًّا لنفسه على اليقين.

وتركُ محاسبة النفس ومراقبة الرقيب من طويل الغفلة عن الله عزَّ وجل، والغافلون في الدُّنيا الخاسرون في العُقبى؛ لأن العاقبة للمتقين، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل: ١٠٨، ١٠٩].

وطول الغفلة من العبد من الطَّبع على القلب، وهو الرَّان الذي يتعقَّب الكسب فيكون عقوبةً له، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، أي: من المكاسب الخبيثة، وأكل الحرام، وفي التفسير، هو: الذنب على الذنب حتى يسوّد القلب.

وأصل ترادف الذنوب: من إغفال المراقبة، وإهمال المحاسبة، وتأخير التَّوبة، والتسويف بالاستقامة، وترك الاستغفار والندم.

وأصل ذلك كلِّه هو حبُّ الدنيا وإيثارها على أمر الله عزَّ وجلّ، وغلبة الهوى على القلب، ألم تسمع إلى قوله عزَّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧] إلى قوله عزَّ وجلّ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨]. وقال في دليل الخطاب: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠]، يعني: عن إيثار الدُّنيا، لأن صريح الكلام وقع في وصفهم بالطغيان وإيثار الحياة الدُّنيا. وقال: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦]، فاتباع الهوى

عن طبع القلب، وطبع القلب عن عقوبة الذنب، وميراث العقاب الصمم عن فهم الخطاب، أما سمعته يقول: ﴿ لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

واعلم أن القسوة التي يهدد الله عزَّ وجلّ عليها بالويل، المتولِّدة من طول الغفلة في قوله عزَّ وجلّ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الزمر: ٢٢] قد قرنها الله عزَّ وجلّ بالنِّفاق، والقسوة ثمرة البعد، والبعد عقوبة الخيانة. كما قال: ﴿ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

فجلاء هذا الطابع: التقوى؛ فهو مفتاح السَّمع، كما قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْۗ ﴾ [المائدة: ١٠٨]. والله تعالى الموفق.

* * *

الفصل السادس عشر

في مُراعاةِ أَهْلِ المُراقَبَةِ الأَوقاتِ لِصَلاحِ الأَعْمالِ

من كان مقامه المراقبة، كان حاله المُحاسبة، فأوّل شهادة المراقب هو: أن يعلم يقينًا أنَّه لا يخلو في كل وقت ــ وإن قصَّر ــ من أحد ثلاثة معان: أن يكون لله عزَّ وجلّ عليه فرض، والفرض على ضربين: شيء أُمِرَ بفعله، أو شيء أُمِرَ بتركه، وهو اجتناب المنهي.

والمعنى الثاني: ندبٌ حُثَّ عليه؛ وهو المسابقة بخير يقربه إلى الله عزَّ وجلّ، والمسارعة بعمل برٍّ يتدبره قبل فوته. والمعنى الثالث: شيءٌ مباحٌ فيه صلاح جسمه وقلبه.

وليس للمؤمن وقت رابع فإن أحدث وقتًا رابعًا فقد تعدَّى حدود الله: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

ألم تسمع إلى قوله عزَّ وجلّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]. فهل ترى بين هذين وقتًا يُجهل أو هوىً؟ كما لا ترى بين الليل والنهار وقتًا ثالثًا؛ فالذِّكر: الإيمان والعلم، فهذان ينتظمان جُلَّ أعمال القلوب. والشكر: العمل بأخلاق الإيمان وأحكام العلوم، وهذان يشتملان على جميع أعمال الجوارح؛ قال

الله عزَّ وجلّ: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ [سبأ: ١٣]. وقال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقال: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ ﴾ [النساء: ١٤٧].

وقال ﷺ وقد عُوتِبَ في طُولِ قيامه حتى تَوَرَّمت قدماهُ، فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورا»(١)؟ ففسَّر الشكر بالعمل، كما فسَّر الله عزَّ وجلّ العمل بالشكر.

والوقت الثالث هو المباح داخل فيهما، لأنه معينٌ عليهما، وبه استقامة العبد فيهما.

فيبتدىء العبد المراقب فينظر بيقظته في أدنى وقت: هل لله عزَّ وجلّ فيه فرض من أمر أو نهي فيبدأ بذلك حتى يفرغ منه؟ فإن لم يجد فإنه لا يخلو من نوادب وفضائل فيبتدىء بالأفضل، فإن لم يمكن عمَلٌ في أدنى الفضيلتين فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته، كما أمره مولاه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [القصص: ٧٧]، أي: لا تترك أن تأخذ نصيبك من الدُّنيا، ولا تترك أن تأخذ نصيبك للآخرة من دنياك، وهو أن تحسن كما أحسن الله إليك، ولا تطلب الفساد في الدُّنيا فتكون قد نسيت نصيبك من الآخرة فيتركك الله من جزيل ثوابه الذي أعدّ لأحبابه، كما قال: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي: تركوه فتركهم، وترْكُهم له ترك نصيبهم منه، وتركه عزَّ وجلّ لهم ترك محابّهم من الآخرة.

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧١) من حديث المغيرة بن شعبة.

ومن حديث لأبـي ذر: «ولا يَكون المُؤمن ظاعِنًا إلاَّ في ثلاثٍ: تزوّدٌ لمعادٍ، أو مَرَمَّةٌ[1] لِمعاشٍ، أو لَذَّةٌ في غَيْرِ مُحَرَّم»[2].

ومن علامة العاقل أن يكون مقبلاً على شأنه حافظًا للسانه، عارفًا بزمانه، مُكرمًا لإخوانه.

روى أبو نصر التَّمار أنَّ رجلاً جاء يودِّع بشر بن الحارث، وقال: قد عزمت على الحجِّ أفتأمرني بشيء؟ فقال له بشر: كم أعددت للنفقة؟ قال: ألفي درهم. قال: فأي شيء تبتغي بحجك، نزهةً أو اشتياقًا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل؟ قال: ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجلّ. قال: فإن أصبت رضا الله وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله عزَّ وجلّ أتفعل ذلك؟ قال: نعم. قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس:

مَدين يقضي بها دينه.

وفقير يرم شعثه.

ومعيل يحيـي عياله.

ومُرَبـي يتيمٍ يفرّحه.

وإن قوي قلبك أن تعطيها لواحد فافعل؛ فإن إدخالك السُّرور على قلب امرىءٍ مسلم، وتغيثُ لهفان، وتكشف ضُرَّ محتاجٍ، وتعين رجلاً ضعيف اليقين أفضل من مائة حجَّة بعد حجة الإسلام. قم فأخرجها كما

---

(١) المرمة: متاع البيت.

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٦١ ــ الإحسان)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦ ــ ١٦٨) من حديث طويل، وإسناده ضعيف جدًا فيه إبراهيم بن هشام الغساني، متروك الحديث وبه أعله الهيثمي في «موارد الظمآن» (٩٤).

أمرناك وإلاَّ فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبي. فتبسم بشر وأقبل عليه، وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشُّبُهات اقتضت النفس إلى أن تقضي به وطرًا يشرع إليه فظاهرت أعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلاَّ عمل المتقين.

وفي نحوه قيل لبشر أيضًا: إن فلانًا الغنيّ كثير الصّوم والصَّلاة. فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، إنما حال هذا إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدُّنيا ومنعه للفقراء.

وقد يكون اختفاء الأوجب من الفرائض والتباسه بالفضائل محنةً من الله عزَّ وجلّ لعباده، وحكمة له فيهم، فيرتكبون التأويل للسَّعة، ويتركون الضيق لخفائه عليهم، لينفذ فيهم العلم، ويجري عليهم الحكم، ويكون ذلك تأديبًا لهم وتعريفًا ومزيدًا في التسليم وتوفيقًا، وقد قال الله تعالى فيما عتب على نبيه ﷺ ووعظه في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: ١ ــ ٣]، يقال: إن رسول الله ﷺ لم يغتم في عمره كغمه حين أنزل عليه سورة عبس، لأنه فيها عتبًا شديدًا على مثله، لأنه الحبيب الرشيد، ومع ذلك لم يقصده في الخطاب، رفقًا بالعتاب، وتكريمًا لذاك الجناب، والله الموفق للصواب.

* * *

الفصل السابع عشر
في ذِكْرِ ما أَحْدثَ النَّاس من القَوْلِ والفِعْلِ فيما بينهم مما لم يكن عليه السَّلف

كان الناس قديمًا إذا التقوا يقول أحدهم لصاحبه: ما خَبَرُكَ وما حالك؟ يعنون بذلك: ما خبر نفسك في مجاهدتها وصبرها؟ وما حال قلبك من مزيد الإيمان وعلم اليقين؟ ويريدون أيضًا: ما خبرك في المعاملة لمولاك؟ وما حالك في أمور الدُّنيا والآخرة، وهل ازددت أم انتقصت؟ فيتذاكرون أحوال قلوبهم، ويصفون أعمال علومهم، ويذكرون ما وهب الله تعالى لهم من حُسن المعاملة وما فتح لهم من غرائب الفهوم.

فكان هذا من تعديد نعم الله تعالى عليهم ومن جميل شكرهم، ويكون مزيدًا لهم في المعرفة والمعاملة.

وقد جُهل هذا اليومَ فتُرِك، فهم إذا تساءلوا عن الخبر والحال إنما يريدون به أمور الدُّنيا وأسباب الهوى، ثُمَّ يشكو كل واحد مولاه الجليل سبحانه وتعالى إلى عبده الذليل، وينسى نفسه وما قدمت يداه، فمثله كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧]. وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾

[العاديات: ٦]، قيل: كفور بنعمته، يُعدد المصائب وينسى النعم، كل ذلك جهالةً بالله تعالى وغفلةً عنه.

ومن ذلك قولهم الآن ــ عند اللُّقيّ ــ: كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ أو: صبحكم الله بالخير. أو: مساكم. فهذا مُحدَث، إنما كانوا إذا التقوا قالوا: السَّلام عليكم ورحمة الله. وفي خبر: «مَنْ بَدَأَ بالكلامِ قَبْل السَّلام فلا تُجيبوه»[1].

ومن الإحداث: قول الرجل إذا جاء منزل أخيه: يا غلام، يا جارية، فيه مخالفة لأمر الله عزَّ وجلّ وأمر رسوله عليه السلام؛ قال الله عزَّ وجلّ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. قال أهل التفسير: الاستئناس: الدَّقُّ، أو التَّنحنح، أو الحركة حتى يؤذِن بذلك أن وراءها إنساناً. وقال رسول الله ﷺ: «إذا جاء أحدكم منزل أخيه فليسلِّم ثلاثًا، فإن أُذِنَ له فليدخل وإلاَّ فَلْيَرْجِع»[2].

وكان السَّلف يَقْرَعُ أحدهم باب أخيه ثُمَّ يسلِّم ثلاثًا يقف بعد كلِّ تسليمه هُنيهة، فإن أذن له دخل.

وقد لا يحب صاحب المنزل أن تدخل عليه في ذلك الوقت بسبب عذر له، فيقول: وعليكم السَّلام ورحمة الله، ارجع عافاك الله؛ فإني على شغل، فيرجع عنه غير كاره لرجوعه ولا يؤثر ذلك عليه في نفسه. وقد

---

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢١٤) من حديث ابن عمر، وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (٣/ ١٦٩٤ ــ ١٦٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري.

يكون قوله: «ارجع»، أحب إليه؛ لأنه أفضل له رجاء الإجابة والتزكية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٨]. فربما رجع في اليوم مرتين أو ثلاثًا بعد ردّ صاحبه له وهو يعود؛ لأن ذلك لم يؤثر في قلبه شيئًا. وهذا لو فعل ببعض الناس من أهل عصرنا هذا لكرهه، ولعل أن لا يعود يومه ذلك.

فأما العلماء فقد كان بعض الناس لا يستأذن عليهم إلاَّ لِمُهِمٍّ لا بد منه، بل كانوا يقعدون على أبوابهم، وفي مساجدهم، ينتظرون خروجهم لأوقات الصلاة، إجلالاً للعلم وهيبةً للعلماء. وحدثونا عن أبـي عبيد قال: ما قرعت على عالم قط بابه، كنت أجيء إلى منزله فأقعد على بابه أنتظر خروجه من قبل نفسه، أتأول قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾ [الحجرات: ٥].

وقد روِّينا هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما في موضعه من العلم والشرف: أن المارّ كان يمرّ به وهو قائم على باب منزل الرجل من الأنصار تسفي عليه الرياح، فيقول: ما يجلسك هـٰهنا يا ابن عم رسول الله ﷺ؟ فيقول: أنتظر خروج صاحب المنزل. فيخرج الرجل فيقول: ابن عم رسول الله! لو أرسلت إليّ لجئتك. فيقول: لا، أنا كنت أحق أن آتيك. فيسأله عما يريد من حديث بلغه أنه يرويه عن رسول الله ﷺ لم يكن هو سمعه منه.

ومن ذلك ــ أي: الإحداث ــ: استقصاء الرجل في المسألة عن حال أخيه وخيره. وقد كُرِهَ ذلك.

تزوَّج سلمان الفارسيّ رضي الله عنه، فلمَّا دخل على أهله خرج إلى

الناس من الغد، فقال له رجل: كيف أنت يا أبا عبد الله؟ قال: بخير، أحمد الله تعالى. قال: كيف حالك؟ وكيف بت البارحة؟ ـ وفي لفظ آخر: كيف وجدت أهلك؟ فغضب سلمان وقال: لِمَ يَسأل أحدُكم فيحفي المسألة؟ ويسأل عما وراء البيوت؟ يكفي أحدكم أن يسأل عن ظاهر الأمر.

وأما سليمان بن مِهْران، فإن رجُلاً قال له في منزله: كيف أنت يا أبا محمد؟ قال: بخير. قال: كيف حالك؟ قال: في عافية. قال: كيف بت البارحة؟ فصاح: يا جارية، أنزلي بالفراش والمخادّ. فأنزلت بذلك، فقال: افرشي واضطجعي حتى أضطجع إلى جنبك لنري أخانا كيف بت البارحة. وكان يقول: يلقى أحدهم أخاه فيسأله عن كل شيء حتَّى عن الدجاج في البيت، ولو سأله درهمًا ما أعطاه! وكان من مضى من السلف إذا لقي أخاه لا يزيد على قوله: كيف أنتم. أو: حياكم الله بالسَّلام. ولو سأله شطر ماله قاسمه.

ومن ذلك: قول الرجل لأخيه إذا لقيه ذاهبًا في الطريق: إلى أين تُريد؟ أو: من أين جئت؟ فقد كره هذا، وليس من السُّنَّة، ولا الأدب، وهو داخل في التجسّس والتحسّس، لأن التحسّس في الآثار والتجسس في الأخبار، وهذا السؤال عن ذلك يجمعها، وقد لا يحب الرجل أن يعلم صاحبه أين يذهب، ولا من أين جاء. وقد كره ذلك مجاهد وعطاء قالا: إذا لقيت أخاك في طريق فلا تسأله: من أين جئت؟ ولا أين يذهب؟ فلعله أن يصدقك فتكره ذلك، ولعله أن يكذبك فتكون قد حملته عليه.

ومما أحدثوا: السَّجع في الدُّعاء والإغراب فيه، مما لم يرد الكتاب به ولا نقل عن رسوله الله ﷺ ولا الصَّحابة؛ بل كانوا ينهون عن الاعتداء

في الدُّعاء، ويجتنبون مجاوزة ما أخبر الله تعالى عن أوليائه من الأدعية الجامعة المختصرة المعروفة. وفي قوله عزَّ وجلّ: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٥]، قيل: في الدعاء. فالاعتداء في الدُّعاء هو ترك ما أخبر الله عزَّ وجلّ عن أوليائه الصَّالحين من الدعاء بالمغفرة والرحمة والتوبة، ومعنى ذلك من الدعاء المعروف.

ومما أحدثوه: أخذ القرآن بالإدارة، وتنازع الاثنين الآية من غير خشوع ولا هيبة؛ وقراءة القرآن تحتاج إلى حُزنٍ وسُكونٍ وخشوعٍ.

ومن ذلك: أخذ المقرىء على الاثنين، وليته قام بقراءة الواحد، لسهو القلب.

ومن البدع: التلحين في القراءة، حتى لا تفهم التلاوة، وحتى يجاوز إعراب الكلمة بمدِّ المقصور، وقصر الممدود، وإدغام المظهر، وإظهار المدغم؛ ليستوي بذلك التلاحن، ولا يُبالي باعوجاج الكلم وإحالته عن حقيقته، فهو بدعة ومكروهة استماعه.

ومن ذلك: التلحين في الأذان، وهو من البغي والاعتداء فيه.

ومما شدد به الخلف ــ مما كان السلف يسهلون فيه ــ: أَمْرُ الطهارة بالماء، والمشي مع الوسوسة في تطهير البدن والثياب، وكثرة غسلها من عرق الجنب ولبس الحائض، ومن أرواثِ ما يؤكل لحمه وأبوالِه، وغسلُ اليسير من الدم، ونحو ذلك. وكان السلف يرخصون في هذا كله.

ومما سهلوه ــ مما كان السلف يُشددون فيه ــ: أمر المكاسب وترك التَّحري فيها، والكلام فيما لا يعني، والخوض في الباطل، والغيبة،

والنَّميمية، والاستماع إليهما، والعقد على البلاغات[1]، وسُوء الظَّن لأجلها، وهو اشتراك في الغيبة والنميمة. وكل بلاغة تزيد وتنقص، إن كان شرًا ازددت فيه، وإن كان خيرًا نقصت منه.

وسهلوا في النظر إلى الزور، واللهو، ومجالسة البطَّالين، والمشي في أسباب الهوى، والتعصب، وشدة الحرص على الدُّنيا، وهذا كله كان السَّلف يشددون فيه.

ومما كرهه أهل الورع: البيع والشراء من الصبيان، لأنهم لا يملكون، وكلامهم غير مقبول.

ومما أحدثوه: إخراج الرواشن من البيوت، وتقديم العضائد بين يدي الحوانيت إلى الطريق مكروه.

وعن أبي بكر المروزي: أن شيخًا كان يجالس الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله ذا هيبة، وكان أحمد يقبل منه ويكرمه، فبلغه عنه أنه طين حائط داره من خارج، فأعرض عنه في المجلس، فاستنكر الشيخ ذلك، فقال: يا أبا عبد الله، هل بلغك عني حدث أحدثته؟ قال: نعم، طيّنت حائطك من خارج، قال: ولا يجوز؟ قال: لا، لأنك قد أخذت من طريق المسلمين أنملة. قال: فكيف أصنع؟ قال: إمَّا أن تكشط ما طينته، وإما أن تهدمَ الحائط وتؤخرَه إلى وراء مقدار إصبع ثُمَّ تُطَيِّنَه من خارج. قال: فهدم الرجل الحائط وأخره إصبعًا ثُمَّ طيَّنه من خارج. قال: فأقبل عليه أبو عبد الله كما كان.

---

(١) أي: عقد القلب على الأخبار المبلغة إليه عن الناس مما يريب فيهم. (المختصِر).

وممّا كرهه السَّلف: طرح ميتة السِّنَّوْرِ والدابّة على المزابل في الطُّرقات فيتأذَّى المسلمون بروائح ذلك.

ومثله: إخراج الميازيب وصبّها إلى الطرقات، وكان أهل الورع يجعلون ميازيبهم إلى داخل دورهم.

وقيل لقتادة: تودّ لو أنك بصير؟ فقال: لا، على من كنت أفتح عيني؟!

وكانوا يكرهون كثرة المساجد في المحلّة الواحدة، روي أن أنس بن مالك رضي الله عنه لما دخل البصرة، جعل كلما خطا خطوتين رأى مسجدًا، قال: ما هذه البدعة؟ لما كثرت المساجد قلّ المصلّون. أشهد لقد كانت القبيلة بأسرها ليس فيها إلاَّ مسجد واحد. وكان أهل القبائل يتبانون المسجد الواحد في الحيّ من الأحياء.

واختلفوا: في أيهما يصلي إذا اتفق مسجدان في محلة؟ فمنهم من قال: في أقدمها، وإليه ذهب أنس بن مالك وغيره من الصحابة، قال: وكانوا يُجاوزون المساجد المحدثة إلى المساجد العتق. وكان الحسن يقول: يصلي في أقربهما منه.

وممّا أحدث النَّاس مما كانوا يكرهونه: الثّياب الرِّقاق للنساء والرجال، وهو للنساء أكره وأغلظ. وقد وصف النبي ﷺ نساءً يكنَّ في آخر الزمان فقال: «كاسياتٍ عارياتٍ مائِلاتٍ مُميلات، لا يَجِدْنَ رائحة الجَنَّةَ»[1]. وكان ابن عباس يفسِّر التبرُّج أنّ منه لبس ما رقَّ من الثياب.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٨٠) من حديث أبي هريرة.

وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: لا يأتي على الناس عامٌ إلاَّ أماتوا فيه سنَّةً، وأحيوا فيه بدعة، حتَّى تموت السُّنن وتحيـى البدع.

وإنما قيل: منكر؛ لأنه لا يعرف، فإذا خفي الحق فلم يعرف وقع عليه اسم منكر، وكذلك قيل: معروف؛ لأنه مشهور مألوف، فإذا فشا الباطل، وكَثُرَ الجهل حتى ألف وعرف، وقع عليه اسم المعروف. وكذلك قيل: يكثر الجور حتى يولد فيه من لا يعرف العدل.

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: يظهر المنكر والبدع حتى إذا غُيِّر منها شيء قيل: غُيِّرت السُّنَّة.

وعن جماعة من الصحابة: لو نشر أصحاب رسول الله ﷺ ورأوكم لما عرفوا شيئًا مما أنتم عليه الآن إلاَّ الصَّلاة في جماعة.

وكان الفضيل رحمه الله يحذر من قراء زمانه فقال: إيَّاك وصُحبة هؤلاء القراء فإنك إن خالفتهم في شيء كفَّروك.

وكان بشر بـن الحارث يقـول: لأَن أصحب فـتًى أحـبّ إليّ مـن أن أصحب قارئًا.

فإياك وصُحبة القراء؛ فإنهم يذمون غير مذموم، ويسرعون الإنكار إلى كل شيء؛ لغلبة الجهل عليهم، وقلة مجالستهم للعلماء ومعاناتهم للعلم، وإنهم موصوفون بدقائق الرِّياء والتَّصَنُّع للعامة، فينكرون غير منكر، وهم غير موصوفين بمحاسن الأخلاق، ولا موسومين بالبشاشة والانطـلاق، إذ فيهـم كـزازة وتغليـظ علـى النـاس، ولـزازة وحنـق علـى الأغنياء، حتى كأنهم يأكلون أرزاقهم، وكأنهم يعملون العبادة لهم، وفيهم كثرة مقت لأهل البشر والطلاقة.

فلذلك قال بعضهم: الشريف إذا تقرَّى تواضع، والوضيع إن تقرَّى تكبّر.

وقال آخر: السِفْلة إذا تقرَّى أكثر الأمر بالمعروف واعترض على جيرانه في كل شيء، يعني أكثر الأمر بالمعروف ليعرف به، فمن أجل ذلك رفضهم العلماء، وذمهم الحكماء؛ لأن العلم يبسط ويوسع وتكون معه الأخلاق الحسنة والآداب والمرؤات الواسعة.

والعالم يضع الأشياء في مواضعها من النَّاس ولا يجاوز بها ولا بهم المقادير، ويستخرج لهم المعاذير، ومن صفة العلماء الانقباض في بسط خُلُق.

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: الانقباض على الناس مكسبة لعداوتهم، فكن بين المُنْقبِض والمُنْبَسِطِ.

وفي الخبر: «إنكم لا تَسَعونَ النَّاس بأموالكم فليسعهم منكم وجه طلق وخلق حسن»، وفي لفظ آخر: «وبِشر وبشاشة»[1]. وهذا كله معدومٌ

(١) أخرجه ابن أبـي شيبة في «مسنده» كما في «المطالب العالية» لابن حجر (٢٥٨٧/١ النسخة المسندة) وفي «المصنف» (٨/ ٣٣١، ٣٣٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٥٥٠)، والبزار (١٩٧٧ ـ كشف) والطبراني في «مكارم الأخلاق» (١٨)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٤٨١)، والحاكم (١/ ١٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٥)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي والسامع» (٨١٧)، كلهم من طرق عن أبـي عباد عبد الله بن سعيد المقبري عن سعيد المقبري عن أبـي هريرة به.
وإسناده واهٍ، فيه عبد الله بن سعيد المقبري متروك وبه أعله الذهبـي في «تلخيص المستدرك» والهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٢). =

من القراء ولا يعرفونه، وقد جعل تعالى لكلِّ شيء قدرًا، فمن تعدَّى حدّ الشيء فقد أفسده.

وقال بعض السلف: قليل التواضع يكفي من كثير العمل، وقليل الورع يكفي من كثير العلم.

ومن أخلاق السَّلف ــ مما تهاون به الخلف ــ : أنهم كانوا يعدّون من النِّفاق أن يتكلَّم الرَّجل فيمن يكلمه، أو يكلم فيه؛ لأنهم كانوا إذا كلَّموا أحدًا أو سلموا عليه سلَّمت له قلوبهم ولم يتكلموا فيه، وإذا تكلموا في أحد لبدعته أو ظهور فسقه لم يكلِّموه.

وكانوا إذا مدحوا أحدًا بقولٍ لم يذمّوه بفعل، وإذا ذمّوا أحدًا بفعلٍ لم يمدحوه بقول، لأن في ذلك لسانين، واختلاف وجهين، واختلاف سرٍّ وعلانية، وكانوا يقولون: معنى سلام عليك إذا لقيته، أي: سلمت مني أن

= وله طريق أخرى لا يفرح بها أخرجها البزار (١٩٧٨ ــ كشف الأستار) فيها طلحة بن عمرو متروك الحديث كما في «الميزان» (٢/ ٣٤٠).

لكن للحديث طريق سلمت مما سبق: أخرجها البزار (١٩٧٩)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٧٢).

وإسنادها حسن، وهي الطريق التي حسَّنها المنذري في «الترغيب» (٣/ ٣٩٧)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٤٩): «وبعض طرق البزار رجاله ثقات».

وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٦٩٦) من حديث عائشة وفيه: «ولكن يسعهم منكم: طلاقة الوجه وحسن البشر».

وإسناده كما قال البيهقي ضعيف؛ وذلك أن فيه محمد بن حميد الرازي ضعيف وعبد الله بن المغيرة يغرب ويتفرد بالحديث كما قال ابن حبان.

أغتابك وأذمك، فكان اختلاف هذا عندهم من أبواب النِّفاق.

وروِّينا عن رسول الله ﷺ: «شَرُّ النَّاس ذُو الوجهين، الذي يأتي هؤُلاءِ بوجهٍ وهؤُلاءِ بوجهٍ»[1].

وكان بعضهم يقول: ما ذكر عندي إنسان قطّ إلاَّ مثلته جالسًا، فقلت في غيبته بما يحب أن يَسمع.

فهذه كانت صفات المسلمين الذين يسلم النَّاس على أيديهم وقلوبهم، كان أحدهم إذا ذكر عنده غيره بسوء وقف وتفكَّر في شأن نفسه، فإن كان فيه مثل ذلك السوء قطعه الحياء عن الكلام في أخيه فسكت، وإن لم يكن ذلك فيه حمد الله عزَّ وجلّ ورحم أخاه، فشغله الشكر لمولاه، إذ عافاه. فهذه كانت سيرة السَّلَفِ.

ومن طريقة السَّلَفِ مما كانوا يُشددون فيه: المدح وطلب الحمد، حتى قال بعضهم: من أحبَّ المدح وكره الذمّ فهو منافق.

وكان سفيان الثَّوْري رضي الله عنه يقول: إذا رأيت الرَّجل يُحبّ أن يحبّه الناس كلهم، ويكرهُ أن يذكره أحد بسوء فاعلم أنه مُنافق. فهذا داخل في وصف الله تعالى المنافقين بقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٩١]، وهذا مما دخل على القراء ــ الذين ذمهم العلماء ــ مداخل اللَّيل في النَّهار.

ولعل مغرورًا جاهلاً يتأوّل الحديث الذي جاء: «إذا مُدحَ المؤمن ربا

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥٢٥، ٥٢٦)، ومسلم (٤/ ١٩٥٨) من حديث أبي هريرة.

الإيمان في قلبِهِ»[1] على غير تأويله، ويحمله على غير محمله؛ فإنما قال: «ربا الإِيمان» ولم يقل «ربا المؤمن» فربوّ الإيمان زيادته، وزيادته بالخوف والإِشفاق من المكر به والاستدراج. وبالله التوفيق.

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٢٤)، والحاكم (٣/ ٥٩٧) من حديث أسامة بن زيد، وإسناده ضعيف؛ فيه ابن لهيعة سيِّىء الحفظ في غير رواية العبادلة عنه وهذه منها، والحديث ضعفه الحافظ العراقي في «تخريج الإِحياء» (١/ ٢٢٩).

الفصل الثَّامن عشر
في ذِكْرِ فُروضِ التَّوْبةِ وشَرح فضائِلها ووصفِ التَّوَّابين

قال الله تعالى في البيان الأول من خطاب العموم: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١]، معناه: ارجعوا إليه من هوى نفوسكم، ومن وقوفكم مع شهواتكم، عسى أن تظفروا ببغيتكم في المعاد، وكي تبقوا ببقاء الله عزَّ وجلّ في نعيمٍ لا زوال له ولا نفاد، ولكي تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنَّة وتنجوا من النار، فهذا هو الفلاح.

وقال في البيان الثاني من مخاطبته الخصوص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

فنصوحًا: من النصح، جاء على وزن فعول للمبالغة في النصح، وهو:

الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثَّعالب.

وأن لا يحدِّث نفسه بعود إلى ذنب متى قدر عليه.

وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصًا لوجهه، كما ارتكبه لأجل هواه مجمعًا عليه بقلبه وشهوته.

فمتى أتى الله عزَّ وجلّ بقلبٍ سليم من الهوى، وعَمَلٍ خالص مستقيم على السُّنَّة، فقد ختم له بحسن الخاتمة، فحينئذٍ أدركته الحسنى السابقة، وهذا هو التوبة النَّصوح، وهذا العبد هو التواب المُتطهر، وهذا إخبار عمن سبقت له الحُسنى، ومَنْ تداركه نعمة من ربّه رحمه بها من تلوّث السوأى، وهو وصف لمن قصده بخطابه، إذ يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وكما قال رسول الله ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كمن لا ذَنْبَ لَهُ»[١].

وسُئِلَ الحسن عن التوبة النَّصوح فقال: هي ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود إليه.

وحقيقة الندم ــ إن كان حقًا، إذ لكل حقّ حقيقة ــ: أن لا يعاود إلى مثل ما وقع الندم عليه. ثُمَّ اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبته النهي.

وحقيقة الاستقامة: أن لا يقابل ما استقبل من عمره بمثل ما وقع الاعوجاج به، وأن يتبع سبيل من أناب إلى الله، وأن لا يصحب جاهلاً فيرديه، ثُمَّ الاشتغال بإصلاح ما أفسد في أيام بطالته، ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا؛ فإن الله عزَّ وجل لا يصلح عمل المفسدين، كما لا يضيع أجر المُحسنين، ثُمَّ الاستبدال بالصالحات من السيئات، والصالحات من الحسنات، ليكون ممن تبدل سيئاته حسنات

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٩٨) من حديث أبي سعيد الأنصاري، وإسناده ضعيف، إلاَّ أن للحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن كما قال الحافظ ابن حجر فيما نقله عنه تلميذه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص ١٥٢).

لتحققه بالتوبة، وحسن الإنابة، لأن التبدل يكون في الدُّنيا، يبدل بالأعمال السُّوأى أعمالاً حُسنى، بدليل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فإذا غيَّرَ ما بهم من سيىءٍ حُسنًا بدَّل سيآتهم حسنات. ثُمَّ النَّدم ودوام الحزن.

وحقيقة النَّدم والحُزن على الفوت: أن لا يفرّط ولا يَنِيَ في وقت دركه، ولا يرجع ولا ينثني ولا يفوت ما أدرك في حال تيقظه، كما وصف الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، قيل: الاعتراف والندم، ثُمَّ المتابعة بأعمال الصالحات؛ ليكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الآية [الرعد: ٢٢]، أي: يدفعون ما سلف من السيئات بما يعملون من الحسنات، وكذلك قال النبي ﷺ في حديث أبي ذر: «فإذا عَمِلْتَ سيئةً فاعمل بَعْدَها حَسَنةً، السِّرّ بالسرِّ والعَلانية بالعلانيةِ»(١)، وفي وصيَّة معاذ: «أتبع السيّئة الحسنة تمحُها»(٢)، وليدخل في الصَّالحين، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت: ٩]. ثُمَّ المسارعة إلى الخيرات إذا قدر عليها ليُدرك بها ما ضيّع وفات ليكون من الصَّالحين، وفي هذا المقام يصلح لمولاه، فيحفظه ويتولاه، كما قال الله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وجُمَلُ ما على العبد في التوبة وما تعلق بها عشر خصال:

أولها: فَرْضٌ عليه أن لا يعصي الله تعالى.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» من حديث معاذ، وفيه رجل لم يُسَمَّ، قاله الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/٤٧).

(٢) تقدم (ص ٨٩).

والثانية: إن ابتلي بمعصية لا يصرّ عليها.

والثالثة: التوبة إلى الله تعالى منها.

والرابعة: الندم على ما فرط منه.

والخامسة: عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت.

والسادسة: خوف العقوبة.

والسابعة: رجاء المغفرة.

والثامنة: الاعتراف بالذنب.

والتاسعة: اعتقاد أن الله تعالى قدّر ذلك عليه، أي: سبق علمه الأزلي به وأنه لم يحمله عليه قسرًا، ولم يدخله فيه جبرًا.

والعاشرة: المتابعة بالعمل الصالح ليعمل في الكفارات، لقوله ﷺ: «وأتبع السّيئة الحسنة تمحها».

ويقال: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه: قد بقي من عمرك ساعة، وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين. قال: فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدُّنيا من أوّلها إلى آخرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى، ليستعتب فيها، أو يستبدل بها، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. وهذا تأويل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، قيل: التوبة، وقيل: الزيادة في العمر، حيل بينهم وبين ذلك كما فعل بأشياعهم من قبل، أي: بنظرائهم وأهل فرقتهم.

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠]، قال: الوقت القريب: أن

يقول العبد عند كشف [الغطاء][1]: ربِّ أخرني يومًا أعتبُ فيه ذنبي، وأتزوّد صالحًا لنفسي. فيقال له: فنيت الأيام فلا يوم. فإذا بلغت الروح الحلقوم أُغلق باب التوبة، وانقطعت الأعمال، وتصاعدت الأنفاس، فإما أن تخرج روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة، أو يدركه ما سبق له من الشقوة فتخرج روحه على الشكّ. فهذا الذي قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨]، فهذا سوء الخاتمة، نعوذ بالله منه، وقيل: هذا هو المنافق، ويقال: المدمن على المعاصي المصرّ عليها.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، قيل: قبل الموت، وقبل ظهور آيات الآخرة، وقبل الغرغرة، أي تغرير النفس في الحلقوم؛ لأنه تعالى قد حكم أن التوبة بعد ظهور أعلام الآخرة لا تقبل، ومنه قوله عزَّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، يعني: قبل معاينة الآيات ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، قيل: التوبة، هي كسب الإيمان، وأصول الخيرات. وقيل: الأعمال الصالحة، هي: مزيد الإيمان وعلامة الإيقان. وقد قيل: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، أي: عن قريب عهد بالخطيئة، لا يتمادى فيها، ولا يتباعد عن التوبة، وتوبته من قريب: أن يعقب الذنب عملاً صالحًا، ولا يردفه ذنبًا آخر، وأن يخرج من السيئة إلى الحسنة ولا يدخل في سيئة أخرى.

وقيل: أوَّل من يسأل الرجعة من هذه الأمّة من لم يكن أدّى زكاة

---

(١) من «قوت القلوب» ليتم السياق.

ماله، أو لم يكن حجَّ بيت ربه، فذلك تأويل قول الله تعالى: ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون: ٦٣]، وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: هذه الآية من أشدّ شيء على أهل التوحيد، لقوله تعالى في أولها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [المنافقون: ٩].

وعند التَّوبة النصوح تكفير السيئات، ودخول الجنات.

وكان بعض السَّلَفِ يقول: من علامة صدق التائب في توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، وبفرح ركوب الذنب الحزن عليه والسرور بحسن الإنابة، وفي معناه قول بعضهم: لا يكون العبد تائبًا حتى يُدْخِلَ مرارة مخالفة النفس مكان حلاوة موافقتها.

وعن سريّ السقطيّ أنه قال: من شرط التَّوبة أنَّه ينبغي للتَّائب المنيب أن يبدأ بمباينة أهل المعاصي، ثُمَّ بنفسه التي كان يعصي الله تعالى لها ولا ينيلها إلاَّ ما لا بدّ منه، ثُمَّ الاعتزام على أن لا يعود في معصية أبدًا، ويلقي عن النَّاس مؤنته، ويدع كل ما يضطره إلى جريرة، ولا يتّبع هوى، ويتبع من مضى من السَّلف.

وينبغي لأهل التوبة أن يُحاسبوا نفوسهم في كلّ طرفة، ويَدَعوا كل شهوة، ويتركوا الفضول، وهي ستة أشياء: ترك فضول الكلام، وترك فضول النَّظر، وترك فضول المشي، وترك فضول الطعام، والشراب، واللباس.

ومن التحقّق بالتَّوبة أن يستعظم ذنوبه، وفي أثر: ليتق أحدكم أن يؤخذ عند أدنى ذنوبه في نفسه.

قال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صِغَرِ الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت.

وقال بعض الصحابة: إنّكم لتَعْملون أَعْمالاً هي أَدَقُّ في أعيُنكم من الشَّعْرِ، كُنّا نعدّها في عَهْدِ النبـيّ ﷺ من المُوبقات[1].

ليسوا يعنون أن الكبائر التي كانت على عهد النبـي ﷺ صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمون الصغائر؛ لعظمة الله تعالى في قلوبهم؛ لعظيم نور الإيمان. ولم يكن ذلك في قلوب من بعدهم.

وربما تعلَّق بالذَّنب ذنوبٌ كثيرةٌ هي أعظم منه، مثل: الإصرار عليه، والاغتباط به، وتسويف التوبة بعده، ووجدان حلاوة الظفر بمثله، أو وجدان الحزن والكراهة على فوته، والسُّرور بعمله، أو حمل غيره عليه، أو إنفاق مال الله سبحانه فيه، وهو كفر النعمة به، وقد قيل: من أنفق درهمًا في حرام فهو مسرف.

ومن ذلك: أن يستصغرَ الذنب ويحتقرَه، فيكونَ أعظمَ من اجتراحه. أو يتهاونَ بستر الله تعالى عليه، ويستخفَّ بحلم الله تعالى عنه، فيكونَ ذلك من الاغترار والأمن. أو يجهلَ نعمة الله عليه في ستره وإظهاره ضده.

ومن ذلك: المُجاهرة بالذَّنب والصول به والتَّظاهر، وهذا من الطغيان، وربما سنّ العاصي بالذنب سُنَّة اتُّبع عليها، فتبقى سيئات ذنبه عليه ما دام يعمل به.

وقد قيل: طوبـى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه ولم يؤاخذ بها بعده.

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٣٢٩) عن أنس.

وقد جعل الله تعالى هذا المعنى وصفًا من أوصاف المنافقين في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] فمن حمل أخاه على ذنب معه فقد أمر بالمنكر ونهى عن المعروف. وفي الخبر: «من سَنّ سُنَّة سيئةً فعَمِل بها من بعده كان عليه مِثْلُ وزْرِ مَنْ عَمِلَ بها لا يَنْقُص من أوزارهِم شيء»[1].

فأما استحلال المعصية أو إحلالها للغير فليس من هذه الأبواب في شيء، إنما ذلك خروج عن الملَّة وتبديل للشريعة، وهو الكفر بالله تعالى، كما روي عن النبي ﷺ: «ما آمَنَ بالقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ»[2]، وقد سمى الله تعالى عَمَلة السوء جهالةً فقال تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: ٥٥]، وقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٩].

فإذا أَتْبَعَ العبدُ الذنبَ بالذنبِ ولم يجعل بين الذنبين توبةً، خِيفَ عليه الهلكة، لأن هذا حال المصرِّ، ولأنه قد شرد عن مولاه بترك رجوعه إليه، ودوام مقامه مع النفس على هواه، وهذا مقام المقت في البعد.

وأفضل ما يعمله العبد: قطع شهوات النَّفس، فإنْ شُغل بما يستأنف من مزيد الطاعة، ووجد حلاوة العبادة وإلاَّ أخذ نفسه بالصبر والمجاهدة، وكل سبب يدعو إلى معصية أو يذكِّر بمعصية فهو معصية، وكل سبب

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه (٢/ ٧٠٤) من حديث جرير بن عبد الله.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩١٨) من طريق يزيد بن سنان عن أبي المبارك عن صهيب به، وقال الترمذي بعده: «هذا حديث ليس إسناده بالقوي، وأبو المبارك رجلٌ مجهول».

يؤول إلى ذنب ويؤدي إليه فهو ذنب وإن كان مُباحًا، وقطعه طاعة.

وقد وصف تعالى المؤمنين بترك متابعة الذنوب وترادف السيئة بالحسنة في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الآية [الرعد: ٢٢]، فجعل تعالى لهم صبرين: عن الذنب، وعلى التوبة؛ فآتاهم به أجرين.

وقد اشترط الله تعالى على التَّائبين من المؤمنين ثلاث شرائط، وشرط على التائبين من المنافقين أربعة:

فقال عزَّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠]. فقوله تعالى: ﴿تَابُواْ﴾، أي: رجعوا إلى الحَقِّ من أهوائهم، ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾، يعني: ما أفسدوا بنفوسهم، ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ فيها وجهان: أحدهما: بينوا ما كانوا كتموا من الحَقِّ وأخفوا من حقيقة العلم، وهذا لمن عصى بكتم العلم ولبس الحق بالباطل. وقيل: بيَّنوا توبتهم حتى تبيَّن ذلك فيهم فظهرت أحكام التَّوبة عليهم.

وقال في الشَّرط الآخر: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، لأنهم كانوا يعتصمون بالناس وبالأموال، وكانوا يراؤون بالأعمال، فلذلك اشترط عليهم الاعتصام بالله والإخلاص لله عزَّ وجلّ.

فينبغي أن تكون توبة كلّ عبد عن ضد معاصيه، قليلًا بقليل أو كثيرًا بكثير، ويكون التَّائب على ضدّ ما كان أفسد؛ ليكون كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠]. ولا يكون العبد تائبًا حتى يكون مصلحًا، ولا يكون مصلحًا حتَّى يعمل الصالحات ثُمَّ

يدخل في الصَّالحين. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦]. وهذا وصف للتَّواب، وهو المتحقّق بالتَّوبة، والحبيب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أي: يتولى الرَّاجعين إليه من أهوائهم المتطهرين له من المكاره.

والاستغفار قُوتُ التَّوابين ومَفزعُ الخطائين، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤]، فابتدأ التوبة بالاستغفار، وعقب الاستغفار بالتوبة.

فالاستغفار مع الذَّنب سؤال الستر من الله تعالى، ومغفرة الله تعالى لعبده في حال ذنبه ستره عليه وحلمه عنه. فالاستغفار بعد التوبة سؤال العبد مولاه العفو عن المؤاخذة، ومغفرة الله تعالى لعبده بعد التوبة تكفيره لسيئاته وتجاوزه عنها بالعفو الكريم، وهو تبديل السيئات حسنات.

وقد أحكم الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]. بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]، أي: وحَّدوا الله تعالى ثُمَّ استقاموا على التَّوحيد، فلم يشركوا. وقيل: استقاموا على السُّنَّة فلم يُحْدِثوا. وقيل: استقاموا على التوبة فلم يروغوا معها. ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ عقاب الذنوب، فقد كفرها عنكم بالتوحيد، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما فاتكم من الأعمال، فقد تداركها الله تعالى لكم بالتوبة، وبلّغكم منازل المُحسنين بالاستقامة.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾

[فصلت: ٣٠] في السابق ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]، أي نليكم ونقرب منكم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾، بالتثبيت لكم على الإيمان ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾، أي: أجسامكم من النعيم المقيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾، أي: ما تمنّون بقلوبكم من النَّظر إلى الملك الرحيم. وفي الخبر: «التَّائِب من الذَّنْبِ كمن لا ذَنْبَ لَهُ»(١).

والمُستغفر من الذَّنْب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله تعالى. وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولي: أستغفر الله باللسان من غير توبة وندم بالقلب.

والاستغفار باللسان من غير توبة وندم بالقلب توبة الكذَّابين، فمن عقب السيئات بحسنات، وخلط الصَّالحات بالطَّالحات، طمع له في النَّجاة، ورجي له الاستقامة قبل الوفاة؛ قال الله تعالى: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، أي: يعطف عليهم وينظر إليهم. وقيل: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [التوبة: ١٠٢]: هو الاعتراف بالذنوب والتوبة المستأنفة ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: ما سلف من الغفلة والجهالة.

وقد كان ابن عباس يقول: ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ حيث رخَّص في التوبة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، أي: مِنَ الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ بالتوحيد ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدى الفرائض واجتنب المحارم ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ كان على السُّنة. وقيل: استقام على التوبة. فهذه صفات المؤمنين.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ١١٣).

ثُمَّ إنَّ الناس في التوبة أقسام:

منهم: تائب من الذنب مستقيم على التوبة والإنابة، لا يحدث نفسه بالعود إلى معصية أيام حياته، مستبدل بعمل سيآته صالح حسناته، فهذا هو السابق بالخيرات، وهذه هي التوبة النصوح، ونفس هذا هي المطمئنة المرضية.

والذي يلي هذا في القرب: عبدٌ عقده التوبة، ونيته الاستقامة، لا يسعى في ذنب، ولا يقصده، ولا ينحوه، ولا يهتم به، وقد يبتلى بدخول الخطايا عليه عن غير قصد منه، ويمتحن بالهمِّ واللَّمم، فهذا من صفات المؤمنين، يرجى له الاستقامة؛ لأنه في طريقها، وهو ممن قال الله تعالى: ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢]، وداخلٌ في وصف المتقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٣]، ونفس هذا هي اللوامة التي أقسم الله تعالى بها، وهو من المقتصدين. وهذه الذنوب تدخل على النفوس من معاني صفاتها، وغرائز جِبِلّاتها.

والعبد الثالث: هو الذي يقرب من هذا الثاني في الحال، عبد يذنب ثُمَّ يتوب، ثُمَّ يعود إلى الذنب، ثُمَّ يحزن عليه بقصد له وسعي فيه، وإيثاره إياه على الطاعة، إلاَّ أنَّه يسوّف بالتوبة، ويحدِّث نفسه بالاستقامة، ويحب منازل التَّوابين، ويرتاح قلبه إلى مقامات الصِّديقين، ولم يأن حينه ولا ظهر مقامه، لأن الهوى يحركه، والعادة تجذبه، والغفلة تغمره، إلاَّ أنه يتوب خلال الذنوب ويعاود؛ لتقدم المعتاد.

فتوبة هذا فوت من وقت إلى وقت، ومثله ترجى له الاستقامة

لمحاسن عمله، وتكفيرها لسالف سيئته، وقد يُخاف عليه الانقلاب لمداومة خطئه.

ونفس هذا هي المسوِّلة، وهو من خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليه فيستقيم فيلحق بالسابقين، فهذا بين حالين: بين أن يغلب عليه وصف النفس فيحق عليه ما سبق من القول، وبين أن ينظر إليه مولاه نظرة تجبر له كل كسر فيتداركَه بمِنّةٍ سابقة فتُلْحِقَه بمنازل المُقرَّبين.

والعبد الرابع: أسوأ العبيد حالاً، وأعظمهم على نفسه وبالاً، عبد يذنب ثُمَّ يتبع الذَّنب مثله أو أعظم منه، ويقيم على الإصرار، ويحدث نفسه به متى قدر عليه، ولا ينوي ولا يعقد استقامة، فهذا هو حقيقة الإصرار، مقام بين العتو والاستكبار، ونفس هذا هي الأمَّارة، ويخاف على مثله سوء الخاتمة، لأنه في مقدماتها، وسالك طريقتها، ولا يبعد منه سوء القضاء، ودركُ الشقاء. نعوذ بالله من عذابه، ونسأله نعيمًا من ثوابه.

* * *

الفصل التاسع عشر
في شَرْحِ مَقامِ الصَّبْرِ ووصفِ الصَّابرين

قد جعل الله الصَّابرين أئمة المتقين، وتمم كلمته الحسنى عليهم في الدِّين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]. وقال عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ⁽١٠⁾﴾ [الزمر: ١٠]، فضاعف أجر الصَّابرين على كلِّ عملٍ ثُمَّ رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء، فجعله بلا نهاية ولا حدّ، فدلَّ ذلك أنه أفضل المقامات. وجمع للصابرين ثلاثًا، فرَّقها على جُمَل أهل العبادات: الصَّلاة، والرَّحمة، والهدى، بعد البشارة في الآخرة والعُقبى.

وكان عمر يقول: نعم العِدْلان ونعمت العلاوة للصابرين، يعني بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الهُدَى.

والعلاوة: ما يعلى به فوق الحملين على البعير، فيكون كعدل ثالث.

وقد أخبر الله تعالى أنه مع الصابرين، ومن كان الله تعالى معه غلب،

كما أنَّ من كان معه علا، فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]. واشترط الصبر لإمداده بجنده، ولنصرة تأييده، بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وكان سهل يقول: الصَّبر تصديق الصدق، وأفضل منازل الطاعة الصبر عن المعصية ثُمَّ الصبر على الطاعة.

والصبر ينقسم على عملين:

أحدهما: لا صلاح للدِّين إلاَّ به.

والثاني: هو أصل فساد الدِّين.

ثُمَّ يتنوَّع الصبر فيكون صابرًا على الذي فيه صلاح الدِّين فيكمل به إيمانه، ويكون صابرًا عن الذي فيه فساد الدِّين فيحسن به يقينه.

وقد قال بعض العلماء: ما كنّا نعد إيمان من لم يُؤْذَ في الله فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيمانًا، وقد فعل الله تعالى ذلك بالمؤمنين اختبارًا، وأخبر أنَّ ذلك ليس منه عذابًا، وإنما هو فتنةٌ لمن أراد فتنته وبلاءه من الناس، فصار ذلك فتنة عليهم وابتلاءً لهم، وصار رحمةً للمؤذَى وخيرًا في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، يعني: فتنة الناس به كعذاب الله تعالى، يعني: إياه، أي: ليس ذلك عذابًا مني إنما هو رحمة باطنة، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٦، ١٧]، أي: لم أهنك بالفقر كما لم أكرم الآخر بالإكرام والتنعيم. وعلى هذا المعنى خاطب نبيّه ﷺ بالصبر الذي أمره به، فقال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧]، فسلاّه به وفضّله عليه.

واعلم أنَّ أجر الصَّابرين فيما يُصابون فيه أعظم من النعمة عليهم فيما يعافَوْن به.

وفي الأخبار: ما من عبد إلاَّ يُعطى أجره بحسابٍ وحدٍّ، إلاَّ الصابرين؛ فإنهم يجازفون مجازفة بغير ميزان ولا حد[1].

وقد قال الله تعالى في جزاء المخلصين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١﴾ [الصافات: ٤١]. وقال تعالى في جزاء الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

والمعنى في ذلك: أنَّ الصبر أشق شيء على النفس وأكرهه، وأمرُّه على الطبع وأصعبه؛ فيه الألم والكظم، عند الذلّ والحلم، ومنه التواضع والكتم. وفيه الأدب وحسن الخلق، وبه يكون كفّ الأذى عن الخلق، واحتمال الأذى من الخلق، وهذه من عزائم الأمور، التي يضيق منها أكثر الصدور. وفيه إكراه النفوس، وحملها على الشدَّة والبؤس، وقد جاء: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»[2]. ولأجل ذلك اشترط الله تعالى على المتقين والصادقين الصَّبر في الشدائد والمكاره، وحقَّقَ بالصبر صدقهم وتقواهم، وأكمل به وصفهم وأعمال برّهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) انظر بعض الآثار في ذلك: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٣٢٣).

(٢) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٦١): «لا أصل له مرفوعًا، وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز، هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس». اهـ.

فمعنى الصَّبر: حبس النَّفس عن السعي في هواها، وحبسها على دوام الطاعة، وصبرها عن شرَه الطبع الذي يظهر سوء الأدب بين يدي الرب سبحانه وتعالى، وصبرها على حُسن الأدب في المعاملة.

ومن الصَّبر: حبسُ النَّفس على الحقِّ وعكوفها عليه، بمعاملة اللسان والقلب والجسم، وبذلك وصف الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات، واشترط لصلاح أعمالهم الصبر، وأخبر أنَّ الناس كلّهم في خسرانٍ إلاَّ من كان من أهل الحقّ والصبر. وعظَّم الصبر فأفرده بإعادة التواصي به.

ومن الصَّبر: حبس النفس على عبادة الخالق تعالى.

ومن الصَّبر: كف الأذى عن الخلق، وهو مقام العادلين يدخل في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، ثُمَّ احتمال الأذى عن الخلق وهو مقام المُحسنين، يدخل في قوله: ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

ومن الصَّبر: الصبر على الإنفاق وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم الأقرب فالأقرب، وهذا مقام المُنفقين، يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

ومن الصَّبر: الصبر عن المنكر والبغي، وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحدّ بالكبر والإسراف في أمور الدُّنيا، فهذه الآية كلها جامعة لمعنى الصبر، وهي قطب القرآن، ثلاث منها ــ وهي الأُوَل ــ الصبر على العدل والإحسان والإعطاء، وثلاث منها الصبر عن الفحشاء والمنكر

والبغي. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: أجمع آية في كتاب الله عزَّ وجلّ لأمر ونهي هذه الآية.

وقال الله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، فما أَنْعَمَ أجرَهم حتى وصفهم بالصبر، وما أَكْرَمَ رزقَهم ووصفهم حتى مدحهم بالصبر.

والصبر يُحتاج إليه قبل العمل ومعه وبعده:

يُحتاج في أول العمل أن يصبر على تصحيح النية، وعزم العقود، والوفاء بها حتى تصح الأعمال؛ لأنَّ النبي عليه السلام قال: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىءٍ ما نوى»[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وحقيقة النيَّة الإخلاص.

والصبر الثاني في العمل، حتى يتم ويعمل؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

والصبر بعد العمل هو الصبر على كتمه وترك التظاهر به والنظر إليه، ليخلص من السُّمعة والعجب، فيكمل ثوابه كما خلص من الرياء؛ قال تعالى في مثله: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقال بعض السلف: لا يتم المعروف إلاَّ بثلاث: تعجيله، وتصغيره، وكتمه.

ومن الصبر: حبس النفس عن المكافأة، والصبر على الأذى توكُّلاً على المولى عزَّ وجلّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾ [إبراهيم: ١٢]، وهذا صبر الخصوص، ومنه قول بعض أهل المعرفة: لا يثبت للعبد مقام في التوكل حتى يؤذى ويصبرَ على

(١) أخرجه البخاري (١/ ٩)، ومسلم (٣/ ١٥١٥) من حديث عمر بن الخطاب.

الأذى. وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وفي قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩، ١٠]. وفي الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أَشدُّ بلاءً ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمثلُ»(١).

ومن الصبر: حبسُ النَّفس على التقوى. والتقوى اسم جامع لكل خير، فالصبر معنى داخل في كل بِرٍّ، فإذا جمعهما العبد فهو من المحسنين. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦]، أي: إن تصبروا على الأذى عن المكافأة، وتتقوا عند الابتلاء والمكاره، ولا تجاوزوا فإنه أفضل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ [الشورى: ٤١]، ثُمَّ قال عزَّ وجلّ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى: ٤٣]. قال: فالأول ـ أعني المكافأة والانتصار بالحقِّ ـ: من العدل، والعدل حسن. والثاني: ـ أعني العفو والصبر ـ: من الفضل، وهو الإحسان، وهذا مجاز قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١/ ١٨٥)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص، وإسناده جيد.

يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: ١٨]، فاستماع القول هو العدل في الانتصار أو الفضل في العفو والصبر، والعدل حسن، والعفو أحسن؛ وفيه المدح بالهدى والعقل، وهذا هو مقام المخبتين؛ لأن الإخبات هو الخشوع والطمأنينة بحسن الجزاء من الله تعالى في الآخرة؛ لقرب اللقاء وسرعة فناء الدنيا.

وقد شرف الله الصَّبر بأن أضافه إليه بعد الأمر به، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال بعض العلماء: وأيّ شيء أفضل من الصبر؟ وقد ذكره الله تعالى في كتابه في نيف وتسعين موضعًا. ولا نعلم شيئًا ذكره الله تعالى بهذا العدد إلاَّ الصبر. فلا يطمعن طامع في مدح الله له وحُسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصبر له، ولا يطمعن أحد في حقيقة الإيمان وحُسن اليقين قبل أن يمدحه الله تعالى ويثني عليه.

ومن الصَّبر: الصبر على العافية: أن لا يجريها في المخالفة، والصبر على الغنى أن لا يبذله في الهوى، والصبر على النعمة أن لا يستعين بها على معصية.

فحاجة المؤمن إلى الصبر في هذه المعاني ومطالبته بالصبر عليها كحاجته ومطالبته بالصبر على المكاره والفقر، وعلى الشدائد والضرّ.

ويقال: إن البلاء والفقر يصبر عليهما المؤمن، والعافية لا يصبر فيها إلاَّ صِدِّيق. وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فمدحهم بوصف واحد في الحالين المختلفين؛

لحسن يقينهم، وسخاوة نفوسهم، وحقيقة زهدهم. ومن هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، لأنَّ فيهما ما يسرّ ويشغل عن الذكر. ثُمَّ قال عــزَّ وجــلّ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، لأنَّ في الأزواج والأولاد ما يفرح به فيوافق فيه الهوى، ويخالف بوجودهما المولى، فصارا عَدُوَّيْنِ في العقبـى لما يؤول إليه من شأنهما.

وفي الحديث: «الوَلَدُ مَحْزَنَةٌ، مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ»(١)، أي: يحمل حُبُّ الأولاد والأموال على الحزن والبخل والجبن؛ فهذه مصادرها.

فَمَنْ صَبَرَ على السَّراء، وهي العافية والغنى والأولاد وغير ذلك، وأَخَذَ الأشياء من حقّها ووضعها في حقها فهو من الصابرين الشاكرين.

ومن الصَّبر: كتمان المصائب والأوجاع، وترك الاستراحة إلى الشكوى بهما، فذلك هو الصبر الجميل، قيل: هو الذي لا شكوى فيه ولا إظهار. ورُوِّينا عن ابن عباس رضي الله عنهما: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء الفرائض لله تعالى، وصبر عن محارم الله تعالى، وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى، والصبر على المصيبة من مقامات اليقين، فأحسن الناس صبرًا عند المصائب أكثرهم يقينًا، وأكثر الناس جزعًا وسخطًا في المصائب أقلّهم يقينًا.

---

(١) أخرجه البزار (١٨٩١)، والحاكم (٢/ ٢٩٦) من حديث الأسود بن خلف، وصححه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٢٦١)، وقال تلميذه الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٥٥): «رجاله ثقات». اهـ.

ومن الصَّبر: إخفاء أعمال البِرّ، ومنع النفس الفكاهة والتمتُّع بذكرها، وإخفاء المعروف والصدقات. فإنَّ كتمه من الأدب، مع السلامة في الإعلان، وبرء الساحة في الإخبار.

ولكن إخفاؤه أفضل وأزكى وأحبّ إلى الله تعالى، بل هي من كنوز البرِّ ــ أعني: هذه الثلاثة: إخفاء الأوجاع والمصائب والصدقة ــ ، أي: من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى.

ومن فضائل الصَّبر: حبس النفس عن حب المدح والحمد والرئاسة.

ومن الصَّبر: صبر على العيال في الكسب لهم، والإنفاق عليهم، والاحتمال للأذى منهم، فإن في العيال طرقات إلى الله تعالى، أدناها الاهتمام بهم، وأعلاها الرضا عن الله تعالى والتوكُّل عليه فيهم، وأوسطها الإنفاق وحبس النفس عليهم.

واعلم أنَّ أكثر معاصي العباد في شيئين: قلَّة الصبر عمّا يحبون، وقلَّة الصبر على ما يكرهون. وقد قرن الله تعالى الكراهة بالخير، والمحبة بالشر، في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والصبر أيضًا حيلة مَنْ لا حيلة له؛ لأنَّ الأمر إذا كان بيد غيرك لم يكن إلاَّ الصبر عليه.

ومُجْمَلُ ذلك أنَّ الصبر فرض وفضل، يُعرف ذلك بمعرفة الأحكام، فما كان أمرًا أو إيجابًا فالصبر عليه أو عنه فرضٌ. وما كان حثًّا وندبًا فالصبر عليه أو عنه فضل.

والتصبُّر غير الصبر، وهو: مجاهدة النَّفس وحملها على الصبر وترغيبها فيه، وهو: التعمُّل للصبر، والصبر هو: التحقُّق بالوصف، وذلك هو المقام.

ولا يُخْرِجُ العبدَ من الصبر كراهةُ النفس ولا وجدانُ المرارة والألم، بل يكون مع ذلك صابرًا؛ لأنَّ هذا وصف البشرية لما ينافي طبعها، ولكن يكون حاله الكظم عن الشكوى ونفي السخط لحكم المولى؛ لأنَّ عدم ذلك وفقده هو الرضا وحقيقة التوكُّل، وهذان من أعلى مقامات اليقين. والذي يُخرج عن حدّ الصبر ضده، وهو: الجزع، ومجاوزة الحدّ من العلم، وإظهار السخط، وكثرة الشكوى، وظهور الذمّ والتبرُّم.

واعلم نَّ الصبر سبب دخول الجنة، وسبب النجاة من النار؛ لأنَّه جاء في الخبر: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ»[1]، فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، ويحتاج إلى صبر عن الشهوات لينجوَ من النار.

واعلم أنَّ الشكر داخلٌ في الصبر، والصبر جامع للشكر؛ لأنَّ من صبر أن لا يعصي الله بنعمة فقد شكرها، ومن أطاع الله فصبَّر نفسه على طاعته فقد شكر نعمته.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٤) من حديث أنس وأبـي هريرة.

الفصل العشرون

في شَرْحِ مَقَامِ الشُّكْرِ وَوَصْفِ الشَّاكِرِينَ

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧]، فقَرَن الشُّكْر بالإيمان، ورَفَعَ بوجودهما العذاب.

وقال تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكِر بمنزلَةِ الصَّائم الصَّابر»(١).

وللشُّكر أنواع:

فشكر القلب، هو: مشاهدة المُنْعم في نعمه حتى ترى النِّعمة منه والعطاء عنه.

وشكر اللِّسان: حسن الثناء على الله تعالى، وكثرة الحمد والمدح له، وإظهار إنعامه وإكرامه، ونشر أياديه وإحسانه، وأن لا يشكو المالكَ إلى المملوك، ولا المعبودَ الجليل إلى العبد الذليل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٦)، والحاكم (٤/ ١٣٦)، والبيهقي (٤/ ١٣٦)، من حديث أبي هريرة، وهو حديث صحيح بشواهده.

وأما شكر الجوارح للمنعم المفْضِل سبحانه وتعالى، فهو: أن لا يعصيه بنعمة من نعمه، وأن يستعين بنعمته على طاعته، ولا يستعين بها على معاصيه، فيكون قد كفرها كما قال تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قيل: استعانوا بنعمه على معاصيه، فالخلق لا يقدرون على تبديل نعمة الله عزَّ وجلّ، ولكن معناه: بدلوا شكر نعمة الله كفرًا. وهذا من المضمر معناه؛ لظهور دليله عليه؛ لأنه أمرهم بالطاعة بالنعم فخالفوه فعصوه بها، فكان ذلك تبديلهم لما أمروا.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٢]، المعنى: شكر رزقكم تجعلونه تكذيبكم برسل الله تعالى وهذا من المحذوف أيضًا، وبمعناه: ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١١]، أي: يعاقب من كفر بالنعمة فضيع شكرها بمعصيته بها، يعاقبه بزوالها، فقد يكون العذاب في الدُّنيا تبديلَ النعمة عقوبات، وتغييرَها هوانًا ومذلّات، وقد يكون العذاب مؤجلاً.

ومن الشكر: الأعمال الصالحة. وبالعمل فسر الله تعالى ورسوله ﷺ الشكر للمنعم، فقال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال رسول الله ﷺ ــ لمّا عوتب في اجتهاده وقيامه حتى تورَّمت قدماه ــ: «أفلا أكونُ عَبْدًا شَكورًا؟»[١]: فأخبر أنَّ المجاهدة، وحسن المُعاملة شكر المستعمل وجزاء المُنعم.

وحقيقة الشُّكر: التقوى، وهو: اسم يستوعب جمل العبادة التي أمر الله تعالى بها عباده في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٩٧).

خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]. ثُمَّ عبَّر عن حقيقة الشكر بتقواه، وأخبر سبحانه وتعالى أنَّ التقوى هو الشكر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وفي الشكر مقامان عن مشاهدتين:

أعلاهما: مقام شكُور، وهو: الذي يشكر على المكاره والبلاء والشَّدائد واللأواء، ولا يكون كذلك حتى يُشهد ذلك نعمًا توجب عليه الشكر بصدق يقينه وحقيقة زهده. وهذا مقام في الرضا، وحال من المحبَّة، وبهذا الوصف ذكر الله تعالى نبيّه نوحًا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣]، في التفسير: إنه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ.

وروِّينا في الخبر: «يُنادي مُنادٍ يَوْمَ القيامة: لِيقُم الحمَّادون.. فيقوم زُمرةٌ، فيُنْصَبُ لهم لواءٌ، فيدخلون الجنَّة». قيل: ومن الحمَّادون؟ قال: «الذين يشكرون الله تعالى على كُلِّ حالٍ». وفي لفظ آخر: «على السَّرَّاء والضرَّاء»(١).

والمقام الثاني من الشكر: أن ينظر العبد إلى مَن هو دونه ممن فُضِّل هو عليه في أمور الدُّنيا وأحوال الدِّين، فيعظِّم نعمة الله تعالى عليه بسلامة قلبه ودينه، وعافيته مما ابتلي الآخر به، ويعظِّم نعمة الدُّنيا عليه لما آتاه الله

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٣٤٦)، وفي «الصغير» (١/١٠٣)، والحاكم (١/٥٠٢)، وإسناده ضعيف؛ فيه قيس بن الربيع ضعيف، وحبيب بن أبـي ثابت مدلس لم يُصرح بالتحديث، وبالأول أعله الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/٨١).

تعالى وكفاه فيما أحوج الآخر وألجأه إليه، فيشكر على ذلك، ثُمَّ ينظر إلى مَن هو فوقه في الدِّين ممن فضل عليه بعلم الإيمان وبحسن يقين، فيمقت نفسه ويُزري عليها، ويُنافس في مثل ما رأى من أحوال من هو فوقه ويرغب فيها. فإذا كان كذلك كان من الشاكرين ودخل تحت اسم الممدوحين.

وأصل قلَّة الشكر الجهل بالنعمة، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى، وطول الغفلة عن المُنعم، وترك التفكُّر في نعمه والتذكُّر لآلائه ومنَّته سبحانه وتعالى، فقد أمر بذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾ [الأعراف: ٦٩]. قيل: نعمه. وقال: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥﴾ [البقرة: ١٨٥]، يعني: على نعمة الهداية وتوفيق الطاعة.

فإذا جهل العبد النعمة لم يعرفها، وإذا لم يعرفها لم يشكر عليها، وإذا لم يشكر عليها انقطع مَزيدُه.

وأُصول نعم المرافق للإحراث أربعة:

أولها: النطفة التي أخرجت من خزانة الأرحام جميع البهائم والأنام. **ثُمَّ**: الحرث الذي أخرج من خزانة الأرض جميع الثمر. **ثُمَّ**: الماء الذي لنا منه شراب ومنه شجر. **ثُمَّ**: النار التي فيها ضياء ومصالح الأطعمة وبها لأهل البصائر تذكرة.

وهذه النِّعم هي التي ذكرها المُنعم في آخر سورة الواقعة، وأضافها إلى نفسه عزَّ وجلّ، ولم يجعل فيها شريكًا معه.

ومن أفضل النعم وأجلّها نعمة الإيمان به سبحانه وتعالى، ثُمَّ نعمة

الرسول، ثُمَّ نعمة القرآن، ثُمَّ أن جعلنا من خير أمة أُخرجت للناس، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ١٨]، فتمَّت النعمة بوصفَيه اللذين هو لهما أهل المغفرة والرحمة.

ومن نعمه تعالى: إظهار الجميل، وستر القبيح، فلا ندري أي النعمتين أعظم، جميل ما أظهر أو قبيح ما ستر؟

ومن النعمة: الصحة والفراغ.

وقال الفضيل بن عياض: عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقلّ نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم.

وقد روي في خبر: «ما عظُمت نعمة الله تعالى على عَبْدٍ إلاَّ كثرت حوائج النَّاس إليه، فمن تهاون بهم عرَّض تلك النِّعمة للزوال»[1]؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [الرعد: ١١]. قيل: لا يغير نعمة عليهم حتى يغيِّروها بتضييع الشكر فيعاقبهم بالتغيير. والوجه الآخر: لا يغيِّر ما بهم من عقوبة حتى يغيِّروا معاصيهم بالتوبة. ويقال: إنَّ تحت كل شعرة من جسم العبد نعمة، وفي كل دقيقة تأتي عليه من عمره نِعم لا تُحصى.

ويقال: إنَّ الرغيف لا يستدير حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صنعة من السماء والأرض، وما بينهما من الأجسام، والأعراض، والأفلاك، والرياح والليل والنَّهار، وبني آدم وصنائعهم والبهائم ومعادن الأرض،

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ١٢٧): «رواه ابن حبان من حديث ابن عباس، وقال: إنه موضوع». اهـ.

فهذه كلها نعم في حضور رغيف، فكيف بما زاد عليه مما وراءه.

فعلى العبد بكل نعمة شكر، إن طولب بشكر نعمة واحدة على حقيقتها هلك، إلاَّ أن تغمده رحمة من ربه فتغمره لتمام النعمة، وقد جاء في الخبر: «مَنْ أَصْبَحَ مُعافًى في بَدَنِهِ، آمِنًا في سِرْبِهِ، وَعِنْده قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا بحذافيرها»[1].

ويقال: ما من مصيبة إلاَّ وللَّه تعالى فيها خمس نعم:

أولها: أنها لم تكن في الدِّين.

والثانية: أنها لم تكن أكبر منها.

والثالثة: أنها كانت مكتوبة عليه لا محالة، فقد نفذت واستراح منها.

والرابعة: أنها عُجِلت في الدُّنيا ولم تؤجل في الآخرة فتعظم على مقدار عذاب الآخرة.

والخامسة: أنَّ ثوابها خير منها، فإن المصيبة إذا كانت في أمر الدُّنيا فإنها طريق إلى الآخرة، وعندنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤]. قيل: ظلوم بالتسخُّط، كفَّار بالمعاصي وبالنعم.

ومن أفضل النعم نعمة الإيمان ثُمَّ دوامه؛ لأنَّ دوام الشيء نعمة ثانية، ولا يستطيع العبد شكر نعمة الإيمان، ومعرفة بداية التفضُّل به وقديم الإحسان من غير قدم من العبد ولا استحقاق، بل بفضل الله

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٠)، والترمذي (٢٣٤٧)، وابن ماجه (١٤١٤)، من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري، وهو حديث صحيح.

وبرحمته. وهذا أحد الوجوه في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ [عبس: ٢٣]، أي: لا يقضي العبد أبدًا شكر ما أمره الله تعالى من نعمة الإسلام التي هي أصول النِّعم في الدُّنيا والآخرة، وهي سبب النَّجاة من النار، ومفتاح دخول الجنة، ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، أي: قواهم بمدد يثبته ويقويه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ومن ذلك قوله ﷺ: «يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على طاعتك»[(١)]. وهذا دخل في معنى قوله ﷺ: «أَحِبوا الله تعالى لما أَسدَى إِليكم من نِعَمِه، ولما يَغْذُوكم به»[(٢)].

أيضًا، فمن أفضل ما غذانا به نعمة الإيمان له والمعرفة به، وغذاؤه لنا منه دوام ذلك، ومدده بروح منه.

ومن النَّاس من يقول: إنَّ الصبر أفضل من الشكر.

وبالتحقيق: إنَّ كل مقام من مقامات المقربين يحتاج إلى صبر وشكر، وأحدهما لا يتم إلَّا بالآخر؛ لأنَّ الصبر يحتاج إلى شكر عليه

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٣/ ١١٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٢٠٩)، والترمذي (٢١٤٠)، والحاكم (١/ ٥٢٦) وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٨٩)، والحاكم (٣/ ١٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٤٣)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٤٣٠) من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف؛ فيه عبد الله النوفلي، فيه جهالة كما قال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٤٣٢).

ليكمل، والشكر يحتاج إلى صبر عليه ليستوجب المزيد، وقد قرن الله تعالى بينهما، ووصف المؤمنين بهما، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾ [إبراهيم: ٥]، فذكر الشكر بلفظ المبالغة في الوصف على وزن فَعول، كما ذكر الصبر على وزن فَعّال، وهو وصف للمبالغة أيضًا، ولذلك اقتسما الإيمان نصفين، كما جاء في الخبر: «الصَّبْرُ نصفُ الإيمان، والشُّكْرُ نِصْفُ الإيمان، واليقينُ الإيمان كُلُّهُ»[1]، ولأنَّ اليقين أصلهما، وهما ثمرتاه عنه يوجدان، واللَّهُ يُحب الصَّابرين، ويُحب الشَّاكرين.

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٤)، والخطيب في «تاريخه» من حديث ابن مسعود، وإسناده ضعيف مرفوعًا؛ فيه محمد بن خالد المخزومي، مجروح الحديث، وقال الحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٢/ ٢٢) عن هذا الحديث: «لا يثبت». وهو صحيح موقوفًا على ابن مسعود: أخرجه ابن أبي خيثمة في «تاريخه» كما في «تغليق التعليق» (٢/ ٢١، ٢٢) لابن حجر، والطبراني في «الكبير» (٨٥٤٤)، وصححه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/ ٤٨)، وفي «التغليق» (٢/ ٢٢).

الفَصْل الحادي والعشرون

في شَرْحِ مقامِ الرَّجاء ووصفِ الرَّاجين

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩].

وقال جلَّت قدرته: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال سبحانه وتعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقال تعالى في وصف المُتوكلين: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٦].

وفي خبر علي رضي الله عنه: «مَنْ أَذْنَبَ ذنبًا فَسَتَرَهُ الله تعالى عليه في الدُّنيا، فالله تبارك وتعالى أكْرَمُ من أن يَكْشِفَ سِتْرهُ في الآخِرَةِ، ومن أَذْنب ذنبًا فَعُوقِبَ عليه في الدُّنيا، فالله تعالى أَعْدَلُ من أن يُثَنِّي عُقوبَته على

عَبْدِهِ في الآخِرَةِ»[١].

فالرجاء هو اسم لقوّة الطمع في الشيء، بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشيء، ولذلك أقام تعالى [الطمع][٢] مقام الرجاء في التسمية وأقام الحذر مقام الخوف، فقال عَلَت كلمتُه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وهو وصف من أوصاف المؤمنين، وخُلُقٌ من أخلاق الإيمان، لا يصح إلاَّ به، كما لا يصح الإيمان إلاَّ بالخوف، فالرجاء بمنزلة أحد جناحي الطائر، لا يطير إلاَّ بجناحيه، كذلك لا يؤمن من لا يرجو من آمن به ويخافه. وهو أيضًا مقام من حسن الظن بالله تعالى، وجميل التأميل له؛ فلذلك أوصى رسول الله ﷺ فقال: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وهو حَسَنُ الظنِّ بالله تعالى»[٣]؛ لأنه قال عن الله تعالى: «أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، فَلْيَظُنَّ بي ما شاء»[٤]، ودخل رسول الله ﷺ [على رجل][٥] وهو في سياق الموت

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩٩، ١٥٩)، والترمذي (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢٦٠٤)، والحاكم (٢/ ٤٤٥، ٤/ ٣٨٨)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ٣٢٨)، وإسناده حسن.

(٢) ما بين المعكوفين من الأصل «قوت القلوب» ليتم السياق.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٥) من حديث جابر بن عبد الله.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١)، والدارمي (٢/ ٣٠٥)، والطبراني في «الكبير» (رقم ٢٢/ ٢١٠)، وابن حبان (٦٣٣، ٦٣٤) من حديث واثلة بن الأسقع، بإسناد صحيح.

(٥) ما بين المعكوفين من الأصل «قوت القلوب» ليتم السياق.

فقال: «كَيف تَجِدُكَ؟»، فقال: أجدني أخافُ ذنوبي وأرجو رحمَةَ ربي. فقال عليه السلام: «ما اجتمعا في قلبِ عَبْدٍ في هذا المَوْطِنِ إلَّا أعطاهُ الله تعالى ما رَجا وأَمَّنَهُ مما يخاف»(١).

إلَّا أنَّ الرَّجاء مقامٌ جليلٌ، وحالٌ شريفٌ نبيل، لا يصلحُ إلَّا للكُرماء من أهل العلم والحياء، وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف، يروحون به من الكرب، ويستريحون إليه من مُقارفة الذَّنب.

ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم في مقام الخوف لم يرفع إلى مقامات أهل الرجاء.

ومن علامة صحَّة الرجاء في العبد كون الخوف باطنًا في رجائه؛ لأنَّه لما تحقق برجاء شيء خاف فوته؛ لعظم المرجوّ في قلبه وشدَّة اغتباطه به، فهو لا ينفك في حال رجائه من خوف فوت الرجاء، والرجاء هو ترويحات الخائفين، ولذلك سمَّت العرب الرجاء خوفًا؛ لأنهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

ومن مذهبهم: أنَّ الشيء إذا كان لازمًا لشيء، أو وصفًا له، أو سببًا له أن يعبِّروا عنه به، فقالوا: ما لك لا ترجو كذا. وهُم يريدون: ما لك لا تخاف. وعلى هذه اللغة جاء قول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]، أجمعوا على تفسيره: ما لكم لا تخافون لله عظمةً. وهو

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٢٤، ٢٥)، والترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١) من حديث أنس، وقال الحافظ المنذري في «الترغيب» (٤/ ١٦٣): «إسناده حسن»، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ١٤٥): «قال النووي: إسناده جيد». اهـ.

أيضًا أحد وجهي تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]، أي: يخاف من لقائه.

ثُمَّ إنَّ للراجي حالاً من مقامه، ولحاله علامة من رجائه.

فمن علامة الرجاء: حُسْنُ التَّقرُّب، ودوام المعاملة، وكثرة التقرُّب بالنوافل، لحسن ظنه بربه وجميل أمله منه، وأنه يتقبَّل صالح ما أمر به تفضُّلاً منه من حيث كرمه، لا من حيث الواجب عليه، وأنه أيضًا يكفر سيِّء ما عمله، إحسانًا منه ورحمة من حيث لطفه بنا وكرمه وفضله.

وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: من سأل الله تبارك وتعالى شيئًا فنظر إلى نفسه وأعماله، لا يرى الإجابة حتى يكون ناظرًا إلى الله تبارك وتعالى وحده، وإلى لطفه وكرمه، ويكون مُوقنًا بالإجابة، ولعمري إنَّ من سأل الله تعالى ورغب إليه في شيء ورجاه ناظرًا إلى نفسه وعمله، فإنه غير مخلص في الرجاء له تعالى؛ لشركه في النظر إليه، وإذا لم يكن مخلصًا لم يكن موقنًا. ولا يقبل الله تعالى عملاً، ولا دعاءً إلاَّ من موقن بالإجابة، مخلصٍ، فإذا شهد التوحيد ونظر إلى الوحدانية فقد أخلص وأيقن. وهكذا جاء في الخبر: «إذا دَعَوْتم فكونوا مُوقنين بالإجابَةِ»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٣٨٠)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٧٢)؛ وإسناده ضعيف جدًا؛ فيه صالح بن بشير المري قال عنه البخاري: منكر الحديث؛ أي لا تحل الرواية عنه، وقال النسائي: متروك، فهو متروك الحديث مع صلاحه وزهده، فلا يعتبر بحديثه ولو في باب الشواهد، وهذا الحديث منها، وروى الحديث أحمد (٢/ ١٧٧) بلفظ قريب منه من حديث عبد الله بن عمرو، وإسناده ضعيف؛ فيه ابن لهيعة فبقي هذا الحديث على شهرته ضعيفًا.

ومن الرجاء: انشراح الصدر بأعمال البرِّ، وسرعة السبق، والمبادرة بها خوف فوتها، ورجاء قبولها. ثُمَّ مهاجرة السوء، ومجاهدة النفس، رجاء انتجاز الموعود وتقرُّبًا إلى الرحيم الودود، ومنه: قول أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]. وفسَّر رسول الله ﷺ المهاجرة والمجاهدة فقال: «المُهاجِر: من هَجَرَ السُّوءَ، والمُجاهد: من جاهَدَ نفسَه في الله تعالى»(١). وأقام الصلاة التي هي خدمة المعبود، وبذل المال سرًّا وعلانية وقليلًا وكثيرًا، وأن لا يشتغل عن ذلك بتجارة الدُّنيا، كما وصف الله سبحانه وتعالى المُحققين من الراجين إذ يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: ٢٩].

ومن الرجاء: القنوت في ساعات الليل، وهو: طول القيام للتهجُّد والدعاء عند تجافي الجنوب عن المضاجع؛ لما وقر في القلوب من المخاوف؛ ولذلك وصف الله الراجين بهذا في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، فسمَّى أهل الرجاء والحذر وأهل التهجُّد آناء الليل: علماء.

وحصل من دليل الكلام أنَّ من لم يَخَفْ ولم يَرْجُ غيرُ عالم؛ لنفيه المساواة بينهما؛ فالرجاء هو أول مقام من اليقين عند المقربين، ولا

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٧٠): «أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٤) بالشطر الأول والنسائي في الكبرى بالشطر الثاني، كلاهما من حديث فَضالة بن عبيد بإسنادين جيدين». اهـ.

يتحقق به صاحبه حتى يجتمع فيه هذه الأوصاف: الإيمان بالله تعالى، والمهاجرة إليه سبحانه وتعالى، والمجاهدة فيه، وتلاوة القرآن، وإقام الصلاة، والإنفاق في سبيل الله تعالى، ثُمَّ السجود آناء الليل، والقيام، والحذرُ مع ذلك كله.

فهذه جملة صفات الرَّاجين، وهو أول أحوال الموقنين.

وقد وصف الله عزَّ وجلّ الرَّاجين ـ مع الأعمال الصالحة لقوَّة رجائهم ـ بالخوف؛ تكملةً لصدق الرجاء، وتتمةً لعظيم الغبطة به، فقال تعالى وتقدَّس: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقال عزَّ وجلّ مُخبرًا عنهم في حال وفائهم وأعمال برِّهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ [الإنسان: ٧]، من قبل أنَّ الخوف مرتبط بالرجاء.

فمن تحقَّق بالرجاء صارعه الخوف أن يقطع به دون ما رجا.

ومن الرجاء: سقوط ثقل المعاونة على البرِّ والتقوى؛ لوجود حلاوة الأعمال والمسارعة إليها والحثّ لأهلها عليها، والحزن على فوتها والفرح بدركها، ومن ذلك الخبر المأثور: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وساءَتْهُ سيِّئتهُ، فهو مُؤمنٌ»[1]، والخبر المأثور: «خيارُ أُمتي الذين إذا أَحسَنوا اسْتَبشروا، وإذا أَساؤُوا اسْتَغفروا»[2]؛ لأنَّ المؤمن على يقين من أمره، وبصيرة من دينه.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٨)، وابن حبان (٧٢٥٤)، والحاكم (١/ ١١٣)، والبيهقي في «السنن» (٧/ ٩١)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه الحاكم ووافقه الذَّهبي، وهو كما قالا.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع البحرين» (٩٢١)، وفي «الدعاء» (١٧٩٠)، من حديث جابر، وإسناده ضعيف؛ فيه ابن لهيعة ضعيف الحديث.

والخوف والرجاء وصف الموقن بالله تعالى؛ فهو إذا عمل حسنة أيقن بثوابها؛ لصدق الوعد وكرم المُوعِد، وإذا عمل سيئة أيقن بالكراهة لها، وخاف المقت عليها؛ لخوف الوعيد وعظمة المتوعد.

ومن الرجاء: شدَّة الشوق إلى ما شوَّقَ إليه الكريم، وسرعة التنافس في كل ما ندب إليه الرحيم.

فأما الرجاء الذي هو همة جلّة الناس من الإقامة في المعاصي والانهماك في الخطايا، وهو يرجو المغفرة وينتظر الكرامة! فليس هذا برجاء عند العلماء؛ لأنَّ الرجاء مقام من اليقين، وليس هذا وصف الموقنين، بل هذا اغترار بالله تعالى، وغفلة عن الله تعالى، وجهل بأحكام الله تعالى، وقد تهدَّد الله تعالى قومًا ظنّوا مثل هذا وأصرّوا على حبّ الدُّنيا والرضا بها، وتمنّوا المغفرة على ذلك، فسمَّاهم خَلْفًا، والخَلْف: الرديء من الناس، وتوعَّدهم بشديد البأس في قوله عزَّ وجلّ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، والأخبار في حقيقة الرجاء تزيد المغترِّين اغترارًا، وتزيد المُستدرجين بالسّر والنعيم خسارًا، وهي مزيد للتوَّابين الصَّادقين، وقرَّة عين المحبِّين المخلصين.

ومن الرجاء: تحسين الأخلاق مع الخَلْق، وجميل الصبر عليهم، وحُسن الصفح، ولطيف المُداراة لهم؛ تقرُّبًا إلى الله عزَّ وجلّ بذلك، وتخلُّقًا بأخلاقه رجاء ثوابه، وطمعًا في تنجيز وعده، واتِّباعًا لسنَّة رسوله ﷺ.

ومن الرجاء: فعل الطَّاعات، وحُسن الموافقات، ينوي بها ويسأل

مولاه الكريم عظيم الرَّغائب، وجليل المواهب؛ لما وهب له من حُسن الظن به؛ لما روي عن النبي ﷺ: «إذا سَأَلتُم الله تعالى فَأَعْظموا الرَّغْبَة، وسلوهُ الفِردوس الأَعلى؛ فإنَّ الله عزَّ وجلّ لا يَتَعاظَمُهُ شيءٌ»[1].

فهذه جملة أحكام الرجاء وأوصاف الراجين، فمن تحقق بجميعها فقد استحق درجات أهل الرجاء، وهو عند الله تعالى من المقربين، ومن كان فيه وصف من هذه الأوصاف فله مقام من الرجاء.

* * *

(١) دمج المؤلف بين حديثين: الأول: أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٦٣) من حديث أبي هريرة، والآخر أخرجه البخاري (٦/ ١١) من حديث أبي هريرة أيضًا.

الفصل الثاني والعشرون

في شَرْحِ مَقَامِ الخَوْفِ ووصفِ الخائِفين

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فرَفَعَ العِلْمَ على العقل، وجعلَهُ مقامًا فيه.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فجَعَلَ الخشيةَ مقامًا في العلم حققهُ بها.

والخشيةُ حالٌ من مقامِ الخوفِ، والخوفُ اسمٌ لحقيقةِ التقوى، والتقوى معنًى جامعٌ للعبادة، وهي رحمة الله تعالى للأوَّلين والآخِرين، ينظم هذين المعنيين قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١]، وهذه الآية قطب القرآن؛ مداره عليها، والتقوى سبب أضافه تعالى إليه تشريفًا له، ومعنًى وصله به، وأكرم عبادَه عليه تعظيمًا له، فقال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد جمع الله تعالى للخائفين ما فرقه على المؤمنين، وهو: الهدى والرحمة والعلم والرضوان. وهذه جُمل مقامات أهل الجنان، فقال تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال جلَّ ذكره: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة: ٨].

فالخوفُ اسمٌ جامعٌ لحقيقةِ الإيمان، وهو عَلَمُ الوجود والإيقان، وهو سبب اجتناب كلِّ نهي ومفتاح كلِّ أمر. وليس شيء يَحْرِقُ شهواتِ النفوس فيُزيلُ آثار آفاتها إلاَّ مقام الخوف.

وثمرة الخوف العلم بالله عزَّ وجلّ، والحياء من الله عزَّ وجلّ.

وجملته أن يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان، وأن يحفظ بطنه وما وعاه وهو القلب والفرج واليد والرجل.

وأعلى الخوف أن يكون قلبه معلقًا بخوف الخاتمة، لا يسكن إلى عِلْمٍ ولا عَمَلٍ، ولا يقطع على النجاة بشيء من العلوم وإن علت، ولا لسبب من أعماله وإن جَلَّت؛ لعدم علمه تحقيق الخواتيم، فقد قيل: إنما يوزن من الأعمال خواتِمُها. وأقل ما يفيد علمَ هذا الخائفينَ تركَ النظر إلى أعمالهم، ورفعَ السكون إلى علومهم، وصدقَ الافتقار في كل حال، ودوام الانقطاع بكل همّ، والإزراء على النفس في كل وصف ـ وهذه مقامات لقوم ـ فيكون هذا الخوف سبب نجاتهم من هذه الوقائع، إذ قد جعل الله تعالى التخويف أمنته من الأخذ بالمفاجأة، وسببًا للرأفة والرحمة لمن ألبسه إياه، وهو أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ الآية

[النحل: ٤٥]، ثُمَّ قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾ [النحل: ٤٧].

وعن لقمان: أنه قال لابنه: يا بني، خف الله تعالى خوفًا لا تيأس فيه من رحمته، وارْجُهُ رجاءً لا تأمن فيه مكره، ثُمَّ فسّره فقال: المؤمن كذي قلبين، يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

في شَرْحِ مقام الزُّهْدِ وَوَصفِ أحوال الزَّاهدين

قال أبو طالب المكي رحمه الله في بيان ماهية الزهد: ليس يمكن عبدًا أن يعرف الزهد حتى يعرف الدُّنيا، أيُّ شيءٍ هي؟ فقد قال الناس في الزهد أشياءَ كثيرةً، ونحن غير محتاجين إلى ذكر أقوالهم؛ بما بيَّن الله تعالى وأغنى بكتابه الذي جعل فيه الشفاءَ والغِنىٰ، وقد قال رسول الله ﷺ: «هو الحبل المتين، والصراط المستقيم. من طَلب الهدى في غيره أضلَّه الله»(١)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال عزَّ وعلا: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فقد ذكر الله جلَّ اسمه في كتابه أنَّ الدُّنيا سبعة أشياء، وهو قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، ثُمَّ قال تعالى في آخرها: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤]، ووصف حبّ الشهوات بالتزيُّن، ثُمَّ نسَّق الأوصاف السبعة على الحبّ لها،

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٢).

ثُمَّ أشار لها بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، فذا: إشارة إلى الكاف، والكاف: كناية عن المذكور المتقدم المنسوق، واللام بين ذا والكاف: للتمكين والتوكيد. فحصل مِن تَدَبُّرِ الخطاب أنَّ هذه السبعة جملة الدُّنيا، وأنَّ هذه الدنيا هذه الأوصاف السبعة، وما تفرع من الشهوات ردَّ إلى أصل من هذه الجمل، فمن أحبَّ جميعها فقد أحبَّ جملة الدُّنيا نهاية الحب، ومن أحبَّ أصلاً منها أو فرعًا من أصلٍ فقد أحبَّ بعضَ الدُّنيا، فعلمنا بنصِّ الكلام أنَّ الشهوة دُنيا، وفهمنا من دليله أنَّ الحاجات ليست دنيا؛ لأنَّها تقع ضروراتٍ، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دلَّ على أنها لا تسمَّى شهوة، وإن كانت قد تُشتهى؛ لأنَّ الشهوة دنيا، ولتفرقة الأسماء لإيقاع الأحكام عليها.

ثُمَّ سمعناه تعالى وجلّ قد ردَّ هذه السبعة الأوصاف في مكان آخر إلى خمسة معانٍ، فقال جلَّ من قائل: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فهذه الخمسة هي وصف من أحبَّ تلك السبعة.

ثم اختصر الخمسة في معنيين لها، هما جامعان للسبعة، فقال: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، ثُمَّ ردَّ الاثنين إلى وصف واحد، وعبَّر عنه بمعنيين، فصارت الدُّنيا ترجع إلى شيئين جامعين مختصرين يصلح أن يكون كلُّ واحد منهما هو الدُّنيا، فالوصف الواحد الذي ردَّ الاثنين إليه ـ اللذان هما اللعب واللهو ـ هو الهوى، اندرجت السبعة فيه، فقال عزَّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

[النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]، فلما كانت الجنة ضدّ الجحيم، كان الهوى هو الدُّنيا؛ لأنَّ النهي عنه ضد الإيثار له.

فمن نهى نفسه عن الهوى فإنه لم يؤثر الدُّنيا، وإذا لم يؤثر الدُّنيا ـ فهذا هو الزهد ـ كانت له الجنة، التي هي ضدّ الجحيم التي هي لم ينه نفسه عن الهوى بإيثاره الدُّنيا، فصارت الدُّنيا هي طاعة الهوى وإيثاره في كل شيء، فينبغي أن يكون الزهد مخالفة الهوى من كل شيء.

وأما المعنى الآخر الذي عبَّر به عن هذا الوصف الذي هو الهوى فجعله دُنيا أيضًا، فهو: حب البقاء لمتعة النفس، استنبطنا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ [النساء: ٧٧]، فالقتالُ هو فِراقُ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّه المشيُ بالسَّيْفِ إلى السيفِ، والفناءُ بينَ السَّيفين. فقالوا: هلاَّ بَقَّيْتَنا إلى وقت آخر، وهو أجلنا بالموت لا بالقتل؟ وهذا هو حبُّ البقاء.

ففَسّر حبَّ البقاء بأنَّه هو الدُّنيا، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، فانكشف الناس وافتضح المنافقون، وابتلي المؤمنون عند فرض القتال، وظهر المحبون الذين يقاتلون في سبيله صَفًّا كأنهم بنيان مرصوص. وعندها ربح الذين هم لأنفسهم وأموالهم بائعون، وخسر الذين هم للحياة الدنيا بالآخرة مشترون؛ لما قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، فلما اشتراها باعوها، وقال في المشترين الخاسرين: ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦]، يعني: رغبوا في البقاء الأدنى لما اشتروه ببيع البقاء الآخرة إذ باعوه.

فمن اشترى ثلاثين سنة وأربعين سنة بألف ألف وبأبد الأبد فما ربحت تجارته، ولا هدي سبيله.

فهذه تجارة من رغب في حياة دنياه فاشتراها ببقاء الأبد، فقد صار بائعًا للحياة العالية بما استبدل به من اشتراء ضدّها، فهذا تَدَبُّرُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: باعوا الحياة العليا.

فذلك الأول تجارة من باع حياة نفسه، وفرق مجموع ماله فاشتراه الله تعالى منه وعوَّضه داره، وأسكنه عنده جواره، فقد ربحت تجارته واهتدى سبيله، لَمّا باع حياة عشرين سنة وثلاثين سنة بحياة الأبد.

فهذا رِبْحُ تجَّارِ الآخرة الزَّاهدين في الدُّنيا، وذلك خُسْرُ تجّارِ الدنيا الراغبين في الهوى، فشتان بين التجارتين، فما أَعْظَمَ حَسْرَةَ الفوت على من خسر ما ربحه الزاهدون بعد الموت.

وقد كان الناس مستورين بإظهار الزهد في البقاء، ومظنونًا بهم حبُّ الباقي الأعلى، حتى نزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ الآية [النساء: ٧٧]، وحتى نزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢]، كانوا قالوا: إنا نحب ربنا، ولو علمنا في أيّ شيء محبته لفعلناه، فلذلك قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٣، ٤].

فإذا كان حبّ البقاء هو الدُّنيا، فينبغي أن يكون حبّ بقاء الباقي هو الزُّهد، فصار الزهد في الدُّنيا هو الزهد في البقاء، فمن زهد في الحياة

الفانية وفي ماله المجموع بالجهاد للنفس والإنفاق في سبيل الله، فقد زهد في الدُّنيا، ومن زهد في الدُّنيا أحبَّه الله تعالى؛ ولذلك صار الجهاد أفضل الأعمال؛ لأنه حقيقة الزهد في الدُّنيا. ثُمَّ كان مخالفة الهوى أفضل الجهاد؛ لأنه هو حقيقة الرغبة في الدُّنيا.

وقد عبَّر به رسول الله ﷺ عن الزهد في الدُّنيا؛ إذ قال في الحديث الأول: «ازْهَدْ في الدُّنيا يُحِبَّكَ الله تعالى»(١). ثُمَّ قال في الخبر الثاني بمعناه: «اجْتَنِبِ المحارمَ يُحِبَّكَ الله تعالى»(٢). واجتنابُها زهد في الدُّنيا.

فالزاهد في الدُّنيا حبيب ربه تعالى، والراغب في حب البقاء لنفسه منافق في دين ربه تعالى، ومنه الخبر الذي جاء: «مَنْ ماتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نفْسَهُ بغزوٍ، ماتَ على شُعبةٍ مِنْ نِفَاقٍ»(٣).

وبه كشف الله تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ مُّحۡكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، يعني: نفاقًا، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٠﴾ [محمد: ٢٠]، تهدُّدٌ ووعيدٌ، أي: ولهم العذاب وقَرُبَ منهم، ثُمَّ قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌۚ﴾، أي: يظهر منهم طاعة وقولٌ معروف،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٥٩٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٢، ٢٥٣، ٧/ ١٣٦)، من حديث سهل بن سعد، وحسّنه الإمام النووي في «الأربعين» (٢/ ١٧٤ جامع العلوم).

(٢) لا يوجد بهذا اللفظ في كتب السُّنَّة المعروفة، وفي الباب من حديث أبي هريرة عند أحمد (٣/ ٣١٠)، والترمذي (٢٣٠٥) وهو حسن بطرقه وأوله: «اتَّقِ المحارِمَ تكُن أعبَدَ النَّاس...».

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٧).

﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾، وحقَّت الحقائق كذبوا ونكثوا، ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ ﴾، أي: في الوفاء ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد: ٢١]، وهذا من الكلام المضمر.

فصار حبّ البقاء من الهوى، وصار إيثار الهوى إنما هو لحبّ البقاء، فكان ذلك حقيقة الدُّنيا، وكان أقصرُ الناس أملاً للبقاء أزهدَهم في الدُّنيا.

واعلم أنَّ الزهدَ يكونُ بمعنيين:

إن كان الشيءُ موجودًا فالزهد فيه إخراجه وخروج القلب منه، ولا يصح الزهد فيه مع تبقيته للنفس؛ لأنَّ ذلك دليل الرغبة فيه. وهذا زهد الأغنياء.

وإن لم يكن موجودًا، وكان العدم هو الحال، فالزهد هو الغبطة به والرضا بالفقد، وهذا هو زهد الفقراء. وكذلك القول في الزهد في ترك الهوى لا يصح إلَّا بعد الابتلاء به والقدرة عليه.

والسخاء من الزهد؛ لأنَّ السخاء وصف الزاهد، ولا يكون الزاهد إلَّا سخيًّا. والبخل وصف الراغب، ولا يكون الحريص إلَّا بخيلاً.

ولا يكون البخيل زاهدًا؛ لأنَّ الزهد يدعو إلى إخراج الشيء، والبخل يدعو إلى إمساكه. فنفس السخاء زهد؛ فلذلك ذمّ البخل لأنَّه رغبة في الدُّنيا. ثمَّ إنَّ الحرص علامة البخل؛ لأنه دليل الرغبة، والقناعة علامة السخاء؛ لأنها باب الزهد. فلذلك قيل: سخاء النفس عمّا في أيدي النفس أفضل من سخاء البذل.

ثُمَّ إنَّ العبدَ قد يجاهدُ نفسه على الزهد، كما يجاهدها على مخالفة

الهوى، وكما يجاهدها بالصبر على الحقِّ بأن يخرج المرغوب، وينفق المحبوب، على كراهة من النفس وحمل بالزهد عليها، فيكون له مقام في الزهد ينال البِرّ ويستوجب مدحًا من البرّ.

ثُمَّ إنَّ الدُّنيا هي نصيب كل عبدٍ من الهوى، وما دنا من قلبه من الشهوات، فمن زهد في نصيبه وملكه من هواه المذموم فهذا هو الزهد المفترض، ومن زهد في نصيبه من المباح ــ وهو فضول الحاجة من كل شيء ــ فهذا هو الزهد المفضل، يرجع ذلك إلى حظوظ جوارحه التي هي أبواب الدُّنيا منه وطرقها إليه.

فالزهد في محرماتها هو زهد المسلمين، به يحسن إسلامهم، والزهد في شبهاتها هو زهد الورعين، به يكمل إيمانهم، والزهد في حلالها من فضل حاجات النفس هو زهد الزاهدين، به يصفو يقينهم.

ومن الزهد في الدُّنيا حبُّ الفقرِ وأهلِه، ومجالسةُ المساكين في أوطانهم، والتذلُّل لهم، كما كان مطرّف رحمه الله تعالى يجالس المساكين في بزته يتقرَّب بذلك إلى ربّه.

ومن أفضل الزهدِ: الزهدُ في الرئاسَةِ على الناسِ، وفي المنزلة والجاه عندهم، والزهدُ في حبِّ الثناء والمدح منهم؛ لَأنَّ هذه المعاني هي من أكبر أبواب الدنيا عندَ العلماءِ، فالزهدُ فيها هو زهدُ العلماءِ.

كان الثوري رحمه الله تعالى يقول: الزهدُ في الرئاسةِ وَمَدْحِ الخلق أشدُّ من الزهدِ في الدينارِ والدِّرْهَمِ. قال: لأنَّ الدينار والدرهمَ قدْ يُبْذلانِ في طَلَبِ ذلك.

وقال الفضيل رحمه الله تعالى: نقل الصخور من الجبال أيسر من إزالة رئاسة قد ثبتت في قلب جاهل.

وكان يونس بن ميسرة الجيلاني يقول: ليس الزهادة في الدُّنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدُّنيا أن تكون بما في يد الله تعالى أوثقَ منك بما في يديك، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تُصَبْ بها سواء، وأن يكون ذامُّك ومادحُك في الحقِّ سواء.

وقال بعض العلماء: الزهد في الدُّنيا هو: موافقة العلم، والقيام بأحكام الشَّرع، وأخذ الشيء من وجهه، ووضعه في حقه، وما خالف العلم فهو هوى كله.

وهذا هو فرض الزهد وظاهره. وله دقائق تقدَّم بعضٌ منها. وفَّقنا الله وإياكم لما يحبُّ، وبلَّغنا ما نؤمِّل بفضله ورحمته، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليّ العظيم.

* * *

الفصل الرابع والعشرون
في شَرْحِ مَقامِ التَّوكُّل ووصفِ المُتوكِّلين وأنَّ التَّكسُّب والتَّصرُّفَ في المعائش لا يُنافي التَّوكُّل

التوكُّل من أعلى مقامات اليقين، وأشرف أحوال المُقرَّبين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فجعل المتوكِّل حبيبه، وألقى عليه محبَّته، وقال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال جلَّت قُدرته: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه ممّا سواه.

وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الإخلاص، والتوكُّل، والاستسلام للربّ عزَّ وجلّ.

فالمتوكِّل نظر إلى مولاه في كلِّ شيءٍ، ووَثِقَ به واعتمدَ عليْهِ دون كلِّ شيءٍ، فلا يَطمع في سواه، ولا يرجو إلاَّ إيَّاه، ولا يشهد في العطاء إلاَّ يده، ولا يرى في المنع إلاَّ حكمته، فلا يذمّ خلقًا لأجل أنه منعه، ولم يشكره لأنه أعطاه إلاَّ لأنَّ مولاه مدحه، وأمره بالشكر له تخلُّقًا بأخلاقه، واتِّباعًا لسنَّة رسوله ﷺ، فإن ذمّه أو مقته فلأجل مخالفته لمولاه بموافقته

هواه؛ لأنه تعالى قد مدح المُنفقين وذمّ الباخلين.

فحال المُتوكِّل سكون القلب عن الاستشراف إلى العبيد والتطلُّع، وقطع الهم عن الفكرة فيما بأيديهم من التطمُّع، عاكف القلبِ على المُدبّر، لا يحمله عدم الأسباب على ما حظره العلْم عليه وذمّه، ولا يمنعه أن يقول الحقَّ وأن يعمل به أو يوالي في الله ويعادي فيه جريانُ الأسباب على أيدي الخلق، فيترك الحق حياء منهم، أو طمعًا فيهم، أو خشية قطع المنافع المُعتادة، ولا تدخله نوازل الحاجات وطوارق الفاقات في الانحطاط في أهواء الناس والميل إلى الباطل، أو الصمت عن حقٍّ لزمه، أو يوالي في الله عدوًّا، أو يعادي وليًّا لِيَرُبَّ بذلك حالُه عندهم، أو يشكر بذلك ما أسدوه بالكف عنهم، ولا يَرُبُّ الصنعة التي قد عرف بها لنظره إلى الصانع، ولا يتصنَّع لمصنوع دخله لعلمه بسبق الصنع لدوام مشاهدته، ولا يسكن إلى عادة من خلق، ولا يثق بمعتاد من مخلوق؛ إذ قد أيقن برزقه ونفعه وضرّه من واحد. فهذه المعاني من فرض التوكُّل.

وقد قال بعض المقرَّبين في حقيقة التوكُّل لما سئل عنه، فقال: هو الفرار من التوكل. وكذلك قال قبله بعض العارفين في معنى قوله عزَّ وجلّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، فقال: المضطر الذي يقف بين يدي مولاه فيرفع إليه يديه بالمسألة فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئًا، فيقول: هب لي مولاي بلا شيء، فتكون بضاعته عند مولاه الإفلاس، ويصير حاله مع كل الأعمال الإفلاس، فهذا هو المضطر.

ومن التوكل المحبوب: الصبر على الأذى من القول والفعل، إذْ كان أُمِرَ بذلك الرسولُ ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا

يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩، ١٠]، مع قول الرسل عليهم السلام: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢]، وكذلك أَمَرَ نبيَّه عليه السلام لَمّا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمره باتِّباعهم. وقال: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٤٨]. وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال بعض العارفين: لا يثبت لأحد مقام في التوكُّل حتى يستوي عنده المدح والذم من الخلق فيسقطا، وحتى يؤذى فيصبر على الأذى. يستخرج بذلك منه رفع السكون إلى الخلق، والنَّظر إلى علم الخالق الذي سبق.

ثُمَّ التوكُّل عليه في تسليم الحكم والرضا به، ومنه قول يعقوب عليه السلام ــ حين سلَّم الحكم توكُّلاً على الوكيل الحاكم ــ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ﴾ [يوسف: ٦٧]. وكذلك التوكُّل عليه في تسليم الأقدار، حُلْوِها ومُرِّها، خيرِها وشرِّها من الله حكمة وعدل، كما قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شيءٍ بقضاءٍ وَقَدَرٍ حَتَّى العَجْزُ والكَيْسُ»(١). وكما قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٣]، فالعلم بهذه الأشياء وطمأنينة القلب بها وسكينة العقل عند ورودها، من فرائض الإيمان عندهم، لا يصح إيمان عبد حتى يسلم ذلك كله.

فأما فضل التوكُّل فإنه يكون عن مشاهدة الوكيل، كما قال العبد الصالح: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٥]، فظهرت منه قوَّة

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٤٥) من حديث ابن عمر.

عظيمة بقويٍّ، وأخبر عن عزيز بعزّ، فكأنه قيل: ولِمَ ذاك وأنت بشرٌ مثلنا ضعيف؟ فقال: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ [هود: ٥٦]، فكأنه سُئل عن تفسير توكُّله، كيف سببه؟ فأخبر بمشاهدة يد الوكيل آخذةً بنواصي دواب الأرض، فقال: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود: ٥٦]، ثُمَّ أخبر عن عدله في ذلك وقيام حكمته، وأنه وإن كان آخذًا بنواصي العباد في الخير والشرّ والنفع والضرّ، فإنَّ ذلك مستقيم في عدله، فقال: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى في فرض التوكُّل: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى في مثله: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال تعالى في فضله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ثُمَّ قال أبو طالب رحمه الله في ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعاني الحكمة: اعلم أنَّ الله عزَّ وجلّ ذو قدرة وحكمة، فأظهر أشياء عن وصف القدرة، وأجرى أشياء عن معاني الحكمة، فلا يسقط المتوكِّل ما أثبت من حكمته لأجل ما شهد هو من قدرته، مِنْ قِبَلِ أنَّ الله تعالى حكيم، فالحكمة صفته. ولا يثبت المتوكِّل الأشياء حاكمة جاعلة، نافعة ضارَّة، فيشرك في توحيده، مِنْ قِبَلِ أنَّ الله قادر، والقدرة صفته، وأنه لا شريك له ولا ظهير في أحكامه، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف: ٢٦]. وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢]، الظهير المعين على الشيء، فالمتوكل مع مشاهدته قدرة الله على الأشياء، وأنه منفرد بالتقدير والتدبير هو أيضًا عالم بوجود الحكمة في التصريف بإظهار الأسباب والأواسط.

ولا يضرّ التصرُّف والتكسُّب لمن صحَّ توكُّله، ولا يقدح في مقامه، ولا ينقص من حاله؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠]، ورُوي عن النبي ﷺ: «أَحلُّ ما أكلَ العبدُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ»[(١)].

وقد كانَ الصانعُ بيده أحبُّ إليهم من التَّاجر، والتَّاجرُ أحبُّ إليهم من البطَّال.

وقال ابن مسعودٍ: إنِّي لأَكرهُ أن يكون الرجلُ بَطَّالاً، ليس في عمل دنيا ولا في عمل آخرة.

ولأنَّ التوكُّلَ من شرط الإيمان، ووصْفِ الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]، فاشترط في الإيمان به والإسلام له التوكُّلَ عليه، فإن كان حالُ المتوكِّل التصرُّفَ فيما قد وجّه فيه، ودخل في الأسباب وهو ناظرٌ إلى المسبب في تصريفه، معتمدٌ عليه، واثقٌ به في حركته، متعيش فيما يسبِّبه له ويوجهه فيه، عالم بأنَّ الله تعالى قد أودع الأشياء منافع خلقه، وجعلها خزائن حكمته، ومفاتح رزقه، فهو في تكسُّبه وتصرُّفه أفضلُ ممَّن دخلت عليه العلل في توكُّله فساكَنَها.

فالتكسُّب خير من التشرُّف إلى الخلق واعتياد المسألة، وقد رُوي

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع البحرين» (١٩٤٤)، وفي «الكبير» كما في «مجمع الزوائد» (٤/ ٦١) بإسناد حسن عن ابن عمر قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ: أيُّ الكسب أفضل؟ قال: «عَمَلُ الرجُل بيدِهِ، وكل بيع مبرورٍ».

عن النبي ﷺ: «لأَنْ يأخذَ أحدُكم فأسَهُ وحبْلَهُ فيَذْهَبَ إلى الجبل فيَحتَطِبَ، فيأْكُلَ ويَتَصدَّقَ، خيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يسألَ الناسَ، أَعْطَوْهُ أَو مَنَعُوه»[1]، وقال ﷺ: «استَغْنُوا عن النَّاس ولو بِشُوصِ السِّواك»[2]، يعني: بمضغة، وقال: «مَن يضْمَنُ لي خَصْلةً واحدةً أضمنُ لهُ الجنَّةَ. لا يسألُ الناسَ شَيْئًا»[3].

قال أبو طالب: وقال بعض علمائنا: من أنكر التكسُّب فقد طعن في السُّنَّة، ومن أنكر القعود عن التكسُّب فقد طعن في التوحيد. وقال: بُعِثَ النبي ﷺ إلى الخلقِ وهم أصنافٌ ــ كما هم اليوم ــ منهم التاجر، والصَّانع، والقاعد، ومن يسأل، ومن لم يسأل الناس. فما قال للتاجر: اترك تجارتك، بل أمر بالغدوِّ والبكور في طلب الرزق. وجعل الساعي على عياله لِيُعِفَّهم أو أبويه الضعيفين في سبيل الله[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٣٥)، ومسلم (٤/ ٤٢١) من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٢) أخرجه البزار (٩١٣ ــ كشف)، والطبراني في «الكبير» (١٢٢٥٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٢٧) من حديث ابن عباس، وقال الحافظ العراقي (٤/ ٢١١): «إسناده صحيح». وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٩٤): «ورجاله ثقات».

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٥/ ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨١)، والنسائي (٥/ ٩٦)، وأبو داود (١٦٤٣)، وابن ماجه (١٨٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١٤٣٣ ــ ١٤٣٥)، من حديث ثوبان، وإسناده صحيح، وصححه المنذري في «الترغيب» (١/ ٦٣٣).

(٤) أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة «الكبير» (١٩/ ١٢٩) وفي «الأوسط» كما في «مجمع البحرين» (٢٨٦٢)، و «الصغير» (٢/ ٦٠)، من حديث كعب بن عجرة، وإسناده ضعيف؛ فيه إسماعيل بن مسلم المكي، ضعيف الحديث.

وقال سفيان الثوري: العالم إذا لم يكن له معيشةٌ صار وكيلاً للظلمة، والعابد إذا لم تكن له معيشةٌ أكل بدينه، والجاهل إذا لم تكن له معيشةٌ صار سفيرًا للفسَّاق.

وقد شرط النبي ﷺ للعطاء تركَ المسْألة والاستشراف[1]؛ تنزيهًا للفقراء، وردًّا لهم إلى الله تعالى؛ لأنَّ في مسألة العبد الفقير ذلًّا ذليلاً، وحرصًا على الدُّنيا جليلاً، وفي الاستشراف إلى العبيد طمعٌ في غير مطمعٍ، ونظرٌ إلى غير الله، وإتيانُ البيوت من غير أبوابها، وقال ﷺ: «من استغنى أغناهُ اللَّهُ، ومَنْ استعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ، ومن فتح على نفْسِهِ بابَ مسألةٍ فتحَ اللَّهُ عليه بابَ فقرٍ»[2].

فكأنَّ الفقراء الصَّادقين جُعِلَ لهم أخذ العطاء، بل نُدِبوا إلى قبوله عوضًا لهم من ذلك لمّا مُنِعوا من الاستشراف والسؤال تنزيهًا لهم وتفضيلاً، فمَثَلُهم في ذلك مَثَلُ أهل البيت، جُعِلَ لهم خُمْسُ الخُمُسِ من الغنائمِ لَمّا حُرِّمت عليهم الصَّدقة؛ تفضيلاً لهم وتشريفًا.

---

(١) أخرج البخاري (١٣/ ١٥٠)، ومسلم (٢/ ٧٢٣) عن عمر رضي الله عنه قال: قد كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطِهِ أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرَّة مالاً، فقلت: أعطِهِ أفقر إليه مني، فقال رسول الله ﷺ: «خُذهُ، وما جاءَكَ مِنْ هذا المالِ وأنت غَيْرُ مُشْرِفٍ ولا سائلٍ، فَخُذْهُ، وما لا فلا تُتْبِعْه نَفْسَكَ». «غَيْرُ مُشْرِفٍ» أي غير مُتطلع إليه، ولا طامع فيه.

(٢) الشطر الأول من الحديث أخرجه البخاري (١١/ ٣٠٣)، ومسلم (٢/ ٧٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري، وأما الشطر الثاني من الحديث وهو قوله: «ومن فتح...»، أخرجه بنحوه أحمد (٢/ ٤١٨)، وابن حبان (٣٣٨٧) من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن.

وهذا كلّه يحسُن في حال المنْفَرد، فأمَّا ذو العيال فالأمر عليه واسعٌ من ذلك، ولا بأس أن يأخذ لعياله كما يأخذ لأجل غيره من الناس؛ لأنَّ عياله عيال الله عنده، قد وكَّله بهم وأجرى أرزاقهم على يده، فإنْ طلب لهم وحثَّ على استخراج حقّهم ممّا أوجب الله لهم، لم ينقص ذلك من حاله.

وآخى رسول الله ﷺ بين سعد بن الرَّبيع وبين عبد الرحمن بن عوف، فقال له سعد: أُشاطِرُكَ مالي وأهلي. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك. دُلّوني على السُّوق. فعمل يومه ذلك، فراح بشيء من سمْن وأَقِط(١). فلو كان التكسُّب في الأسواق ينقص التوكُّل لم يختر عبد الرحمن ـ وهو إمام الأئمة ـ ما ينقص توكُّله، ولكنه أراد إدخال المشقَّة على نفسه، واختار إيثار أخيه بما أبرَّه به رعاية لحقِّ أُخُوَّته، ولأنَّ الله تعالى قد ندب إلى الإيثار ووصف به الأحباب.

وأعلى من عبد الرحمن مقامًا إمام الأئِمَّة أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، لمَّا بويع بالخلافة، أخذ الأثواب تحت حضْنه ودخلَ السُّوق ينادي ـ هذا في أتمِّ أحواله، حين أُهِّل للخلافة وأقيم مقام النبوَّة ـ حتى اجتمع المسلمون، فكرهوا له ذلك، فقال: لا تُشغلوني عن عيالي، فإنِّي إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع، حتى فرضوا له قوتَ أهل بيتٍ من المسلمين، لا وَكْسَ ولا شَطَط، فلما رضوا جميعًا بذلك وأنفقوا عليه، ترك السوق لشغله بهم وبأمورهم، ألا تراه كيف آثر القيام بحقِّه؟ وما أوجب الله عليه لأهله؟ وتواضع لله في حال رفعته وأسقط الخلق عن عينه؟ حتى كره المسلمون ذلك! فتركه بحكم ثان.

---

(١) أخرجه البخاري (٩/١١٦) من حديث أنس.

وقد كان بعض علماء السلف يجتمع إليه الناس للكلام عليهم، فكان يقول: لو أعلم أنَّ أهلي يحتاجون إلى باقة بقل ما تكلَّمت عليكم.

ففي هذا بيان وبرهان لمن لم تستهوه الأهواء في إنكار التكسُّب على أهل التوكُّل احتجاجًا لنفسه واعتذارًا من بطالته، ولا يسع العلماء في الدِّين إلاَّ البيان، وكشف حقيقة العلم بالبرهان.

فالتكسُّب والأسبابُ طرقٌ أودعها اللّـهُ العطاءَ والأرزاقَ، لا هي تُعطي وتَرزق، بمنزلة الأواسطِ من الأشخاصِ.

فالمُتوكِّل المتسبِّب موقنٌ أنَّ الله سبحانه هو المعطي والمانع، وأنَّه هو المسبِّب الرازق، فقلبُه ناظرٌ إلى مولاه، وجسمه متحرِّكٌ فيما سبّب له.

والذي ينقص المتوكِّل ويخرجه من حدِّ التوكُّل اكْتسابُ الشُّبهات للاستِكْثار، أو السعْيُ بالتكسُّب للجمْعِ والافتخارِ، أو الحرص على طَلَبِ ما حظره العِلْمُ عليه. فهذا كله لا يصحّ معه التوكُّل.

ولا يضرّ الادِّخار مع صحَّة التوكُّل إذا كان مدَّخرًا لله موقوفًا على رضا مولاه، لا لحظوظ نفسه وهواه، بل لحقوق الله التي أوجبها عليه، فإذا رآها بذل ماله فيها.

ومن ادَّخَرَ لصلاح قلبه، وتسكين نفسه وقطع تشرُّفه إلى النَّاس، فالادِّخار له أفضل.

وكذلك من ادَّخَر لعياله لتسكن قلوبهم، ولوجود رضاهم عن الله وسقوط حكمهم عنه، فهو فاضل في ادِّخاره؛ لأنه في ذلك قائم بحكم ربّه، راعٍ لرعيَّته التي هو مسؤول عنها.

ولا ينقص التَّداوي أيضًا توكُّلَ العبد؛ لأنَّ النبـي ﷺ أمر به وأخبر عن حكمة الله تعالى فيه، فقال ﷺ: «ما من داءٍ إلَّا وله دواءٌ، عَرَفَهُ من عَرَفه وجهِلهُ من جهله، إلَّا السَّام ــ يعني الموت ــ»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «تداوَوْا عباد الله»[2].

وسُئِلَ عن الدواء والرُّقى: هل يردّ من قدَرٍ؟ فقال: «هي من قدَرِ الله»[3].

وفي الخبر المشهور: «ما مررتُ بملأٍ من المَلائِكَةِ إلَّا قالوا: مُرْ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٧، ٤١٣، ٤٥٣)، والحميدي (٩٠)، وابن ماجه (٣٤٣٨) مختصرًا، والحاكم (٤/ ١٩٦، ١٩٧)، من حديث ابن مسعود، ولفظه: «ما أنْزَلَ الله داءً، إلَّا وقد أَنْزَلَ له شفاءً، عَلِمَهُ من عَلِمَهُ، وجَهِلَهُ من جَهِلَهُ» وحسنه الحافظ ابن حجر في «بذل الماعون في فضل الطاعون» (ص ١٠٦)، وصححه الحافظ البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ١١٥) وهو كما قال.
وأخرجه ابن أبـي شيبة في «المصنف» (٨/ ٢)، والبزار (٣٠١٦) ــ واللفظ له ــ والحاكم (٤/ ٤٠١)، من حديث أبـي سعيد الخدري مرفوعًا: «ما أنزل الله من داءٍ، إلَّا قد أنزل له دواء، عَلِمَ ذلك من عَلِمَه، وجَهِلَ ذلك من جهله، إلَّا السَّام» قالوا: يا رسول وما السَّام، قال: «الموت» وإسناده حسن في الشواهد.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩١)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٩)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، من حديث أُسامة بن شريك، وإسناده صحيح كما قال الحافظ البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ١١٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢١)، والترمذي (٢١٤٨)، وابن ماجه (٣٤٣٧) من حديث أبـي خزامة عن أبيه به، وهو حديث مختلف في إسناده، كما قال الحافظ ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٦٤٠)، وأورده ابن أبـي حاتم في «العلل» (٢/ ٣٣٨)، والدارقطني في «العلل» (٢/ ٢٥١).

أُمَّتَكَ بالحجَامَةِ»(١).

والتَّداوي رُخصة وسعةٌ، وتركهُ ضيق، واللَّهُ يُحِبُّ أن يُؤخذَ برخصه؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨]، أي: ضيق.

وربما كان المتداوي فاضلاً في ذلك؛ لمعنيين: أحدهما: أن ينوي اتِّباعَ السُّنَّة، والأخذَ برخصة الله، وقَبولَ ما جاءت به الحنيفيّة السمحة، وقد أمر رسول الله ﷺ غير واحد من الصحابة بالتَّداوي والحِمية، وقال لعلي رضي الله عنه ـ وكان رمد العين ـ: «لا تَأْكُل من هذا» ـ يعني الرطب ـ «وكل من هذا، فإنَّه أَوْفَقُ لَكَ»(٢) ـ يعني سِلْقًا قد طُبِخَ بدقيق أو شعير.

وقد تداوى رسول الله ﷺ في غير حديث؛ وفي الخبر أنه: «كان إذا

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٧٩)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٠٨٤)، من حديث أنس، وإسناده ضعيف، ولكن الحديث حسن بشواهده التي منها عند الترمذي (٢٠٥٢) من حديث ابن مسعود، وأحمد (١/ ٣٥٤) من حديث ابن عباس، وانظر: «مجمع الزوائد» (٥/ ٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٤)، وأبو داود (٣٨٥٦)، والترمذي (٢٠٣٧)، وابن ماجه (٣٤٤٢)، من حديث أم المنذر بنت قيس، وإسناده حسن، وليس فيه أن عليًا كان به رمد، وإنما فيه: وعَلِيٌّ ناقهٌ مِن مرض...
وإنما الذي به رمدٌ هو صهيب بن سنان حيث قال له النبي ﷺ: «أَتَأْكُلُ وبِكَ رمدٌ»؟ فقلت يا رسول الله: أَمضغ من الناحية الأُخرى، فتبسم رسول الله ﷺ.
أخرجه ابن ماجه (٣٤٤٣)، وصححه الحافظ البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ١١٦).

خرجت به قُرْحة جعل عليها حِنَّاء»[1]، وهو أعلى المتوكِّلين، فلا نرغب عن سنَّته، ولا نزهد في بغيته.

ولا ينقص توكُّلَ المتوكِّلِ إخبارُه بعلَّته على معنى التحدُّث بها، إذا كان قلبُه شاكرًا لله راضيًا بقضائه، ويكون بذلك مُظهرًا للافتقار بين يدي مولاه، أو راغبًا في دعاء إخوانه المؤمنين، أو يشهد ذلك نعمة فيحدِّث بها شكرًا.

وليحذر من دخول الآفات عليه في الإخبارِ من التصنُّع، أو الشكوى، أو التزيُّد في العلَّة، وغير ذلك. وقد قيل في قوله عزَّ وجلّ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]، قال: لا شكوى فيه.

وكانوا يكرهون أنين المريض؛ لأنه إظهار معنًى يدلّ على شكوى. وكذلك كره بعض العُبَّاد العيادةَ خشية الشِّكاية، وخوف الزيادة في القول أن يخبر عن العلَّة بأكثرَ منها. وقال فُضيل: ما أكره العلَّة إلَّا لأجل العوَّاد.

ولا ينقص المتوكِّلَ على الله تعالى مسألةُ مولاه فيما أحبّ من صالح الدنيا ومزيد الآخرة، ولا يقدح في التوكُّل تشرفُ المتوكِّل إلى رزقه؛ لأنَّه خُلِق ضعيفًا ذا فاقة، ورزْقُه معلومٌ لا بدَّ منه، والمعلوم مقسوم، فتشرُّفه إلى القَسَمِ تشرُّف منه إلى القاسِم تعالى.

ولا يُخرجه من التوكُّل مطالعتُه للعِوض على معامَلتِه من جزاءِ الآخرة؛ لأنه قد شُوِّق إلى ذلك وندب إليه.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥٤)، وابن ماجه (٣٥٠٢)، من حديث سلمى، وإسناده ضعيف؛ فيه علي بن عبيد الله.

الفصل الخامس والعشرون

في أَحكامِ مَقام الرِّضا

الرِّضا عن الله تعالى من أعلى مقاماتِ اليقين باللَّـهِ، وقد قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فمَنْ أحسَنَ الرِّضا عن الله سبحانه جازاه الله بالرِّضا عنه، فقابل الرِّضا بالرِّضا، وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء، وهو قوله عزَّ وجلّ: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقد رفع الله الرضا على جنات عدن، وهي من أعلى الجنات، كما فضَّل الذِّكر على الصلاة، فقال تعالى: ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ﴾ [التوبة: ٧٢]. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والذِّكر عند الذَّاكرين: المشاهدَةُ، فمشاهدَةَ المذكور في الصَّلاة أكبر من الصَّلاة، وهو أحد الوجهين. والوجه الثاني: ذكر الله للعبدِ أكبر من ذكر العبد لله.

فالراضون عن اللَّـهِ عزَّ وجلّ هُم: الذَّاكرون للَّـهِ بما يحبُّ ويرضى.

فمن الرِّضا سرورُ القلب بالمقدورِ في جميعِ الأمورِ، وطيبُ النفس وسكونُها في كلِّ حالٍ، وطمأنينةُ القلب عندَ كلِّ مُفْزِعٍ مُهْلِـعٍ من أمور

الدُّنيا، وأنِ لا يشكوَ ربَّه إلى عبدِه، ولا يتبرَّمَ بفعله وقضائه.

وقد حُكي أنَّه اجتمع ذات يومٍ وهيبُ بن الورد، وسفيانُ الثوريّ ويوسفُ بن أسباطٍ، فقال الثوريّ: قد كنتُ أكره موت الفجأةِ قبل اليومِ، فأما اليوم فوددت أنِّي متُّ، فقال له يوسف: ولِمَ؟ قال: لِمَا أتخوَّف من الفتنة. فقال يوسف: لكنِّي لا أكره طول البقاء. فقال الثوري؟ ولِمَ تكره الموت؟ قال: لَعَلِّي أصادف يومًا أتوب فيه، وأعمل صالحًا، فقيل لوهيب: أيَّ شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا؛ أحبُّ ذلك إليَّ أحَبُّه إلى الله. قال: فَقَبَّل الثوريُّ ما بين عينيه، وقال: روحانيةٌ وربِّ الكعبة. يعني: مقام الروحانيِّين، وهم المقرَّبون، أهل الرَّوح والرَّيحان، وأولو المحبَّة والرِّضوان.

فإن ذمَّ هذا الراضي ما ذمَّه الله وكرهَ ما كرههُ الله، لم ينتقص ذلك رضاه، وكان محسنًا في فعله؛ لموافقته مولاه. وهو في جميع ذلك موافق للعلم. والله تعالى أعلم بأحكامه من العبد، فهو يشهد أحكامه، ويذمُّ المحكوم عليه؛ إذ تعدَّى حدود أمره، وينفذ علمه بمشيئته، ويمقت العاصين له باجتراح نهيه، حكمة منه وعدلاً. كما أنه يشهد يده في العطاء، ويمدح المنفقين، ويمضي إرادته بالقضاء بتوفيقه، ويشكر العاملين كرمًا منه وفضلاً. كذلك الراضي عنه موافقٌ فيما حكم، ومتَّبعٌ له فيما رسم، ومسلِّمٌ له فيما قدّر، وعالم منه راضٍ بما دبّر، ومستعمل لما شرع، ومواطئٌ لرسوله؛ يذم ما ذمّه مولاه، ويمدح ما مدحه لأجل مولاه، لا لأجل نفعه إياه.

والتَّحدُّث بالأوجاع والإخبار عن المصائب لا ينقُص حال الراضي

إذا رآها نعمة من الله عليه، وكان القلب مسلِّمًا راضيًا، غيرَ متسخِّطٍ ولا متبرِّمٍ بمُرّ القضاء.

وقد غَلِطَ في باب الرضا بعضُ البطَّالين من المتأخِّرين ممَّن لا علم له ولا يقين، فحَمَلَ الرِّضا على جميع ما يكون منه، من معصية وهوى؛ لجهله بالتفصيل، وقلَّة فهمه بعلم التأويل، ولاتِّباعه ما تشابه من التنزيل، طلبًا للفتنة وغربة الحال، وابتداعًا في القول والفِعال؛ لأنَّ أوقاته قد ذهبت، فلا يذهب وقت غيره بذكرها، وبطلان هذا عند العلماء أظهر من أن يدلّ على فساده.

والاشتغال بالبَطّال بطَالة، وإنَّما الرِّضا فيما كان غير مخالفة لله ولا معصية، مثل ما يكون من نقص الدُّنيا ونقص الأموال والأنفس من الأهل والولد، وفيما على النفس فيه مشقة ولها منه كراهة، وفيما كان مزيدًا في الآخرة لا عقوبة فيه من الله ولا وعيد عليه ولا ذمّ لفاعليه.

ومجمل ما ذكرناه أنَّ الرِّضا لا يصحُّ إلَّا فيما يحسُنُ الصبْر عليه والشكر عليه؛ لأنَّ الرضا مقامٌ فوق الصبر والشكر.

فأمَّا إن كان العبد على نقصان من الدِّين، وفي مزيد من الدُّنيا، ثُمَّ رضي بحاله، فرضاه بحاله شرٌّ من أعماله؛ لمخالفته الأمر، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى

ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: ٦١]، فندب إلى المسارعة والسوابق، وذمّ التخلُّف عنها والتثبُّط بالعوائق. فعلى هذا طريق المؤمنين.

وقد حُكي: أنَّ السريَّ السقطِيَّ رحمه الله تعالى بلغه أنَّ الحريق وقعَ في سوقه فأحرق دكَّانه، فخرج في قِطْع من الليل، فاستقبله قوم، فقالوا: يا أبا الحسن، احترقت دكاكين الناس إلاَّ دكانك، فقال: الحمد لله. ثُمَّ تفكَّر في ذلك ـ أي: في كلمة الرضا التي ظهرت منه في موضع الاسترجاع للمصيبة ـ فقال: قلت: الحمد لله، في سلامة مالي، وهَلَكَ أموالُ إخواني المسلمين، فتصدَّق بجميع ما كان في دكانه من السقط والآلة كفارةً لكلمته هذه، وخرج من السوق. ونُقل عنه أنه كان يقول: قلت كلمة، فأنا أستغفر الله منها ثلاثين سنة. يعني: قوله: الحمد لله.

وقد جاء في الخبر: «مَنْ لَمْ يَهْتم بأمر المسلمين فليس من المسلمين»[1].

وفي الخبر المشهور: «أوثق عُرَى الإيمان الحبُّ في الله والبُغْضُ فيه»[2]. فجعل ذلك من أوثق العرى؛ لأنَّه منوط بالإيمان، لا يستطيع

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع البحرين» (١٠١)، وفي «الصغير» (٢/ ٥٠)، والحاكم (٤/ ٣١٧)، من حديث حذيفة بن اليمان، وضعفه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦)، وابن أبي شيبة في كتاب «الإيمان» (١١٠)، وابن نصر في كتاب «تعظيم قدر الصلاة» (٣٩٣)، من حديث البراء بن عازب، وإسناده ضعيف؛ فيه ليث بن أبي سليم، ضعيف لاختلاطه، إلاَّ أن له شاهدًا من حديث ابن مسعود: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١١)، وقال فيه =

الشيطان حلّه، ولا سلطان له عليه؛ لأنَّ الله تعالى تولى تأييد الإيمان بروحه بعد كَتْبه في القلوب برحمته.

وفي الحب في الله الموالاة والنصرة بالنفس والمال والفعل والمقال، وفي البغض في الله ترك ذلك.

فبغض الفاجر المجاهر، والظالم المعتدي، وترك موالاتهم ونصرتهم واجب على المؤمنين، فلأجل ذلك صارت الموالاة لأولياء الله، والمعاداة لأعدائه من أوثق عرى الإيمان.

وفي الخبر: «المرءُ مع من أحبَّ، وله ما احتسب»[1]، وفي حديث آخر: «مَن أحبَّ قومًا ووالاهم في الدنيا جاء معهم يوم القيامة»[2].

وفي معنى قوله: «أَوْثق عُرى الإيمان الحُب في الله والبغض فيه» وجه خفيّ، هو أنْ يحبّك المؤمنون، ويبغضك المنافقون، فيكون ذلك علامة وثيقة عرى إيمانك؛ لأنَّ قوله: «الحب في الله» يصلح أن يبغضك

= الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦٠، ٢٦١): «رجاله رجال الصحيح غير بكير بن معروف وثقه أحمد وغيره وفيه ضعف»، وله شاهد آخر من مرسل عمرو بن مرة. أخرجه وكيع بن الجراح في «الزهد» (٣٢٩)، فيكون الحديث حسنًا لغيره.

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٥٧٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٤) من حديث ابن مسعود دون قوله: «وله ما احتسب». وهي عند البيهقي في «الشعب» (٨٥٩٦)، من حديث أنس بسند جيد.

(٢) أخرجه بنحوه الخطيب في «تاريخه» (٥/ ١٩٦)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٣٥٠)، من حديث جابر، وإسناده ضعيف جدًا؛ فيه إسماعيل بن يحيى التيمي، متروك، كما قال الدارقطني، وبه أعله ابن الجوزي والحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٣٥٢).

المنافقون كما تبغضهم أنت، فكأنَّك تتحبَّب إلى المؤمنين حتَّى يحبُّوك، وتتبغَّض إلى المنافقين حتى يبغضوك، بإظهار التباعد عنهم وبترك الممالأة لهم، وبنصحك إيّاهم، فيدل ذلك على قوَّة إيمانك، لم تأخذك في الله لومةُ لائم منهم، كما وصف تعالى بذلك من يحبّهم ويحبُّونه، ويكون ذلك أبعدَ لك من المداهنة والنفاق، وأقربَ إلى الورع والإخلاص، فإذا فعلتَ ذلك بهم أبغضوك أو مقتوك.

وقد جعل الله من أراد أن يحبَّه الفاسقون ويأمن فيهم، وجعل من يسارع بالإدْهان، وإظهار المتابعة للظالمين، خشية دَوْر الدوائر عليه علمين من أعلام النفاق، فقال سبحانه: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟﴾ [النساء: ٩١]، وقال تعالى في المعنى الثاني: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، يعني المنافقين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾، يعني: يواطؤون الكافرين سرًّا ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، أي: نخاف أن تكون الدولة للكافرين على المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢]، فينبغي لمن آمن في المؤمنين وأحبّوه أن يخاف في المنافقين وأن يبغضوه. وينبغي لمن سارع في مواطأة المؤمنين أن يَني ويُبطىء في مداهنة الظالمين ومتابعتهم، حتى يَخْلَصُ له إيمانُه من النفاقِ، وتستقيمَ طريقُه من الضلال.

فأمَّا من قال من الجاهلين بأنَّ الرضا قد يكون بالمعاصي منه أو من سواه، كما يكون في الطاعات، فقد جعل المعاصي والمخالفات من القربات، وسوَّى بينهما، وفي هذا هدم شرائع الأنبياء، وإبطال تفصيل ما أحلَّ الله لنا ممّا حرَّم علينا، وما أمرنا به ممّا نهانا عنه.

ومن سكن بلدًا كثير المنكر ظاهر المعاصي، فكان منزعجًا فيه غير مطمئنٍّ إليه، يرغب إلى الله عزَّ وجلّ في إخراجه منه لحسن اختياره له، وكان مضطرًّا في المقام فيه لعيْلةٍ ثقيلةٍ أو قلَّةِ ذاتِ يدٍ حقيقةٍ لا يستطيع حيلةً في الخروج، ولا يعرف طريقًا هو على يقين من سلامة دينه فيه؛ فإنه معذورٌ عند الله لحسن تفضُّل من الله، وهو أقرب إلى العفو والسلامة ممَّن اغتبط بمقامه واطمأنَّ ورضي بحاله، أو كان مقامُه على هوىً، أو لاختلاف أسباب الفتنة والدُّنيا.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ [النساء: ٩٧]، وفي التفسير: إذا كنت في بلد يعمل فيه بالمعاصي فتَحَوَّلْ منه إلى غيره. ثُمَّ قال تعالى في قوم من المستضعفين عَذَرَهُم وأرجأ إلى العفو أمرهم: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ﴾ [النساء: ٧٥]. وقال تعالى في تمام وصفهم، واستثنائهم من غيرهم: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩].

* * *

الفصل السادس والعشرون

في أحكامِ المَحَبَّةِ وَوَصْفِ أَهْلها

المحبة من أعلى مقامات العارفين، وهي إيثارٌ من الله تعالى لعباده المخلصين، ومعها نهايةُ الفضل العظيم؛ قال الله جلَّت قدرته: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ثُمَّ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا الخبر متصلٌ بالابتداء في المعنى؛ لأنَّ الله تعالى وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم، وما اعترض بينهما من الكلام فهو نعت المحبوبين.

فكلُّ مؤمن بالله فهو محبٌّ للّـه، ولكن محبَّته على قدر إيمانه؛ دليل ذلك استجابته له بالتوحيد، والتزام أمره، وتسليم حكمه، فليس ذلك يكون إلاَّ عن محبته.

وقد وصف الله المؤمنين بشدَّة الحبّ له، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي قوله: ﴿أَشَدُّ﴾ دليل على تفاوتهم في المحبَّة؛ لأنَّ المعنى أشد فأشد. وجعل رسول الله ﷺ الحبَّ للّـه من شرط الإيمان، قال: «أن يَكون اللّـهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مِمّا سِواهما»(١). وفي خبر آخر قوله: «واللّـهِ لا يُؤمن العبد حتَّى أكونَ أحبَّ إليه من أهلِهِ ومالِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٣١٥)، ومسلم (١/ ٦٦) من حديث أنس.

والناس أجمعين»[1]. وفي خبر آخر: «ومن نفسك»[2].

وقد أمر ﷺ بالمحبَّة للَّه فيما شرَعه منَ الأحكام، فقال: «أحبُّوا الله لِمَا أسدى إليكم من نعمه، وأحبُّوني لحبّ الله»[3]. فدلَّ ذلك على فرض الحبِّ للَّه، وإنْ تفاضلَ المؤمنون في نهايات فضائله.

والمحبُّون للَّه على مراتب من المحبة بعضها أعلى من بعضٍ، فأشدُّهم حبًّا للَّه أحسنهم تخلُّقًا بأخلاقه ـ مثل العلم والحلم والعفو وحسن الخلق والستر على الخلق ـ وأعرفهم بمعاني صفاته، وأتركهم مُنازعةً له في معاني الصفات؛ كي لا يشركه فيها ـ مثل: الكبر وحب المدح وحب العزّ ـ. ثُمَّ أشدّهم حبًّا لرسوله؛ إذ كان حبيب الحبيب، وأتبعهم لآثاره أشبعهم هديًا لشمائله.

ومن علامةِ المحبَّةِ: كثرةُ ذكرِ الحبيب، وهو دليلُ محبَّةِ المولى لعبده، وهو من أفضل منَّته على خلقه. وقد أُمِرنا بكثرة الذكر للَّه كما أُمِرنا بمحبة الله.

وقد شرط الله لحقيقة الصدق القتالَ في سبيله، وأخبر أنه يحبُّ ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصف: ٤]، بعد قوله تقريرًا لهم: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٨)، ومسلم (١/ ٦٧) من حديث أنس.

(٢) أخرج البخاري (١١/ ٥٢٣) عن هشام بن عبد الله قال: «كُنّا مع النبـي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال عمر: يا رسول الله، لأنتَ أَحبُّ إليَّ من كُلِّ شيء إلاَّ من نفسي. فقال النبـي ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسك. فقال عمر: فإنه الآن واللَّـهِ لأَنتَ أَحبُّ إلي من نفسي، فقال النبـي ﷺ: «الآن يا عمر».

(٣) تقدم (ص ١٤١).

تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢]، حيث قالوا: إنا نحب الله. فجعل القتل محنة محبّته، إذ يقول تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

وفي وصية أبـي بكر لعمر رضي الله عنهما: الحقّ ثقيلٌ وهو مع ثقله مريء، والباطل خفيفٌ وهو مع خفّته وبيءٌ، فإن حفظتَ وصيّتي لم يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت وهو مدركك، وإن ضيَّعت وصيَّتي لم يكن غائبٌ أبغضَ إليك من الموت ولن تعجزه.

ورُوي أنَّ أبا حذيفة بن عتبةِ بن زمعة لمّا تبنَّى سالمًا مولاه، عاتبته قريش في ذلك، وقالوا: أنكحتَ عقيلةً من عقائل قريشٍ بمولى؟! فقال: والله، لقد أنكحته إيّاها وإنِّي لأعلم أنَّه خيرٌ منها. فكان قوله في ذلك أشدّ عليهم. قالوا: وكيف، وهي أختك وهو مولاك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن ينظر إلى رجل يحبّ اللّٰهَ بكلِّ قلبه فلينظر إلى سالم»[1]. فمن الدَّليل أنَّ مِن المؤمنين مَن يحبّ اللّٰهَ ببعض قلبه فيؤثره بعض الإيثار، ويوجد فيه محبَّة الاعتبار.

ومنهم من يحبّه بكلِّ قلبه فيؤثره على ما سواه، فهذا عابده ومألوهه الذي لا معبود له ولا إلـه إلاَّ إيَّاه.

وقد كان نُعيمان يؤتى به رسولَ الله ﷺ فيَحِدُّه في معصية يرتكبها، إلى أن أُتِي به يومًا فحدَّه، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به رسولَ الله ﷺ. فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تفعل، فإنَّه يُحبّ اللّٰـه

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/٣٣١): «لم أره من حديث حذيفة، وروى أبو نعيم في «الحلية» المرفوع منه من حديث عمر: «أن سالمًا يُحب الله حقًّا من قلبه» وفيه ابن لهيعة، وعليه فيكون السند ضعيفًا.

ورسوله»[1]. فلم يخرجه من المحبّة مع المخالفة.

وقد قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب ــ يعني: على الفؤاد ــ كان المؤمن يحبُّ اللّٰهَ حبًّا متوسّطًا، فإذا دخل الإيمان باطنَ القلبِ فكان في سويدائِه أحبَّه الحبَّ البالغ. ومحبّة ذلك أن ينظر، فإن كان يؤثر الله على جميع هواه، ويُغَلِّبُ محبَّته على هوى العبد حتى تصير محبّة الله هي محبّة العبد من كل شيء، فهو محبّ لله حقًّا، كما أنَّه مؤمن به حقًّا، وإن رأيتَ قلبك دون ذلك فلك من المحبّة بقدر ذلك. فأَدَلَّ علامات المحبّة الإيثار للمحبوب على ذخائر القلوب؛ ولذلك وصف الله المحبّين بالإيثار، ووصفه العارفون بذلك، فقال تعالى في وصفه المحبين: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ومحبّة الإسلام مفترضة على الخلق، وهي متّصلة بأداء الفرائض واجتناب المحارم؛ طاعةً للّٰه ومحبّة له.

واعلم أنَّ المحبّة من الله لعبده ليست كمحبّة الخلق؛ إذ محبّة الخلق تكون حادثةً لأحد سبع معانٍ: لطبعٍ، أو جنسٍ، أو لنفعٍ، أو لوصفٍ، أو لهوًى، أو لرحم ماسَّةٍ، أو لتقرب بذلك إلى الله.

فهذه حدود الشيء الذي يشبهه الشيء، والله تعالى يتعالى عن جميع ذلك لا يوصف بشيء منه؛ إذ ليس كمثله شيء في كل شيء.

وإنما تستبين المحبّة وتظهر للعبد لحسن توفيقه، وكلاءة عصمته،

---

(١) أخرج نص الحديث البخاري (١٢/ ٧٥) من حديث عمر بن الخطاب، أما هل هو نعيمان أو ابن النعيمان، فانظر «فتح الباري» لابن حجر (١٢/ ٧٧).

ولطائف تعليمه من غرائب علمه، وخفايا لطفه في سرعة ردّهم إليه في كلِّ شيء، وكثرة استعمالهم لحسن مرضاته.

ومن دلائل المحبّة: حُب كلام الحبيب وتكريره على الأسماع والقلوب، وقد كان ابن مسعود يقول: لا على أحدكم أن يسأل على نفسه إلاَّ القرآن، فإن كان يحبّ القرآن فهو يحبّ الله، وإن لم يكن يحبّ القرآن فليس يحبّ الله.

ومن علامة حبّ القرآن: حبّ أهل القرآن، وكثرة تلاوته آناء الليل وأطراف النهار.

وقال سهل بن عبد الله: علامة حبّ الله حبّ القرآن، وعلامة حبّ القرآن وحبّ الله حبّ النبـي عليه السلام، وعلامة حبّ النبي عليه السلام حبّ السُّنَّة، وعلامة حبّ السُّنَّة حبّ الآخرة.

ومن علامة محبَّة المولى: تقديم أمور الآخرة من كل ما يقرب من الحبيب على أمور الدُّنيا من كل ما تهوى النفس، والمبادرة بأوامر المحبوب قبل عاجل حظوظ النفس، ثُمَّ إيثار محبَّته على هواك، واتِّباع رسوله ﷺ فيما أمرك به ونهاك، والذلّ لأوليائه من العلماء به والعاملين، ثُمَّ التعزُّز على أبناء الدُّنيا الموصوفين بها المؤثرين لها؛ كما قيل لابن المبارك: ما التواضع؟ فقال: التكبُّر على المتكبِّرين.

ومن علامات الحبّ: المجاهدة في طريق المحبوب بالمال والنفس؛ ليقرب منه ويبلغ مرضاته، ويقطع كل قاطع يقطعه عنه بالمسارعة إلى قربه، كما قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٨٤]، وكما أمر حبيبه ﷺ في قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل: ٨]، فيه معنيان: أحدهما: انقطع إليه انقطاعًا عمّا

سواه بالإخلاص له والأثرة على غيره، والأُخرى: اقطع كل ما قطعك عنه إليه، أي: اقطع كل قاطع حتى تصل إليه. فهذان من أدلّ الدليل على المحبّة.

ثُمَّ أن لا يخاف في حبّه لومةَ لائمٍ من الخلق لامه على محبّته أو على السلوك إليه بشقّ النفس، وهجران الدار، ورفض المال.

ولا يرجو في محبّته مدح مادح، ولا يرغب في حسن ثناء العباد بإيثارك له على الأهل والمال.

ومن المحبّة التناصحُ بالحقِّ، والتواصي به، والصبرُ على ذلك، كما وصف تعالى الرابحين من الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٢، ٣]؛ لأنَّ المحبِّين ليسوا كمن وصفه في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [محمد: ٣٦، ٣٧]، يعني: إن يسألْكم محبوبَكم من الأموال، ويستقصي عليكم، يُخْرِجْ أحقادكم عليه.

ومن المحبَّة أن لا يهوى إلاَّ ما فيه رضا المولى، وذلك بدوام الصَّلاة، وحُسن الأدب بين يديه، والأمر بما يحبّ والنهي عما يكره، والحفظ لحدوده التي حدَّها: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤].

* * *

الفصل السابع والعشرون

في ذِكْرِ دَعائِمِ الإِسلامِ الخَمْسِ التي بُنِيَ عليها

أول ذلك فرض شهادة التوحيد، وهي شهادة المقرَّبين، وشهادة الرسول ﷺ؛ قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقال لعباده يأمرهم بمثل ذلك: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤].

ففرضُ التوحيد هو اعتقاد القلب أنَّ الله تعالى واحدٌ لا من عدد، وأوَّلٌ لا ثانيَ له، موجودٌ لا شكَّ فيه، وحاضرٌ لا يغيب، وعالمٌ لا يجهل، قادر لا يعجز، حيٌّ لا يموت، قيُّوم لا يغفل، حليمٌ لا يسفه، سميعٌ بصيرٌ، ملكٌ لا يزول ملكه.

وأنَّه تعالى فوق كلّ شيء، ومع كلّ شيء، وأقرب إلى كلّ شيء من نفس الشيء، وأنه مع ذلك غير مَحَلٍّ للأشياء، وأنَّ الأشياء ليست محلاًّ له، وأنَّه على العرش استوى كيف شاء، بلا تكييف ولا تشبيه، وأنَّه بكلّ شيءٍ عليم، وعلى كل شيء قدير، وبكلّ شيءٍ محيط.

وهو ـ جلَّ جلاله وعَظُمَ شأنُه ـ ذاتٌ منفردٌ بنفسه، متوحِّدٌ بأوصافه، لا يمتزج بشيء، ولا يزدوج إلى شيءٍ، بائِن من جميع خلقه،

لا يحلّ الأجسام، ولا تحلّه الأعراض، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه من ذاته شيء.

وأنه تعالى ذو أسماءٍ وصفاتٍ وقدرةٍ وعَظمةٍ وكلامٍ ومشيئةٍ، كلُّها غيرُ مخلوقةٍ ولا محدثةٍ، بل لم يزل قائمًا موجودًا بجميع أسمائه وصفاته وكلامه وإرادته.

وأنه ذو الملك والملكوت، والعزَّة والجبروت، له الخلق والأمر، والسلطان والقهر؛ يحكم بأمره في خلقه وملكه ما شاء، كيف شاء، لا معقِّب لحكمه، ولا مشيئة لعبدٍ دون مشيئته؛ إن شاء شيئًا كان، ولا يكون إلَّا ما شاء؛ لا حول لعبدٍ عن معصيته إلَّا برحمته، ولا قوَّة لعبدٍ على طاعته إلَّا بمحبَّته، وهو واحد في جميع ذلك لا شريك له، ولا معين في شيءٍ من ذلك.

ولا يلزمه إثبات الوعيد، بل المشيئة إليه في العفو. ولا يجب عليه في الأحكام ما أجرى علينا؛ حكيمٌ عادلٌ بحكمةٍ وعدلٍ هما صفتاه، لا يشبّه حكمته بحكمة خلقه، ولا يقاس عدله بعدل عباده، ولا يلزمه من الأحكام ما ألزمهم، ولا يعود عليه من الأسماء المذمومة كما يعود عليهم؛ قد جاوز الأفهام، وفات الأوهام؛ هو كما وصف نفسه، وفوق ما وصفه خلقه.

نَصِفه بما ثبتت به الرِّواية، وصحَّت عن رسول الله ﷺ، وأنَّه ليس كمثله شيء، في كلِّ شيءٍ، بإثبات الأسماء والصفات، ونفي التمثيل والأدوات.

وأنَّه سبحانه وتعالى لم يزل موجودًا بصفاته كلِّها، وأنَّ صفاته لم

تَزَلْ قائمةً به، ولا تزال كذلك بلا نهايةٍ، ولا غايةٍ، ولا تكييفٍ، ولا تشبيهٍ؛ فلا يجري عليه القياس، ولا يُمَثَّلُ بالناس، ولا يُنْعَتُ بجنسٍ، ولا يُلْمَسُ بحسٍّ.

وأنَّ ما سواه محدَث كلُّه، ظهر بعد أن لم يكن، فليس قديمًا، بل كان بأوقات محدثة وأزمان مؤقتة. والله تعالى لم يزل أحدًا صمدًا لم يلد ولم يولد، أي: لم يتولَّد منه شيءٌ، ولم يتولَّد هو من شيءٍ، فلم يخلق من ذاته شيء، كما لم تخلق ذاته من شيءٍ، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون علوًّا كبيرًا.

ذكر فرض الشهادة للرسول ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]. وقال عزَّ وجلّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

ففرْضُ الشهادة للرسول ﷺ، أن تشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ﷺ، لا نبيَّ بعده؛ وكتابه خاتم الكتب لا كتاب بعده، وهو مهيمن على كلِّ كتاب، ومصدِّق لما سَلَف من الكتب قبله؛ وأن شريعته ناسخةٌ للشرائع، قاضية عليها إلاَّ ما أقرَّه كتابه ووافقه؛ وكتابه شاهد على الكتب وحاكم عليها؛ وأنه هو الذي بشَّر به موسى عليه السلام أمته، وعيسى عليه السلام أمته، وهو المذكور في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله عزَّ وجلّ المنزلة؛ وهو الذي أخذ اللّـهُ ميثاقَ النبيِّين أن يؤمنوا به وينصروه لو أدركوه، فأقرّوا بذلك، وشهد الله تعالى على شهادتهم؛ وهو

الذي أخذت الأنبياء شهادة الأمم على الإيمان به، وأمرتهم بتصديقه، وأخبرتهم بظهوره، وأنَّ طاعته ومحبَّته فريضةٌ واجبةٌ على الكافة كطاعة الله تعالى، واتِّباع أمره واجتناب نهيه مفترضة على الأمة إيجابًا أوجبهُ الله تعالى له، وفرضًا افترضه على خلقه متصل بفرائضه.

ذكر فضائل الشهادة للرسول ﷺ

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال ﷺ: «لا يؤمنُ عبدٌ حتَّى أكونَ أحبَّ إليه من أهله وماله والنَّاس أجمعين»(١).

وقال ﷺ: «لو أدركني موسى وعيسى ما وسِعَهُما إلاَّ اتِّباعي»(٢).

فمن محبَّة الرسول ﷺ إيثار سننه على الرأي والمعقول، ونصرته بالمال والنفس والقول.

وعلامة محبَّته اتِّباعُه ظاهرًا وباطنًا. فمن اتِّباع ظاهره: أداءُ الفرائض، واجتنابُ المحارم، والتخلُّق بأخلاقه، والتأدُّب بشمائِله وآدابه، والاقتفاء لآثاره، والبحث عن أخباره، ومجانبةُ أهل الغفلة والهوى،

(١) تقدم تخريجه (ص ١٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٤٧)، وابن أبي عاصم في «السنَّة» (٥٠)، من طرق عن مجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن جابر به، ولا يوجد عندهم ذكر عيسى عليه السلام، وإسناده ضعيف؛ فيه مجالد بن سعيد، ليس بالقوي في الحديث، ولعل الحديث يرتقي إلى درجة الحسن. انظر: «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٣، ١٧٤).

والتركُ للتفاخر من الدنيا، والإقبالُ على أعمال الآخرة، والتقرُّب من أهلها. ومن اتِّباع حاله في الباطن: مقاماتُ اليقينِ، ومشاهداتُ علوم الإيمان مثل الشكر والحياء، وإفراغ القلب للّٰه، ووجود الطمأنينة بذكر الله. فمن تحقَّق بذلك فله من الآية نصيبٌ موفورٌ، أعني: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

* * *

شرحُ ثانِي ما بُنِيَ الإسلامُ عليه من الخَمْسِ وهو الصَّلاة

وأوَّل ذلك وصف الطهارة: من فرائض الاستنجاء وسننه، وفرائض الوضوء وسننه، ثُمَّ فرائض الصلاة وسننها، وأحكام المصلي في وقت الصلاة، وإدراكها، وما يتعلق بها، وهيئات الصلاة، وآداب المصلي.

ذكر فرائض الاستنجاء

قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يقبلُ الله صلاةً بغير طُهور»(١). وقال ﷺ: «الطُّهْورُ نِصْفُ الإيمانِ»(٢). وقال: «مِفْتَاحُ الصَّلاةِ الطُّهور»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٠٤) من حديث ابن عمر ولفظه: «لا تُقْبَلُ صلاةٌ بِغَيْرِ طُهُور...».

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٢٠٣) من حديث أبي مالك.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٢٣، ١٢٩)، والترمذي (٣)، وابن ماجه (٢٧٥)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحسَّنه النووي في «الخلاصة» (١٠٥١)، وصححه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٢/ ٣٢٢).

فـأول الطَّهـارَةِ االاسْتِنْجَـاءُ، وفيـه فـرضـان، وأربـعُ سنـن. أحـد الفرضين: إزالة الحدث. والثاني: طهارة المزيل، وهو أن لا يكون رجيعَ دابَّةٍ ولا عظمَ ميتةٍ. والسنن الأربع: وِتْرُ الاستجمار، والاستنجاء بالماء، ومباشرة الأذى بالشمال، ومسح اليد بالتراب.

وكان ﷺ إذا أراد الحاجة أبعد[1].

وكان لا يستقبلُ القبلة لغائط ولا بول[2].

وأما من أراد أن يبول قريبًا من صاحبه بحيثُ يراه فلا بأس؛ فإنها رخصة من رسول الله ﷺ رفع الحياء منها بفعله[3]؛ لأنه كان عليه السلام أشدَّ النـاس حياءً، وربمـا بـال وإلـى جـانبه صـاحبه؛ ليسُنَّ التوسعـة في ذلك.

ومن كلام بعض فقهاء العرب في ذلك، قوله: أُبْعِدُ الأثر، وأُعِدُّ المَدَر، وأستقبل الشيحَ، وأستدبر الريح، وأقعي إقعاء الظبـي، وأجفل إجفال النعام.

والشيحُ: نبتٌ طيِّب الرائحة في البادية. والإقعاء في هذا الموضع: أن يستوفز على صدور قدميه. والإجفال: أن يرفع عجزه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢)، والنسائي (١/ ١٨، ١٩)، وابن ماجه (٣٣١)، والترمذي (٢٠)، وقال: «حسن صحيح» وهو كما قال، من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) أخرج مسلم (١/ ١٢٢٤) من حديث أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال: «إذا جَلَسَ أَحَدُكُمْ على حاجَتِهِ، فَلاَ يَسْتَقبِلِ القِبْلَةَ ولا يَسْتَدْبِرْها».

(٣) وذلـك مـن حـديـث حـذيفـة الـذي أخـرجـه البخـاري (١/ ٣٢٨)، ومسلـم (١/ ٢٢٨).

فأما وصف الاستبراء، فهو: أن يستفرغَ الرَّجل بولَه رويدًا، ولا يحرِّكَ ذكره فينتشرَ البول على الحشفة. فإذا انقطع البولُ على مهل، مدَّ ذكره ثلاثًا ــ من أصله إلى الحشفة ــ مدًّا رفيقًا، ثمَّ ينتره ثلاثًا، ثم يأخذ الحجر بيمينه، ويأخذ ذكره بشماله ويمده عليه، حتى يرى موقعه جافًّا، فهناك طهر حين انقطعت النداوة.

ويستحبُّ البول في أرض رِخْوة، ويكره له أن يبول مستقبل الريح أو على أرض صُلْبة، كيلا ينضح البول عليه. وقد شبه فقهاء المدينة الذكر بالضرع ــ أي: إن مددته دَرّ وإن تركته قَرّ ــ وقد كان أخفهم استبراءً وأقلّهم استعمالاً للماء في الطُّهور أفقههم عندهم.

ذِكْرُ فرائِض الطَّهارة

وهي ثمانية: طهارة الإناء. ثم الماء الطاهر. والنية، والترتيب على نسق الكتاب، وغسل الأعضاء الثلاثة المأمور بها، ومسح الرأس، ولا يلطم وجهه بالماء لطمًا؛ فإنه مكروه، ولكن ليحمل الماء بيديه معًا إلى وجهه، ثم ليسنّه عليه سنًّا، ويغسل وجهه غسلاً، من أصول شعر رأسه إلى ما ظهر من لحيته، وعلى ما استرسل منها، وليدخل البياض الذي بين أُذنه ولحيته في غسل وجهه، وليدخل مرفقيه في غسل ذراعيه. وليمسح رأسه أجمع، يبتدىء بمقدَّم رأسه ثم يرد يده إلى مؤخّره. ثم ليغسل رجليه.

ذكر سُنَن الوضوء

وهي عشرة: التسمية، وغسل الكفين، والمضمضة، والاستنشاق، والاستنثار، وهو إخراج الماء من الأنف، وتخليل اللحية، ومسح

الأذنين، وغسل كل عضو ثلاثًا ثلاثًا، وأن يبدأ بالميامن، وتخليل أصابع القدمين.

صِفَةُ الغُسْلِ مِنَ الجَنابَةِ

يضع الإناء عن يمينه. ثُمَّ يسمِّي الله تعالى. ويفرغ على يديه ثلاثًا قبل إدخالهما الإناء. ثمَّ يغسل ذكره، ويستنجي. ثُمَّ يتوضأ وضوءه للصَّلاة كاملاً إلاَّ غسل قدميه. ثمَّ يدخل يديه في الإناء بما حملتا من الماء، فيفيض على رأسه ثلاثًا، ويخلل شعر رأسه بأصابعه، ويبل الشعر، وينقِّي البشرة. ثمَّ يصبّ على شقِّهِ الأيمنِ ثلاثًا، ظهرًا وبطنًا، إلى فخذه وساقه. ثُمَّ يغسل شقّه الأيسر كذلك، ظهره وبطنه، إلى فخذه وساقه. ويدلك ما أقبل من جسده وما أدبر بيديه معًا. ثمَّ يتنحَّى من موضعه قليلاً فيغسل قدميه. فإن فضل من الإناء ماءٌ أفاضه على سائر جسده.

وكيفما أتى بغسل جسده من الجنابة فجائزٌ بعدَ أن يعمَّ جميع بدنه غسلاً. ومن انغمس في نهر أجزأه عن الغسل(١).

---

(١) التقييد بالنهر لبيان أنَّ مثله مما لا بأس بالانغماس به. وأما مثل أحواض الحمّامات المعروفة عندنا في دمشق بالمغاطس فممّا ينبغي اجتناب الانغماس فيها؛ لعدَّة محذورات، مثل: صغر دائرتها، وكثرة من يرد عليها من المغتسلين، وفيهم العليل والجريح والذي به قروح أو مرض يعدي، ومنهم من يبول فيها ويزعم أنه مفيد لبعض الأمراض، ولا يُضْحي النهارُ إلاَّ وترى هذه الأحواض منتشرة في مائها جراثيم منوعة متعددة، وأكدار مبعثرة، مما كان على أبدان المنغمسين فيه، مما لا يمكن أن يطاق مسّه، فضلاً عن النزول فيه للانغماس والتطهير، ولعمري إنَّ من انغمس فيه بعد أن نظف بدنه بصابون ودلك، لقد أعاد إلى بدنه من هذا الحوض أقذر مما أزاله وأضرّ، لو أدرك وشعر. وكم وُجد على =

وفرض غسل الميت كغسل الجنابة.

* * *

= بعض الأبدان قراد وقُمَّل وغير ذلك على إثر الخروج من الحمام، وما ذلك إلاَّ من شؤم هذا الحوض المسمَّى بالمغطس، وقذارته. نعم، أصل وضعه لأمر صحي، وهو أن ينغمس فيه من يريد أن يعرق سريعًا، أو يخفف عنه وجع قلب، أو نحو ذلك مما يصفه الأطباء للانغماس في الماء الحار، وليس وضعه لرفع الجنابة كما يتوهَّمه الأغبياء، فلْيُتنبَّه لما ذكرناه، وبالله التوفيق. (المختصِر).

كِـتَـابُ الـصَّـلَاة

[فَرائِضُ الصَّلاة][1]

ذكر فرائِضِ الصَّلاة قبل الدخول فيها، وهي سبع:

أوَّل ذلك طهارة الجسد. وطهارة الثوب. وطهارة البقعة. وستر العورة، وهي من السُّرَّة إلى الركبة. واستقبال القبلة. وإصابة الوقت. والقيام إلَّا من عذر.

وفرائض الصلاة في صلبها، اثنتا عشرة خصلة:

فأول ذلك النِّية. وتكبيرة الإِحرام، بلفظ: الله أكبر. ثُمَّ قراءة سورة الحمد، أولها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. والركوع. والاعتدال. والسجود. والجلسة بين السجدتين. والتشهُّد الأخير. والصلاة على محمَّد ﷺ. والتسليم الأول.

وقد ثبت عنه ﷺ أنه رأى رجلًا يصلِّي، لا يقيم ظهره في ركوعه وسجوده، فقال له: «ٱرجعْ صلِّ فإنَّكَ لمْ تصل»، ثُمَّ رآه لا يطمئن في الركوع والسجود، فأمره أيضًا بإعادة الصَّلاة. ثُمَّ علَّمه الطمأنينة فيهما[2].

---

(١) ما بين المعكوفين إضافة للتوضيح.

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٢٣٧)، ومسلم (١/ ٢٩٨) من حديث أبـي هريرة.

ذكر سنن الصَّلاة

وهي اثنتا عشرة سُنَّة: رفع اليدين بتكبيرة الإحرام، وصورة الرفع أن يكون كفَّاه وإبهاماه عند شحمة أُذنيه، وأطراف أصابعه مع فروع أُذنيه، يعني: أعاليَهما. ولفظ التكبير: أن يضمَّ الهاء من الاسم بتخفيف الضمة، من غير بلوغ واوٍ، ويَهْمِزَ الألف من أكبر، ولا يدخل بين الباء والرَّاء ألفًا، ويجزم الرَّاء، لا يجوز غير هذا، فيقول: الله أكبر. ثُمَّ لا يرفع يديه إذا كبَّر إلى قدّام دفعًا، ولا يردّهما إلى خلفِ منكبيه، وبعد التكبير يرسلهما إرسالاً خفيفًا رفيقًا، ويكون إرساله يديه مع آخر التكبير.

ثُمَّ يستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الإرسال. وليقبض على زندِ كفِّه الشمال، وليجعلهما تحت صدره. ثُمَّ التوجه فيقول: «وجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰواتِ والأَرضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وما أنا من المشركينَ، إنَّ صَلاَتِي ونُسُكي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي للَّهِ رَبِّ العَالَمِين، لا شَرِيكَ لهُ وبذلك أُمِرْتُ وأَنَا مِنَ المُسْلِمينَ»(١). أو يقول: «سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِك، وتَبَارَكَ اسْمُكَ، وتَعَالىٰ جَدُّكَ، ولا إلٰهَ غَيرُكَ»(٢). فقد روي جميع ذلك. ثُمَّ الاستعاذة. ثُمَّ قراءة سورة الحمد، والتأمين بعده.

ثُمَّ رفع اليدين بالتكبير للركوع أيضًا سُنَّة، ثُمَّ التسبيح للركوع عشرًا، أو سبعًا، ولا أقل من ثلاث، ولتكن الثلاث بعد أن يضع يديه على ركبتيه، وإلاَّ كان بعض التسبيح في الانحطاط وبعضه في الرفع، وهذا مكروه.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٣٤) من حديث علي بن أبـي طالب.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٣)، من حديث عائشة، وإسناده ضعيف، إلاَّ أن له طريقًا أُخرى: أخرجها أبو داود (٧٧٦)، والحاكم (١/ ٢٣٥) فيكون الحديث قويًا بها، والحديث صححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «سنن الترمذي».

وصورة الركوع أن يفرج بين أصابعه فيملأ بها ركبتيه، ويجافي عضديه عن جنبيه، ولا يرفع رأسه ولا يخفضه، ولْيَمُدَّ عنقَه مع ظهره مدًّا، فيكون ظهره ورأسه سواء، لا مخفوضًا إلى أسفلَ ولا مرفوعًا إلى فوق.

ثُمَّ رفع اليدين بقول: «سمع الله لمن حمده» سُنَّة، ويقول: «اللَّـٰهُمَّ ربَّنا لك الحمد مِلْءَ السَّموات والأرض، وما بينهما، ومِلْءَ ما شِئْتَ من شيءٍ بَعْدُ»(١).

ثُمَّ التسبيح في السجود عشرًا، أو سبعًا، أو ثلاثًا، بعد حصول جبهته على الأرض، وقبل رفعه إيَّاه، ويجعل رأسه بين كفيه في سجوده، ويجافي عضديه عن جنبيه، ويمدّ ظهره، ويرفع بطنه عن فخذيه. ثُمَّ التكبير للسجود، والرفع بين السجدتين، وللقيام من السجود من غير رفع. ثُمَّ يقول: «رب اغفر لي وارحمني» ثلاثًا(٢).

ثُمَّ التشهُّد الأول. ثُمَّ السلام الأخير، فيقول: «السَّلام عليكم ورحمة الله» حتَّى يتبيَّن خدّاه لمن عن يمينه وشماله، من غير أن يحول جسمه عن القبلة.

ذِكْرُ أحكامِ الصَّلاةِ في الإدراكِ

من أدرك من صلاةٍ رباعيةٍ ركعتين، أو الثالثة من صلاة المَغْرِب، فإنَّ ما أدرك هو أوَّل الصَّلاةِ، فَلْيَبْنِ على ذلك.

ومن أدرك مع الإمامِ بعضَ القيامِ افتَتَحَ سورة الحمد، ولم يركع حتى يُتِمّها.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٣٥) من حديث علي بن أبـي طالب.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٤)، وأبو داود (٨٥٠)، وابن ماجه (٨٩٨)، والحاكم (١/ ٢٦٢، ٢٧١) وصححه ووافقه الذَّهبـي، وهو من حديث ابن عباس.

ومن لم يدرك مع الإمام من القيام شيئًا كبَّر للإحرام، ثُمَّ كبَّر وركع، وهي له ركعة.

وإن ركع الإمام وهو في قراءةِ سورةٍ غيرِ الحمد فليقطع حيث انتهى، وليركع بعده.

ومن أدرك في التشهُّد، أو في السجود، ابتدأ التكبير للإحرام قائمًا، ثُمَّ جلس وسجد للاتِّباع، فإذا سلَّم الإمام قام من غير تكبير يحدثه ثانيًا، وابتدأ بقراءة الحمد عند قيامه.

ولا يعتدُّ بشيءٍ مما أدرك مع الإمام إلاَّ بالركوع، وهو أن يكون قد وضع يديه على ركبتيه واطمأنَّ قبل أن يرفع الإمام رأسه، فهذه له ركعة.

ومن تكلَّم في صلاته ناسيًا، أو سلَّم من ركعتين من صلاةٍ رباعية فليسجد سجدتي السهو بعد التشهُّد. فإن كان قد خرج من المسجد، وتطاول ذلك، ثُمَّ ذكر فالأحبّ أن يُعيد الصَّلاة.

ومن تكلَّم أو سلَّم عامدًا، أو استدبر القبلة، أو انكشفت عورته، أو رعف في صلاته، أو ذكر أنه نسي مَسْحَ رأسِه، أو غَسْلَ عضوٍ من أعضائه: أعاد الصَّلاة.

ومن فاتته جماعةٌ فتطوع رجلٌ قام يصلي معه، فلا فرق أن يكون أحدهما إمامًا أو مأمومًا.

ومن شكَّ في ثلاث ركعاتٍ، أو اثنتين فليجعلهما ثنتين. ومن شكَّ في أربع، أو ثلاث حسبها ثلاثًا، يبني أبدًا على اليقين، وهو الأقل، ثُمَّ يسجد سجدتي السهو. فإن نسي السجود وذكره قريبًا، أو قبل أن يخرج

من المسجد، فليسجدهما ثُمَّ يتشهَّد ويسلِّم. فإن تطاول الوقت، أو كان قد خرج من المسجد سقط سجود السهو عنه.

ومن شكَّ في القبلة، لدخول ظلمة، أو فقد أدلة، تحرَّى جهده. فإن تبيَّن له أنَّ القبلة بخلاف ذلك أعاد.

واستحبَّ سجود السهو فيما زاد بعد التسليم، وفيما نقص قبله. فإن سجدهما في الزيادة والنقصان قبل السلام فحسن، كل ذلك قد رُوِّيناه عن النبي ﷺ[(١)].

ومن صلَّى في حال الضرورة بنقصان طهارة أو نقصان فرض أعاد.

ومن صلَّى في ثوب ثُمَّ رأى فيه نجاسة بعد ذلك أعاد.

ومن كان عليه صلوات ـ فرَّط فيها بإضاعة أو نقصان حدودٍ ـ صلاَّها متوالية، صلاة يوم في وقتٍ واحد إن أمكن، أو في أوقات متفرقة نسقًا، وأن يكون ذلك في غير الأوقات المنهيّ عنها عن الصلاة أحبّ إليَّ.

ومن علم في صلاته أنَّ عليه ثوبًا فيه نجاسة، وأنه غير مستقبل القبلة، فليلق الثوب وليستقبل القبلة وليتم صلاته، وإنْ أعاد فهو أحبّ إليَّ.

ذِكْرُ هيآتِ الصَّلاَةِ وآدابِها

يُستحبّ السِّواك قبل الصلاة، وأن يستعيذَ في كلِّ ركعة قبل قراءة الحمد. وأن يضمّ أصابع كفَّيه في التكبير، وأن يراوح بين قدميه في القيام، لا يضم كعبيه، ولكن يجعل بين قدميه مقدار أربع أصابع، فإنَّ ذلك يستحبّ. وأن يرفع صوته بقول: آمين. وأن يضم إحدى يديه على

---

(١) «صحيح البخاري» (٣/ ٩٢، ٩٣، ٩٤).

الأخرى قابضًا على الزندين بين السرَّة والصدر، فإنَّ ذلك من الخشوع. ولا يقعي في الصلاة، وهو: أن يجلس على قدميه وينصب ركبتيه ـ هذا مذهب أهل اللغة في الإقعاء ـ أو على ركبتيه جاثيًا، وأصابع رجليه في الأرض ـ هذا مذهب أهل الحديث[1] ـ.

وليجتنب السَّدْل والكفّ.

فأمّا السَّدل، فهو: أن يرخي أطراف ثيابه على الأرض وهو قائم. ومذهب أهل الحديث في السَّدل: أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل، فيركع ويسجد كذلك.

وأما الكف: فقد نُهي عنه في الصلاة أيضًا، وهو: أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود. وقد يكون الكفّ في شعر الرأس فلا يصلِّينَّ وهو عاقص شعره.

ولتقع ركبتاه على الأرض قبل يديه، ويداه قبل وجهه، وأن يسجد على جبهته وأنفه، فإنهما عضو واحد، ولينهض على صدور قدميه، وإن ضعف فليعتمد على الأرض بيديه، وأن لا يلتفت في صلاته يمينًا وشمالاً، ولا يلحظ عن يمينٍ وشمالٍ، فإن لحظ فهو أيسر، وليرم ببصره إلى موضع سجوده. ولا يعبث بشيء من بدنه في الصلاة.

وقد نُهي عن صلاة الحاقِن، والحاقب، والحازق.

فالحاقن: من البول.

والحاقب: من وجود الغائط.

---

(١) الإقعاء بهذا المعنى قد ثبت عن النبي ﷺ فعله ـ أحيانًا ـ في عدة أحاديث، كما في حديث ابن عباس عند مسلم (١/ ٣٨١).

والحازق: صاحب الخفّ الضيّق، فلا يصلّي من كنَّ به هذه الثلاثة؛ لأنها تشغل القلب.

وتُكرَه الصلاة للغضبان، والمهتم بأمرٍ، ومن عرضت له حاجة، حتى يسري عن قلوبهم ذلك، ويطمئن القلب، ويتفرَّغوا للصلاة.

ومن شَغَلَ قلبَه حضورُ الطعام، وكانت نفسه تائقة إليه فلْيُقَدِّم الأكل؛ لقوله ﷺ: «إذا حَضَر العَشاءُ وأُقِيمَت الصلاةُ، فابدؤُوا بالعَشاء»(١)، إلاَّ أن يضيق الوقتُ، أو يكون ساكن القلب.

وكان الحسن يقول: كلّ صلاة لا يحضر فيها القلب، فهي إلى العقوبة أقرب.

ذِكْرُ فضائِلِ الصَّلاةِ وآدابِها وما يَزْكُو به أَهْلُها وَوَصفِ صَلاةِ الخَاشعينَ

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾ [طه: ١٤]. وقال: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، قيل: سكارى من حبّ الدُّنيا. وقيل: من الاهتمام بها. وقال جلَّ ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج: ٢٣].

وقال النبي ﷺ: «مَن صلَّى ركعتين لم يحدِّث نفسه فيهما بشيء من الدنيا، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه»(٢). وقال ﷺ: «إنَّما الصَّلاةُ تَمَسْكُنٌ

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٥٩)، ومسلم (١/ ٣٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٨٦)، من مرسل صلت بن =

وتواضُعٌ، وتضرُّعٌ، وتَرْفَعُ يديكَ وتقول: اللَّـهُمَّ، فمن لم يفعل فهي خداج»، أي: ناقصة[1].

ومن الدوام في الصَّلاة السُّكون فيها، وعلى ذلك فُسِّر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾، قيل: هو السكون والطمأنينة في الصلاة، من قولك: ماء دائم، إذا سكن.

وجامع هيئات الخاشعين في الصلاة هي: الطمأنينة، والهدوء، ووجود النعيم بها، واللذة، ثُمَّ إصغاء القلب للفهم، وخشوعه للتواضع، وسكون الجوارح للهيبة، ثُمَّ الترتيل في القراءة، والتدبُّر لمعاني الكلام، وحسن الافتقار إلى المتكلِّم في الأفهام، والإيقاف على المراد، وصِدْقُ الرغبة في الطلب للاطِّلاع على المطلع من السرّ المكنون المستودع في الكتاب.

وإن مرَّ بآيةِ رحمة سأل ورغِب، أو آيةِ عذاب فزع واستعاذ، أو مرَّ بتسبيح أو تعظيم حَمِدَ وسبّح وعظّم، وهذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، هكذا كان وصفهم في التلاوة.

وينبغي أن يكون قلبه بوصف على ركنٍ من أركان الصَّلاة، وهمّه معلَّقًا بكلِّ معنى من معاني المناجاة، فإذا قال: الله أكبر، أي: مما سواه. ومن كان في قلبه الملك الصغير الفاني أكبر من الملك الأكبر، فما عمل

= أُشيم، وأخرجه البخاري (٤/ ١٥٨)، ومسلم (١/ ٢٠٤) من حديث عثمان دون قوله: «بشيء من الدُّنيا».

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١١)، والترمذي (٣٨٥)، والبغوي في «شرح السّنَّة» (٧٤٠)، من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف؛ فيه عبد الله بن نافع بن العَمْياء، أعمى الحديث.

بقوله تعالى: الله أكبر، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فالمذكور أكبر، وقد أخبر تعالى أنَّ الصلاة أُريد بها الذكر، في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤] فإذا لم يكن في قلبك للمذكور ــ الذي هو المقصود المبتغى ــ عَظَمَةٌ ولا هَيْبَةٌ، فما قيمة ذكرك؟! وقال النبي ﷺ: «جعلتْ قرَّة عيني في الصلاة»[١].

وقال: «مَن لم تنهَهُ صلاتهُ عَنِ الفحشَاءِ والمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ بِهَا مِنَ اللّه إلاَّ بُعْدًا»[٢]. كما قال: «مَنْ لَمْ يتْرُكْ قولَ الزُّورِ والخيانةَ فليسَ للّه تعالى حَاجَةٌ في أَنْ يَدَعَ طعامَهُ وشرابَه»[٣]. فإنَّما المرادُ مِنَ الصَّلاة والصِّيام المخالفة مِن الآثام.

ومِن إقامة الصلاة وإتمامها: الوضوء لها قبل دخول وقتها، لئلا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٢٢، ٣٢٣)، وأبو يعلى (٣٤٨٢)، من حديث أنس. وقال الحافظ في «تخريج الإحياء» (٢/ ٣٠): «بإسناد جيد»، وحسنه الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/ ١١٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٥٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٠٩)، من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف؛ فيه ليث بن أبي سليم، ضعيف لاختلاطه، وبه أعله الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٥٨)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٥٠): «بإسناد لين».
وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١١١) من قول ابن مسعود: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهَهُ عن المُنكر، لم يزدد من الله إلاَّ بُعدًا». وقال الحافظ العراقي (١/ ١٥٠): «إسناده صحيح». وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٥٨): «رجاله رجال الصحيح». اهـ.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١١٦) من حديث أبي هريرة ولفظه: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّور والعَمَل به فليس لله حاجةٌ أن يَدَعَ طعامَهُ وشرابه».

يشغله عن أول الوقت غيرها. وينبغي أن يكون قلبه في همّه، وهمّه مع ربّه، فيكلِّمه بخطابه، ويتملَّقه بمناجاته، ويعرفه من صفاته. ورُوِّينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أحدكمْ إذا دخلَ في صلاتِه فإنَّ اللَّـهَ عزَّ وجلّ بَيْنَهُ وبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فلا يَبْزُقَنَّ تِلْقَاءَ وَجْهه»[(١)].

فإذا تَلاَ وقف همّه مع المتكلِّم ماذا أراد، واشتغل قلبه بالفهم عنه والانبساط منه.

فإن ركع وقف قلبه مع التعظيم للعظيم، فلا يكون في قلبه أعظم من الله تعالى وحده.

فإن رفع شهد الحمد للمحمود، فوقف مع الشكر للودود، فاستوجب منه المزيد.

وإن سجد سما قلبُه في العلُوِّ فقرب من الأعلى بقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩].

وإن دعا نظر إلى المدعو فكان هو المرجو، فأخذ في التمجيد والثناء والحمد والآلاء.

وإن استغْفَر تفكَّر في أوصاف التوبة وأحكام التائب، وتفكَّر ما سلف من الذنوب، فعمل في تصفية الاستغفار، وإخلاص الإنابة والاعتذار، وجدَّد عقد الاستقامة، فيكون له بهذا الاستغفار من الله عزَّ وجلّ تحيَّة وكرامة.

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٣٠٣) من حديث جابر ولفظه: «فإن أَحَدَكُم إذا قام يُصَلِّي، فإن اللَّـهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلا يبصقن قِبَلَ وَجْهِهِ، ولا عن يَمِيْنِهِ. ولْيَبْصُقْ عن يسارِهِ تحت رجله اليُسرى. . .».

وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣]، فمدحهم بالصلاة كما ذكرهم بالإيمان، ثُمَّ مدح صلاتهم بالخشوع، كما افتتح بالصلاة أوصافهم، ثُمَّ قال في آخرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩]، فختم بها نعوتهم.

وقال تعالى في نعت عباده المصلِّين الذين استثناهم من الجزع والهلع بقوله: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]. وقال في نعتهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فلولا أنَّ الصلاة أحب الأعمال إليه تعالى، ما جعلها مفتاحَ صفات أحبائه وختامَها، ولَمَا وصفهم بالدوام والمحافظة عليها ومدحهم بالخشوع فيها.

والخشوع، هو: انكسار القلب، وإخباته، وتواضعه، وذلّته، ثُمَّ لين الجانب، وكفّ الجوارح، وحسن سمتٍ وإقبال.

والمداومة: المواظبة عليها، وسكون القلب والجوارح فيها.

والمحافظة، هي: حضور القلب وإصغاؤه، وصفاء الفهم.

ثُمَّ قال تعالى في عاقبة المصلين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، فجعل أوّل عطائهم الفلاح وهو الظفر والبقاء، وآخره الفردوس، وهو خير المستقر والمأوى.

وقال في أضدادهم من أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ

ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣]، وقال موبخًا لآخر منهم: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ [القيامة: ٣١].

ونهى سبحانه رسوله صلوات الله عليه عن طاعة من نهاه عن الصلاة. ثُمَّ أمره بها، وأخبره أنَّ فيها القربَ والزُّلفَى، في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ [العلق: ٩، ١٠]، ثُمَّ قال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩]، فالمصلّون ورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من دار غضبِه وإبعادِه، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

ذِكْرُ الحثِّ على المحافظةِ على الصلاةِ وطريقةِ المصلِّين من الموقنين

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ الآية [محمد: ٢٩]. فاختار لنفسه أصحابه صلوات الله عليه، ثُمَّ اختار لأصحابه الصلاةَ فجعلها وَصْفَهُمْ في الإنجيل والتوراة، فهذا يدلّ على أنَّ الصَّلاة أفضل الأعمال؛ لأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ أفضل العُمَّال. وسُئل رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «الصَّلاةُ لِمواقيتها»(١). وعَن رسول الله ﷺ: «بَيْنَ الكُفْرِ والإيمان تَرْكُ الصَّلاة»(٢).

وعلامة قبول الصلوات أن تنهاه في تضاعيفها عن الفحشاء والمنكر. ـ والفحشاء: الكبائر. والمنكر: ما أنكره العلماء ـ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والخاشعون من المؤمنين، هم الآمرون بالمعروف والناهون عن

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٩)، ومسلم (١/ ٨٩) من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٨٨) من حديث جابر.

المنكر، الحافظون لحدود الله، جزاؤهم البشرى كما قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧].

والخاشعون أيضًا الخائفون، الذاكرون، الصابرون، والمقيمون الصلاة، فإذا كملت هذه الأوصاف فيهم كانوا مخبتين، وقد قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: ٣٤].

وكان عمّار بن ياسر رضي الله عنه يقول: إنما يُكتَب للعبد من صلاته ما عقل منها.

وقد ذكر عبد الواحد بن زيد أنَّ هذا إجماع، فرُوِّينا عنه أنَّه قال: أجمعت العلماء أنه ليس للعبد من صلاته إلاَّ ما عقل. وفي الخبر: «كم من قائم حظُّه من قيامه السهر والتعب»(١). ومن صلَّى صلاة وراء إمام فلم يدر ماذا قرأ فهو نهاية السهو؛ فإنه تارك الأمر للاستماع، فيخاف عليه مجانبة الرحمة؛ لأنَّ الله تعالى ضمن الرحمة بشرطين: الاستماع والإنصات، وقال سبحانه في المعنيين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ذِكْرُ أحكامِ الخواطرِ في الصلاة

ما ذُكِّرَ به العبد في الصلاة من الخير فليسارع إلى فعله، فذلك من أحبّ الأشياء إلى الله تعالى، لأنه أذكره إياها في أحبّ المواطن إليه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٣)، وأبو يعلى (٦٥٥١)، والحاكم (١/ ٤٣١)، من حديث أبي هريرة ولفظه عند أحمد: «رُبَّ صائِمٍ حَظُّهُ من صِيامِهِ الجوعُ والعطشُ، ورُبَّ قائمٍ حَظُّه مِن قيامِهِ السَّهَرُ». وإسناده قوي، وحسّنه الحافظ العراقي (١/ ١٥٩).

وما ذُكِّرَ به من المكروه والممقوت إليه من المعتاد والمستأنف فليجتنبه، فإنه هو الذي يبعده من قرب الله سبحانه وتعالى. وتذكيره إياه في محل القرب توبيخًا له وتقريرًا، وقد يكون عتبًا وتنبيهًا، فترك ذلك مما يقرب إلى الله تعالى، ويدل على حسن الاستجابة له، وهو مسلك طريقه إلى الله تعالى.

وما خاطر به من خاطر تمنّ، أو هوى، أو ذكر بِهِمَّةٍ مَا يأتي، أو ما قد مضى، فإنَّ ذلك وسوسة إليه من عدوِّه حسدًا له؛ ليقطعه بذلك عن وقوف قلبه عند كل ركن من أركان الصلاة، ويُشْغِلَ قلبه عن الوقوف في المناجاة فيحجبه بما يضرّه عما ينفعه، لِيَحْرِمَه بذلك أن يشهد عند كل ذكر من أذكار الصلاة ما يوجبه الذكرُ من تدبُّرٍ أو تعظيمٍ أو حَمْدٍ أو دعاءٍ أو استغفارٍ.

وإن خطر بقلبه أمرُ معاشه وتصريفِ أحواله، فذلك من قبل النفس وفكرها بما توسوس به من أمور الدُّنيا.

فأما إن خطرت همَّةٌ محظورة أو فكرة في معصية مأزورة، فهذا هو الهلاك والبعد، يكون عن وصف النفس الأمَّارة باستحواذ العدوّ المُغويّ، فهو علامة الإبعاد، فإذا ابتلي في صلاته بهذه المعاني فقد اختبر بذلك، فعليه أن يَعْمَلَ في نفيه مع نفس بدوّه، ولا يُمَكِّنَه من الظهور من قلبه فيملكه، ولا يصغي إليه بعقله فيستولي عليه، ولا يحادثه ولا يطاوله فيخرجه من حَدّ الذكر واليقظة إلى مسامرة الجهل والغفلة.

وكل عمل محظور فالهمة به محظورة، وفيه نقص، وكل عمل مباح فالهمة به مباحة ونفيها فضيلة.

وما خطر على قلبه من الخيرات المتأخرِ فعلُها فليعقد النيَّة بذلك؛ فإنه قد ذُكِّرَ به وأريد منه. ثُمَّ يمضِ في صلاته، ولا يشتغل بتدبيره كيف يكون فيفوته الإقبال في الحال بتدبير شأنه في المآل.

فإن جاهد هذا المصلي نفسه عن مسامرة الفكر، وقابل عدوّه في قطع وسوسة الصدر، كان مجاهدًا في سبيل الله تعالى، مقاتلاً لمن يليه من أعداء الله تعالى، له أجران، أجر الصلاة للتقرُّب إلى الكريم، وأجر المصارمة والمحاربة لعدوّه الرجيم.

وقد كان الأقوياء من المؤمنين إذا ابتلوا بداخلٍ يدخل عليهم في الصلاة من الأسباب يخرجهم عن المشاهدة فيها، عمِلوا في قطع ذلك الشيء وإبعاده من أصله، إذ كان سبب قطعهم وإبعادهم من قربهم، ومن ذلك ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه نزع الجبَّة التي كانت عليه في الصلاة لَمّا نظر إلى عَلَمِها، وقال: «ألهتني هذه في الصلاة»، يعني: شغلتني[(١)].

وما تفكر فيه من غير تدبُّر التِّلاوة، أو شغل به من غير فهم المتلو، فهو حجابٌ له عن الفهم، وقطع له عن خالص العلم، فليقطع ذلك. والتمام في التلاوة أن يتدبَّرَ التالي باطن الكلام، ويتفكَّرَ في غوامض الخطاب، ويوقفَ قلبه على معاني المراد، فإنَّ الكلام عزيز من عزيز، ولطيف من لطيف، وحكيم من حكيم.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٣٤). ومسلم (١/ ٣٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

شَرْحُ ثَالِثِ ما بُنِيَ الإِسلامُ عليه
وهـو الـزَّكـاةُ

فرائض الزكاة أربع: الحرية. وصحة الملك. ووجود النصاب، وهو: مائتا درهم وعشرون دينارًا[1]. واستكمال الحول، وهو: من شهر إلى مثله.

ذِكْرُ فضائلِ الصدقةِ وآدابِ العطاء وما يزكو به المعروف ويَفْضُل به المُنْفِقون

ذهب جماعة من التابعين إلى أنَّ في المال حقوقًا غيرَ الزكاة، منهم إبراهيمُ النخَعي، قال: كانوا يرون أنَّ في المال حقوقًا سوى الزكاة. ومنهم الشعبي، سُئل: أفي المال حقٌّ سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]. ومنهم عطاء ومجاهد.

وقد كان المسلمون يرون المساواة، والقرض، والقيام بمؤن العجزة من أنفسهم وأهلهم من المعروف والبرّ والإحسان، وأن ذلك واجب على المتقين، وعلى المحسنين من أهل اليسار والمعروف.

(١) هذا نصاب زكاة الأثمان.

وكذلك مذهب جماعة من أهل التفسير: أنَّ قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝﴾ [البقرة: ٣]، وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا﴾ [المنافقون: ١٠]، مأمور به على عمومه، وأنه داخلٌ في حقِّ المسلم على المسلمين، وواجبٌ بحرمة الإسلام، ووجود الحاجة.

فمن فضائل الزكاة أن يخرجها في أوّل ما تجب عليه، وإن قدَّمها قبل وجوبها، إذا رأى لها موضعًا يتنافس فيه، ويغتنم خوف فوته ـ من غازٍ في سبيل الله عزَّ وجلّ، أو في دَينِ مطالبٍ، أو جهادٍ أو غزوٍ، أو إلى رجل فقيرٍ فاضل طرأ في وقته، أو ابن سبيل غريب ـ كان تقديمُها إلى هؤلاء وأمثالهم أفضلَ وأزكى، لأنه من المسارعة إلى الخير، ومن المعاونة على البرّ والتقوى، وداخل في التطوُّع بالخير، وفعله الذي أمر به، ولا يأمن الحوادث؛ إذ في التأخير آفات، وللدُّنيا نوائب وعوائق، وللنفس بدوات، وللقلوب تقليب.

وإن جَعَلَ رأسَ الحول أحدَ الشهرين كان أفضل، فإنَّ في هذين خاصيةً من الفضائل ليست في غيرهما.

فأمّا شهر رمضان: فإنَّ اللّـٰهَ تعالى خصَّه بتنزيل القرآن، وجعل فيه ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر، وجعله مكانًا لأداء فرضه الذي افترضه على عباده من الصيام، وشرَّفه بما أظهر فيه من عمارة بيوته بالقيام.

وأمّا ذو الحجَّة: فإنّا لا نعلم شهرًا جمع خمس فضائل غيره؛ وهو شهر حرام، وشهر حج، وفيه يوم الحج الأكبر، وفيه الأيام المعلومات وهي العشرة، والأيام المعدودات، وهي أيام التشريق التي أمر الله تعالى بذكره فيها.

وأفضل أيام في شهر رمضان: العشر الأواخر، وأفضل أيام في شهر ذي الحجة: العشر الأُول.

ثُمَّ أن يُخرجها طيِّبةً بها نفسُه، مسرورًا بها قلبُه، مخلصًا لربه، مبتغيًا بها وجهه، لغير رياءٍ ولا سمعةٍ ولا تزيُّنٍ ولا تصنُّع. لا يحب أن يطَّلع عليها غيرُ الله عزَّ وجلّ، ولا يرجو في إعطائها ولا يخاف في منعها سواه، وأن يعتقد فضل من يعطيه من الفقراء عليه، ولا ينتقصه بقلبه ولا يزدريه. وليعلم أنَّ الفقير خير منه؛ لأنه جعل طهرة وزكاة له، ورفعة ودرجة في دار المقام والحياة. وأنه هو قد جعل سخرة للفقير وعمارة لدُنياه.

وأن يُسِرّ ذلك إلى الفقير سرًّا، ولا يذكر ذلك، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قال: المن: أن تذكرها. والأذى: أن تظهرها. وبعضهم يقول: المنّ هو: أن تستخدمه بالعطاء.

والأذى: أن تعيِّره بالفقر. وقيل: المن: أن يتكبَّر عليه لأجل أن يعطيه، والأذى: أن تنهره، أو توبِّخه بالمسألة.

وقد رُوِّينا في الخبر: «لا يقبل الله من مُسمِّعٍ ولا مُرَاءٍ ولا منّانٍ»[(١)]. فجمع بين المِنَّة والسمعة، كما جمع بين السمعة والرياء، وردَّ بهن الأعمال، فالمُسَمِّع الذي يتحدَّث بما صنعه من الأعمال ليسمعه من لم يكن رآه، فيقوم ذلك مقام الرؤية، فسوَّى بينهما في إبطال العمل؛ لأنهما عن ضعف اليقين؛ إذ لم يكتف المسمِّع بعلم مولاه كما لم يقنع المرائي

---

(١) قال الحافظ زين الدِّين العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢١٥): «لم أظفر به هكذا».

بنظره، فأشرك فيه سواه. وألحق المنّانَ بهما؛ لأنَّ في المنَّة معناهما من أنه ذكره، فقد سمَّع غيره به أو رأى نفسه في العطاء ففخر به.

وفي الأثر: «تُفَضَّل صدقة السرِّ على صدقة العلانية سبعينَ ضعفًا»[1].

وفي الحديث المشهور: «سَبعةٌ يُظلُّهم الله في ظلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظلُّه».. وذكر منهم: «ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فلم تَعْلم شِمالُهُ ما أَعطت يمينه»[2]. وهذا من المبالغة في الوصف. وفيه مجاوزة الحدّ في الإخفاء، أي: يخفي من نفسه، فكيف غيره، وقد تستعمل العرب المبالغة في الشيء على ضرب المثل، والتعجب، وإن كان فيه مجاوزة للحدّ، من ذلك: أنَّ الله عزَّ وجلّ ذمَّ قومًا ووصفهم بالبخْل وبالغ في وصفهم، فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ [النساء: ٥٣]، والنقير لا يريده أحدٌ، ولا يطلبه، ولا يعطاه، لأنه هو النقطة التي تكون على ظهر النواة منه منبت النخلة.

وقد كان بعضُ المخلصين يلقي الدرهمَ في موضعِ جلوسِ الفقير بحيثُ يراه وهو لا يعلم مَنْ صاحِبُه، وبعضهم كان يصرّ ذلك في ثوبه وهو نائم فلا يعلم مَنْ جَعَلَه، وقد علمت من يفعل ذلك. فأمّا من كان يوصل إلى الفقير على يد غيره ويستكتمه شأنه فلا يحصى ذلك من المسلمين، وفي الخبر: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطفىء غَضبَ الربِّ»[3]، وقد أخبر تعالى أنَّ

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ١٤٣)، ومسلم (٢/ ٧١٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٤٢١) وفي «الأوسط» كما في «مجمع =

الإخفاء أفضل، ومعه يكون تكفير السيئات، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

فإن أظهر مسكين نفسه، وكشف نفسه للسؤال، وآثر التبذُّل على الصون والتعفُّف، فلا بأس أن تظهر معروفك إليه.

فإن أظهرت زكاتك إرادة الاقتداء بك والتحريض على مثل ذلك من غيرك لينافسك فيه أخوك فيسرع إلى مثله أمثالك منهم، فحسن، وذلك من التحاضّ على طعام المسكين، وقد ندب الله تعالى إليه.

وقد قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٧١]، فمدح المبدي بـ (نِعْمَ) إلاَّ أنَّ ذلك لا يحسن إلاَّ إلى من أبدى نفسه، كأنَّ هذا السائلَ: الذي يسأل بلسانه وكفه، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ ﴾ الآية، كأنها للفقراء الذين لا يظهرون نفوسهم بما يمنعهم من الحياء والتعفُّف، فمن أظهر نفسه فأَظْهِرْ إليه، ومَن أخفاها فأَخْفِ له.

وينبغي أن يجعل صدقته من أفضل ما يحبّه من المال، ومن جيِّد ما يدَّخِر ويقتني وتستأثر به النفوس، فيؤثر مولاه به كما أمره، وضرب المثل له، فقال: ﴿ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ثُمَّ قال: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال في ضرب المثل بالعبيد: ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، أي: لا تقصدوا الرديء فتجعلوه لله تعالى، ولو أُعطِيَ أحدُكم ذلك لم يأخذه

= البحرين» (١٤٣٤) من حديث معاوية بن حيدة، وحسَّنه المنذري لشواهده في «الترغيب» (١/ ٦٧٩).

إلَّا على إغماض، أي: كراهيةً وحياءً، ولا يجعل ما للّـه تعالى دون ما يستجيد لنفسه أو ما لا يستحسن أن يُهديه لنبيل من العبيد، فتكون قد آثرت نفسك أو عبدًا مثلك على مولاك، فإنَّ هذا من سوءِ الأدب، ولا يقوم سوء أدب واحد في معاملة بجميع المعاملات. وقد رُوي في معنى قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قال: طيِّبًا، فإنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يقبل إلَّا طيِّبًا[(١)].

وفي الخبر: «طُوبـى لِعَبْدٍ أَنْفَقَ من مالٍ اكتسبَهُ من غَيْرِ مَعْصيةٍ»[(٢)].

وإذا دعا لك مسكين عند الصدقة فاردد عليه مثل دعائه حتى يكون ذلك جزاءً لقوله، وتَخْلَصُ لكَ صدقتُك، وإلَّا كان دعاؤه مكافأةً على معروفك، ولا نرى أنك مستحقٌّ لذلك منه لِمَا وصلته به؛ لأنك عامل في واجب عليك لمعبودك.

ولا ينبغي أن تقتضي من الفقير الدعاء لك أو تطالبه بذلك أو تحب منه الثناء والمدح على ذلك، فإنه ينقص من الصدقة، وإن كان عليه أن يدعو لك ويثني به عليك، فإنما يعمل فيما تعبّده مولاه به، وأمره به، فلا يرى ذلك من حقك عليه.

وإذا وصَلت إلى الفقير معروفًا فبحسنِ أدبٍ، ولينِ جانبٍ، ولطفِ كلامٍ، وتذلُّلٍ وتواضع.

---

(١) أخرج مسلم (٢/٧٠٣) من حديث طويل عن أبـي هريرة وأوله: «أيُّها الناس إنَّ الله طيب لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا...».

(٢) قال الحافظ العراقي: «رواه ابن عدي والبزار بسند ضعيف»، «إتحاف السَّادة المتقين» (٤/ ١٢٤).

ومن أحبَّ الثناء والذكر على معروفه كان ذلك حظَّه منه، وبطل أجرُه.

ويستحبّ للفقير أن يخص ذا المعروف إليه بدعواتٍ؛ شكرًا لما أولاه، وتأدُّبًا وتخلُّقًا بفعل مولاه؛ لأنه قد جعله سببًا للخير وواسطة للبرِّ، فليقل: طهَّر الله قلبك في قلوب الأبرار، وزكَّى عملك في عمل الأخيار، وصلَّى على روحك في أرواح الشهداء، فذلك هو شكر الناس، والدُّعاء لهم، وحسن الثَّناء عليهم، وذلك تأويل الخبر: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّـٰهَ تعالى»[1]. فإنَّ فيه إثبات حكم الأواسط، واستعمال حسن الأدب في إظهار النِّعم والتخلُّق بأخلاق المنعم؛ لأنه أنعم عليهم ثُمَّ شكر لهم كرمًا منه. وفي الخبر: «من أَسْدى إليكم مَعْروفًا فكافِئُوه، فإن لَم تَسْتطيعوا فادْعوا له حتَّى تَروا أنكم قد كَافَأْتُموه»[2]. فأمَّا شكر الله تعالى على العطاء فهو اعتقاد المعرفة أنه من الله تعالى لا شريك له فيها، والعمل بطاعته بها.

ومن فضل الصدقة أن يقصد بها الفقراء الصالحين الصادقين من أهل الدين، ممن يؤثر التستُّرَ والإخفاء، ولا يكثرُ البثَّ والشكوى، وممن فيه وصف من أوصاف الكتاب: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، أي: حُبِسوا في طريق الآخرة لعَيْلة أو ضيق معيشة أو تعلم علم أو تعليمه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، والترمذي (١٩٥٣)، من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٦٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٦)، وأبو داود (٥١٠٩)، والنسائي (٥/ ٨٢) من حديث ابن عمر، وإسناده صحيح.

[البقرة: ٢٧٣]؛ لأنهم مقصوصو الجَناح، إذ المال للغنيّ بمنزلة الجناح للطائر، فيطير بماله حيث شاء من البلاد، وينبسط في شهواته كيف شاء من المراد، والفقير محصور عن ذلك لا يستطيعه لقبض يده وقَدْرِ رزقه: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فسمَّى الله تعالى من لا يعرفهم بالفقر، ولا يشهد وصفهم بالتقلُّل لظهور تعفُّفهم عن المسألة، جاهلاً بوصف المؤمنين، ثُمَّ وكَّد وصفهم، وأظهر للخلق تعريفهم؛ بيانًا منه وكشفًا لحالهم إذ ستروها بالعفة، فقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، فالسِّيما هي العلامة اللازمة والخليقة الثابتة، دون التحلِّي واللبسة الظاهرة ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، أي: بهذه العلامة أيضًا تعرفهم إن أشكلوا عليك، فإنهم لا يسألون عفَّةً وقناعة، ﴿إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، لا يلتحفون بالأغنياء، ولا يلاحفون أهل الدُّنيا تملُّقًا وضراعة، أي: هم منفردون بأحوالهم، أغنياء بيقينهم، أعزَّة بصبرهم.

والإلحاف مشتقٌّ من اللحاف الذي يلتحف به فيلزم الجسم، فقال: ليسوا ممن يفعل ذلك، لا يلتحفون الأغنياء كاللحاف، ولا يلتحفون المسألة لِزامًا كالصنعة كما يلتحف بالثوب، فاحرص أن يكون معروفك فيمن فيه هذه الأوصاف، أو بعضها، فيزكو عملك، ويُشكر فعلك.

والأفضل في المعروف أن يؤثر الرجل إخوانه من الفقراء على غيرهم من الأجانب؛ فقد رُوي عن عليّ رضي الله عنه: لأَنْ أصِلَ أخًا من إخواني بدرهم أحبُّ إليَّ مِن أن أتصدَّق بعشرين درهمًا. وذلك لأنَّ الله تعالى ضمَّ الأصدقاء إلى الأقارب، فكان فضل الصدقة على الأقارب دون البعيد

كفضل الصدقة على القرابة دون الأباعد؛ لأنه ليس بعد صلة الرحم في معناها أفضل من صلة الإخوان.

وليقصد ببرّه مَن إذا دفع إليه العطاء حمد الله تعالى وشكره، ورأى النِّعمة منه، فإنَّ هذا أشكرُ العباد لله تعالى؛ لأنَّ حقيقةَ الشكر لله بشهود النعمة منه، والإخلاص بحسن المعاملة له؛ فالمؤمن يأخذ رزقه من الله تعالى، فهو لا يعبد إلاَّ الله تعالى، ولا يطلب منه إلاَّ كما أمره في قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقد رُوي أنَّ النبـي ﷺ قال لرجل: «تُب»، فقال: أَتوبُ إلى الله ولا أَتوب إلى محمد. فقال رسول الله ﷺ: «عَرَفَ الحَقَّ لأَهْلِهِ»[(١)].

ولما نزلَ تحصينُ عائشةَ رضي الله عنها وبراءتُها من الإفك قال لها أبو بكر: قومي إلى رسول الله ﷺ. قالت: والله لا أفعل، ولا أحمد إلاَّ الله. فقال رسول الله ﷺ: «دعها يا أبا بكر». وفي لفظ آخر: قالت لأبي بكر: نحمد الله ولا نحمدك ولا نحمد صاحبك. فلم ينكر رسول الله ﷺ ذلك، بل سَرَّه، وأمر أباها بالكف عنها[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٢٦٣)، والحاكم (٤/ ٢٥٥)، من حديث الأسود بن سريع، وإسناده ضعيف؛ الحسن البصري لم يسمع من الأسود بن يزيد، وفيه كذلك محمد بن مصعب، ضعيف كما قال الذهبي في «تلخيص المستدرك»، والحديث ضعفه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٢٠).

(٢) قال الحافظ العراقي «حديث: لما نَزلت براءة عائشة فقال أبو بكر قومي فقبلي رأس رسول الله ﷺ... الحديث.

أخرجه أبو داود من حديث عائشة بلفظ: فقال أبواي: قومي فقَبِّلي رأس =

وقد جعل الله من وصف الكافرين أنهم إذا ذكر الله وحدَه في شيء انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر غيره فرحوا. وجعل من نعتهم أنهم إذا ذكر توحيده وإفراده عند شيء عصوا ذلك وكرهوه، وإذا أشرك غيره في ذلك صدَّقوا به، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال أيضًا: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ [غافر: ١٢]، والكفر التغطية ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ [غافر: ١٢]، والشرك الخلط، أن يخلط بذكره ذكر سواه، ثُمَّ قال: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢]،

يعني: لا يشركُهُ في حكمه خلق؛ لأنه العلي في عظمته، الكبير في سلطانه، لا شريك له في ملكه وعطائه، ولا ظهير له من عباده. ففي دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب أنَّ المؤمنين إذا ذكر الله تعالى بالتوحيد والإفراد في الشيء انشرحت صدورهم، واتَّسعت قلوبهم، واستبشروا بذكر الله تعالى وتوحيده؛ وإذا ذكرت الأواسط والأسباب التي دونه كرهوا

= رسول الله ﷺ، فقلت: أحمد الله لا إياكُما، وللبخاري تعليقًا: فقال أبواي: قومي إليه، فقلت: لا، والله لا أقوم إليه ولا أحمدكما ولكن أحمد الله، وله ولمسلم: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: لا، والله لا أَقوم إِليه ولا أحمد إلاَّ الله، وللطبراني: فقالت: بحمد الله لا بحمد صاحبك، وله من حديث ابن عباس: فقالت: لا بحمدك ولا بحمد صاحبك، وله من حديث ابن عمر: فقال أبو بكر: قومي فاحتضني رسول الله ﷺ، فقالت: لا، والله لا أدنو منه... الحديث وفيه: أنها قالت للنبي ﷺ بحمد الله لا بحمدك»، «تخريج الإحياء» (١/ ٢٢٠). وانظر: «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٣٩).

ذلك، واشمأزَّت قلوبهم. وهذه علامة صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك؛ لتستدل بها على حقيقة التوحيد في القلب، أو وجود خفيّ الشرك في النفس إن كنت عارفًا.

وينبغي أن يجعل صدقته من أجلِّ ما يقدر عليه وأطيبه في نفسه وجهده، فإنَّ الله طيِّب لا يقبل إلاَّ طيِّبًا.

وزكاء الصدقة ونماؤها عند الله تعالى على حسب حِلِّها، ووضعها في الأخص الأفضل من أهلها.

وينبغي أن يستصغر ما يعطي؛ فإنَّ الاستكثار من العُجْبِ، والعُجْبُ يحبط الأعمال.

وعن بعض العلماء: لا يتم المعروف إلاَّ بثلاث: تصغيره، وتعجيله، وستره. وقد كانوا يصلون الفقير بما يخرجه من حدّ الفقر، ومن الحاجة والضرّ إلى حدّ الكفاية والغنية، ويبقى لهم فضل.

وقد وصف الله تعالى أهل الحاجة بأوصاف خمسة فرَّقها في كتابه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]. وقال تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ ﴾ [الحج: ٣٦].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج: ٢٨].

فأمّا السائل: فهو الذي يسأل بكفه، ويظهر السؤال بلسانه.

وأمّا المحروم: فهو المحارَف الذي حارفه الرزق، أي: انحرف

عنه، فقد حُرِمه، أو هو الذي لا معلوم له ولا كسب، قد حرم التعيش والتصرُّف.

وأمّا القانع: فهو الذي يقعد في بيته ويقنع بما آتاه الله من غير طلب ولا تعرُّض، أو السائل من غير إلحاف ولا إلحاح، فيكون من أسماء الأضداد، أي: يكون القُنوعُ العفَّةَ والكفَّ، ويكون المسألةَ.

وأمّا المعترّ: فهو الذي يعرِّض بالسؤال ولا يصرح، تحمله الحاجة على التعريض، ويوقفه الحياء عن التصريح.

وأما البائس: فهو الذي به بؤس وشِدَّةٌ من مرضٍ أو بردٍ أو عضبٍ وزمانةٍ.

وقد فَصَل تعالى بين الفقراء والمساكين، فقيل: الفقير الذي لا يسأل، والمسكين السائل.

وقيل: الفقير المحارَف وهو المحروم، والمسكين الذي به زَمَانة، واشتقاقه من السكون، أي: فقد أسكَنَهُ الفقر وأقلّ حركته. قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١٦]، فهو الذي لا شيء له قد لصق بالتراب من الجهد.

وقيل: الفقير أسوأ حالاً من المسكين؛ لأنَّ المسكين يكون له الشيء، والفقير لا شيء له. قال الله تعالى في أصحاب السفينة: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فأخبر أنَّ لهم سفينةً وهي تساوي جملة، وقالوا: سُمِّي فقيرًا لأنه نُزعت فقرة من ظهره فانقطع صلبه من شدَّة الفقر، فهو مأخوذ من فِقَار الظهر، ويشهد للقول الأخير تقديمه على

الأصناف الثمانية في آية الصدقة، إذ بدأ بالأحوج فالأحوج، أو الأفضل فالأفضل.

وقال قوم: الفقير، هو الذي يُعرف بفقره، لظهور أمره، والمسكين هو الذي لا يفطن له ولا يؤبهُ بِهِ لتخفِّيه وتستُّره. وقد جاءت السنَّة بوصف هذا في الخبر المرويّ: «لَيْسَ المسكينُ الذي تردُّهُ الكِسْرةُ والكسْرتانِ والتَّمْرَةُ والتَّمرتانِ، إنَّما المسكينُ المُتعفِّفُ الذي لا يسأل الناسَ ولا يُفْطَنُ له فَيُتصدَّقَ عليه»[1]. وقد قال بعض الحكماء في مثل هذا: أيّ الأشياء أشدّ؟ فقال: فقير في صورة غنيّ.

وقيل لحكيم آخر: ما أشدّ الأشياء؟ قال: من ذهب ماله وبقيت عادته.

وكلّ هذه الأقوال صحيحة، فالأفضل أن توضع الزكاة في الأحوج فالأحوج، والأفضل فالأفضل.

وينبغي للموقن أن يفرح ويُسَرَّ بقبول معروفه، وأن يَحْزَنَ بردّه عليه، ومن لم يحزنه ذلك أو سرّه، دلَّ على ضعف نيَّته في الإخراج، وقلَّة إخلاصه بمعروفه؛ لأنَّ الصادق يسؤه ردّ معروفه إليه ويحزنه.

وينبغي أن لا يتملَّك ذلك إن ردَّه عليه، بل يدفعه إلى فقير آخر؛ لأنه قد أخرجه لله تعالى فلا يرجع فيه.

وليزدد في عينه من قبل منه معروفه نبلاً وجلالةً، ويعظم في عينه محبَّة ومهابة؛ لأنَّه قد أعانه على برّه وتقواه، وأكرمه بقبوله جدواه، فليشهد ذلك نعمة من الله تعالى وإحسانًا منه إليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٤٠)، ومسلم (٢/ ٧١٩) من حديث أبـي هريرة.

وعلى العبد أن يجتهد في طلب الأتقياء، وذوي الحاجة من الفقراء، ويبلغ غاية علمه بذلك، وقد كان ابن المبارك رحمه الله يجعل معروفه في أهل العلم خاصة، فقيل له: لو عممت به غيرهم. فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوَّة أفضلَ من مقام العلماء، فإذا اشتغل قلب العالم بالحاجة أو العَيْلَةِ لم يتفرَّغ للعلم، ولا يقبل على تعليم الناس، فرأيت أن أعينهم وأكفيهم حاجاتهم؛ لِتَفْرَغَ قلوبُهم للعلم وينشطوا لتعليم الناس. هذا طريق السَّلف الصالح رضي الله عنهم.

* * *

شرح رابعِ ما بُنِيَ الإسلامُ عليه
وهـو الصِّـيـام

ذِكْرُ فرائضِ الصوم

اعتقادُ الصوم إيجابًا بالله تعالى عليه، وقربةً منه إليه، وإخلاصًا به له، وأن يجتنب الأكل والشرب والجماع بعد طلوع الفجر الثاني، وأن يتمَّ الصِّيام إلى سقوط قُرْص الشمس، وأن لا ينويَ في تضاعيف النهار الخروجَ من الصوم.

ذِكْرُ فضائلِ الصَّومِ ووصفِ الصَّائمين

من فضائل الصوم: أن يجتنب من حظوظ جوارحه الشبهات، وذلك بغضّ البصر عن الاتِّساع في النظر، وصون السمع عن الإصغاء إلى محرَّم أو الوزر، أو القعود مع أهل الباطل، وحفظ اللسان عن الخوض فيما لا يعني جملة، ممّا إن كتب عنه كان عليه، وإن حفظ له لم يكن له، ومراعاة القلب بعكوف الهمّ عليه، وقطعُ الخواطر والأفكار التي كفّ عن فعلها. وتركُ التمنِّي الذي لا يجدي، وكفّ اليد عن البطش إلى محرَّم، من كسب، أو فاحشة. وحبسُ الرِّجْلِ عن السَّعي فيما لم يؤمر به، ولم يندب إليه من أعمال البرّ، فهذا صوم الممدوحين في الكتاب، المَوصوفين بالذكرى من أولي الألباب.

ومن فضائل الصوم: أن يرفض الشهواتِ الداعيةَ إلى العادات، ولا يفطر إلاَّ على حلالٍ متقلِّلاً منه؛ فبذلك يزكو الصِّيام.

ولا يقبِّل امرأته في صومه، ولا يباشرها بظاهر جسمه، فإن ذلك إن لم يُبطل صومه فإنه ينقصه، وتركه أفضل، إلاَّ لقويّ متمكِّنٍ مالكٍ لإرْبِهِ.

وليكثر ذكر الله تعالى، وليقلل ذكر الخَلْقِ بلسانه، ولا يجادل ولا يُخاصم، وإن شُتِم لم يكافىء على ذلك؛ لأجل حرمة الصوم.

ومن سنن الصِّيام: تعجيل الفطر، وتأخير السحور، وليفطر على رطب إن كان، وإلاَّ فعلى تمر إن وُجد، هكذا رُوي عن رسول الله ﷺ أنه كان يفطر[1].

وفي الخبر: «كَمْ من صائِمٍ حظُّهُ من صيامِهِ الجُوع والعَطَش»[2]. قيل: هو الذي يجوع بالنَّهار ويفطر على حرام. وقيل: هو الذي يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر بالغيبة من لحوم الناس. وقيل: هو الذي لا يغضّ بصره، ولا يحفظ لسانه عن الآثام.

وفي الأثر: «الصَّوم جُنَّةٌ ما لم يَخْرِقها بكذبٍ أو غيبة»[3]. وكانوا يقولون: الغيبة تُفطِّر الصائم.

---

(١) أخرج أحمد (٣/ ١٦٤)، والترمذي (٦٩٦)، وأبو داود (٢٣٥٦) من حديث أنس قال: كان رسول الله ﷺ يُفْطِرُ قَبْلَ أن يُصلي على رُطبات، فإنْ لم تكُنْ رُطباتٌ فتميراتٍ، فإن لم تكُنْ تُميراتٌ حَسَا حَسَواتٍ مِنْ ماء». وقال الترمذي: «هذا حديث حسن» وهو كما قال.

(٢) تقدم (ص ٢٠٩).

(٣) تقدم (ص ٨٧).

قال سفيان: من اغتاب فسدَ صومه.

وعن مجاهد: خصلتان يفسدان الصوم: الغيبة، والكذب.

ثُمَّ قال أبو طالب رحمه الله: والمراد من الصِّيام مجانبة الآثام، لا الجوع والعطش، كما ذكرناه من أمر الصلاة أنَّ المراد بها الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، كما قال رسول الله ﷺ: «مَن لم يتركْ قولَ الزورِ والعملَ به فليسَ للَّه حاجةٌ في أن يدعَ طعامَهُ وشرابه»[1].

* * *

(١) تقدم (ص ٢٠٥).

شَرْح خامسِ ما بُنِيَ الإسلامُ عليه
وهــو الحَــجُّ

ذِكْرُ فَرائِضِ الحَجِّ

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وفسَّر رسول الله ﷺ الاستطاعة بالزاد والرّاحلة(١)، فإذا وجد العبد زادًا وراحلة لزمه فرض الحج، فإن أخَّره بعد وجود ذلك كان مكروهًا، فإن مات ولم يحج، أو مات على عدم الإمكان بعد وجوده، كان عاصيًا لله تعالى من حين أمكنه إلى يوم موته، ولم يكن كامل الإسلام؛ لأنَّ الله

(١) مثلها كل ما يحمل الإنسان من دابة ومحمل ووابور بَرِّيٍّ أو بحريّ أو غير ذلك، وتخصيص الراحلة ـ وهي المركب من الإبل ـ لأنها كانت محامل العرب وقتئذ، ولذا سمّوها سفن البر. اهـ. جمال الدِّين.
والحديث أخرجه الدارقطني في «سننه» (٢/٢١٨) والحاكم (١/٤٤٢) من حديث أنس، وإسناده ضعيف، لكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «شرح العمدة» (٢/١٢٩ ـ كتاب مناسك الحج والعمرة) بعد سياق جملة روايات هذا الحديث: «فهذه الأحاديث مسندة من طرق حسان ومرسلة» مما يدل على أنه عنده مقبول يُحتج به.

تعالى أكمل الإسلام بالحجِّ لما أنزل هذه الآية في الحج يوم عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال عمر: لقد هممت أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على مَن لم يحجَّ ممَّن يستطيع إليه سبيلاً.

وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخَعي ومجاهد وطاووس: لو علمتُ رجلاً غنيًّا وجبَ عليه الحجّ ثُمَّ مات قبل أن يحجّ ما صلّيت عليه.

وبعضهم كان له جار مُوسر، فمات قبل أن يحج، فلم يُصلِّ عليه.

وكان ابن عباس يقول: مَن مات ولم يُزكّ ولم يحجّ، سأل الرجعة إلى الدُّنيا، وكان يفسِّره في هذه الآية: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، قال: أحجّ. ومثله: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠]، قال: أزكّي وأحجّ.

فأمّا فرائض الحجّ عند جملة العلماء فستة، اختلفوا منها في ثلاث، وهنّ: السعي بين الصفا والمروة قبل الوقوف بعرفة أو بعده، والبيتوتة بمزدلفة عند المشعر ليلة النحر، ورمي جمرة العقبة يوم النحر.

وأجمعوا على ثلاث، وهي: الإحرام به، والوقوف بعرفة، وطواف الزيارة بعد الوقوف بعرفة وبعد رمي جمرة العقبة. ولم يختلفوا في أنَّ ما سوى هذه من المناسك مسنون ومستحب، وبعضه أوكد من بعض، وفي ترك بعضه كفّارة وفي بعضه لا حرج فيه.

وطواف الحجّ ثلاثة: واحد فريضة إن تركه بطل حجّه، وهو طواف الزيارة. وواحدٌ سنَّة إن تركه كان عليه دم، وحجّه تام، وهو طواف

الوداع. وواحد مستحبٌّ إن تركه فلا شيء عليه، وهو طواف الورود، أي: القدوم.

وتفاصيل أحكام الحجّ مشبَعة في كتب الفقه.

ذِكْرُ فَضائِلِ الحَجِّ وآدابِهِ وهيآتِه وفضائِلِ الحُجَّاج

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، يعني: من أوجبه على نفسه في هذه الأشهر فأحرم به، وهو شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الرفث: اسم جامع لكلِّ لغوٍ، وخَنًى، وفُجْرٍ من الكلام، ومغازلة النساء، ومداعبتهنّ، والتحدُّث في شأن الجماع.

و **الفسوق**: جمع فِسْق، وهو اسم جامع لكلِّ خروجٍ من طاعةٍ، ولكلِّ تعدِّي حدٍّ من حدود الله تعالى.

و **الجدال**: وصف مبالَغٌ للخصومة، والمراء فيما يورث الضغائن وفيما لا نفع فيه.

فهذه ثلاثةُ أسماءٍ جامعةٌ مختصرة لهذه المعاني المثبتة أمر الله تعالى بتنزيه شعائره ومناسكه منها؛ لأنها مشتملة على الآثام، وهنّ أصول الخطايا والإجرام.

والحجّ في اللغة هو: القصد إلى من يعظم، وكانت العرب تقول: نحُجّ إلى النُّعمان، أي: نقصده تعظيمًا له، فينبغي أن يكون الحاج معظِّمًا لمن قصده بالحجِّ؛ ليتحقَّق بمعنى هذا الاسم. والحجّ أيضًا: سلوكُ

الطريق الواضح الذي [يخرج إلى][1] البغية، ويوقف على المنفعة.

واشتقاقه من المحجَّة، بمنزلة النسك، وهو اسم للطريق، مشتقٌّ من المنسك، وهو من أسماء الطريق، وإن كان أصله المذبح، ومنه سُمِّي الناسك؛ لأنه سالك لطريق الآخرة.

فأوَّل فضائل الحجِّ: حقيقة الإخلاص به لوجه الله تعالى، وأن تكون النَّفقة حلالاً، ويكون الهمّ مجرّدًا، والقلبُ ساكنًا مطمئنًّا، مملوءًا بالذكر فارغًا من الهوى. وصحَّة القصد بحسن الصّدق، ثُمَّ طيبُ النفس بالبذل والإنْفاق، والتوسُّع في النفقة والزاد، وبذل ذلك؛ لأنَّ النفقة في الحج بمنزلة النفقة في سبيل الله تعالى، الدرهم بسبعمائة درهم[2]، والحجّ من سبيل الله.

وقال ابن عمر وغيره: مِن كرم الرجل طيبُ زاده في سفره. وفي الحديث: «الحَجُّ المبرورُ، لَيْسَ له جزاءٌ إلاَّ الجنَّة»[3].

ويقال: إنَّما سُمِّي سفرًا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

وبعضهم يقول: يسفر عن صفات النفس وجوهرها؛ إذ ليس كل من حسنت صحبته في الحضر حسنت صحبته في السفر.

ولا يجادل، ولا يخاصم، ولا يكثر المراء، ولا يرفث بلسانه. وليتعلَّم أحكام المناسك، ومعالم الحجِّ وهيئاته وآداب المشاهد قبل الخروج، وليكن ذلك أهمّ شيء إليه، وليقدِّمه على جميع أسباب السفر؛ فإن هذا هو المقصود والبغية.

---

(١) ما بين المعكوفين من الأصل «قوت القلوب» ليتم المعنى.

(٢) سيأتي تخريجه (ص ٢٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٥٩٧)، ومسلم (٢/ ٩٨٣) من حديث أبـي هريرة.

وليعدّ له رفيقًا صالحًا عالمًا محبًّا للخير معينًا عليه، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإن جبُن شجَّعه، وإن عجز قوَّاه، وإن أساء ظنّه وضاق صدره، وسَّع صدره وصبَّره وحسَّن ظنّه.

ولا يخالف رفيقه ولا يكثر الاعتراض عليه. وليحسِّن خلقه مع جميع الناس، ويلين جانبه، ويخفض جناحه، ويكفّ أذاه عن الخلق، ويحتمل أذاهم؛ فبهذه المعاني يَفْضُلُ الحجّ.

ثُمَّ ليجتنب من الزيّ الشهرة وكلّ منظور إليه من الأثاث، ولا يتشبَّه بأهل التفاخر والتكاثر فيكتب من المتكبِّرين؛ وفي الخبر: «إنما الحاجّ الشُّعث التَّفل، يقول الله تعالى لملائكته: انْظروا إلى زُوَّار بيتي، قد جاؤُوني شُعْثًا غُبْرًا من كُلِّ فجٍّ عميق»(١)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

التفث: الشعث، والاغبرار. وقضاؤه حلق الرأس، وقصّ الأظفار.

ولا يحمل على الدابة المكتراة إلاَّ ما قاضى عليه الجمّال، أو ما أعلمه به. وقال رجل لابن المبارك: احمل لي هذا الكتاب معك. فقال: حتى أستأمر الجَمّال، فإني قد اكتريت، وليروح دابته بالنزول عنها أحيانًا، ففيه آثار عن السلف، ويكثر ذكر الله في طريقه وجميع مناسكه، ويذكِّر به الغافلين، ويقلّ ذكر الناس، ويلزم الصمت فيما لا يعنيه، وإن رأى موضعًا للمعروف أمر به، أو منكرًا نهى عنه، فهذه المعاني تضاعف أمر الحج.

وكان جماعة من السلف يستحسنون الابتداء بالعمرة وتقديمها على

---

(١) أخرجه بنحوه البزار (١٠٨٢)، وابن حبان (١٨٨٧) من حديث طويل عن ابن عمر وإسناده ضعيف فيه جهالة.

الحج، وفي التنزيل الكريم: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وليكثر العبد من التلبية في حال إحرامه؛ فهي من أفضل الأذكار فيه، وليرفع بها صوته.

ويستحب أن يذبح ـ يوم النحر ـ وإن لم يجب عليه، ويجتنب الأكل من ذبح ما كان واجبًا عليه، مثل نسكِ قِرانٍ أو متعة أو كفَّارة.

ولا بأس أن يأكل مما لم يكن عليه واجبًا.

وليجتنب المعايب الثمانية في ذبيحته، التي وردت بها الآثار[1]، وكذلك في الأضحية، فقد نُهِيَ أن يضحَّى بالجَدْباء، والعَضْباء، والجَرْباء، ونُهِيَ عن الشَّرْقاء، والخرقاء، والمقابلة، والمدابرة، والعجفاء التي لا تنقي ـ يعني المهزولة ـ؛ وهذا جميع ما جاء في عيوب الأضاحي بأخبار متفرّقة.

فالجدع: في الأنف والأذن، والقطع فيهما.

والعضب: الكسر في القرن، وفي نقصان القوائم.

والجرباء: من الجرب.

والشرقاء: المشقوقة الأذن من فوق.

والخرقاء: المشقوقة من أسفل.

والمقابلة: المخروقة الأذن من قدّام.

والمدابرة: المخروقة من خلف.

والتي لا تنقي: المهزولة التي لا نِقْيَ لها، والنقي: هو المخّ.

---

(١) انظر هدي النبي ﷺ في اختيار الأضحية وسلامتُها من العيوب: «زاد المعاد في هدي خير العباد» للإمام ابن القيم (٢/ ٣٢٠ ـ ٢٢ ط الرسالة).

وأفضل الهديْ بدنة، ثُمَّ بقرة، ثُمَّ كبش أقرن أبيض، ثُمَّ الثنيّ من المعزّ. وفي الحديث: «بِرُّ الحَجِّ العجُّ والثجُّ»[1]. **فالعجّ**، هو: رفع الصوت بالتلبية، **والثَّج**، هو: نحر البدن.

ولا يضحِّي إلاَّ بجذع من الضأن، وهو ما كان في آخر حوله، وبالثنيّ من المعز والبقر والإبل. **والثنيّ من المعز**: ما دخل في السنة الثانية. **والثني من البقر**: ما دخل في الثالثة. **والثني من الإبل**: ما دخل في السنة الخامسة.

ولتكن حاضر القلبِ مشاهدَ القُربِ عند المواطن المرجوّ فيها الإجابة، وفي المشاهد المبتغى منها المنفعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾ [الحج: ٢٨].

وليعتبر في طريقه وسيره بالآيات، وما يرى من الحكمة والقدرة من

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البزار في «مسنده» (١/ ١٤٤ ـ البحر الزَّخار، بتحقيق العالم المُتقن محفوظ الرحمن زين الله رحمه الله تعالى) عن أبـي بكر عن النبـي ﷺ، أنه سُئِلَ: ما بِرُّ الحَجِّ؟ قال: «العَجُّ والثَّجُّ»، وإسناده منقطع؛ محمد بن المنكدر لم يسمع من عبد الرحمن بن يربوع، كما أن الحديث أخرجه بلفظ قريب منه: الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١١٧)، والمروزي في «مسند أبـي بكر الصديق» (١١٧)، والدارمي (٢/ ٣١) وغيرهم عن أبـي بكر الصديق، قال: سئل رسول الله ﷺ أي العَمَلِ أفْضَلُ؟ قال: «العَجُّ والثَّجُّ» ومدار إسناده على عبد الرحمن بن يربوع الذي لم يسمع منه ابن المنكدر وله طريق أخرجها المروزي (٢٥)، وإسنادها ضعيف؛ لضعف محمد بن إسحاق البلخي، وله شاهد من حديث ابن مسعود: أخرجه أبو يعلى (٥٠٨٦) وإسناده ضعيف، فيتقوى الحديث بذلك.

تصريف الخلق، وما يُحْدِث الله تبارك وتعالى في كلِّ وقتٍ؛ فيكون له في كلِّ شيء عبرة، ومن كلِّ شيء موعظة وتبصرة تردّه إلى الله تعالى، وتدلّ عليه، وتذكره به؛ فيتفكَّر في أمره، ويستدل به على حكمته، ويشهد منه قدرته.

ويقال: إنَّ علامةَ قبول الحجّ تركُ ما كان عليه العبد من المعاصي، والاستبدال بإخوانه البطَّالين إخوانًا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة، فمن وُفِّق للعمل بما ذكرناه فهو علامة قبول حجّه، ودليل نظر الله إليه في قصده.

ومن أصيب بمصيبة في نفسه وماله فهو من دلائل قبول حجّه، فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله تعالى: الدرهم بسبعمائة، وبمثابة الشدائد في طريق الجهاد[1].

وليستكثر من الطواف بالبيت، ولا يتحدَّث في طوافه، وعليه بكثرة ذكر الله سبحانه وتعالى من التسبيح والتهليل والحمد، وتلاوة القرآن، وليمش بسكينة ووقارٍ وخشوعٍ وانكسارٍ، ولا يزاحمنَّ أحدًا، وليقرب من البيت ما أمكن، وليستلم الركنين اليمانيين مع تقبيل الحجر في كلّ وتر من طوافه إن أمكن، وليتَّق الهمَّة الردية والأفكار الدنية.

وعن ابن مسعود: ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالإرادة قبل العمل إلاَّ بمكة، ثُمَّ تلا: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج: ٢٥]، يعني: أنه علّق العذاب بالإرادة دون الفعل.

(١) أخرج الطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع البحرين» (١٦٤٥) عن أنس مرفوعًا: «الحج في سبيل الله، النفقة فيه الدرهم بسبع مئة» وإسناده ضعيف؛ لجهالةٍ فيه.

ويقال: إنَّ السيِّئات تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، وإنَّ السيئات التي تُكتسب هنالك لا تُكَفَّر إلاَّ هنالك.

ذِكْرُ فضائِلِ الحجِّ والحاجِّين لوجه الله

رُوِّينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حَجَّ هذا البَيْت فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، خَرَجَ من ذنوبه كيوم ولدتْهُ أُمُّه»[1].

وزعم بعض السلف: إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل الموقف!، إلاَّ أنه ليس فيه أثر مرفوع إلى النبـي ﷺ.

نعم، يوم الجمعة أفضل يوم في الدُّنيا، وفيه حجَّ رسول الله ﷺ حجَّة الوداع، ولم يحجّ بعد نزول فرض الحج غيرها، وعليه نزلت هذه الآية وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال علماء أهل الكتاب: لو أُنزلت علينا هذه الآية لجعلنا يومها عيدًا. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَشْهَدُ لقد أنزلت في يوم عيدين اثنين: يَومُ عَرَفة ويومُ جمعة على رسول الله ﷺ، وهو واقفٌ بعرفة[2].

وعن مجاهد: كانو يتلقّون الحاج؛ يدعون لهم قبل أن يتدنَّسوا، ويقولون تقبَّل الله منَّا ومنكم.

وقد كان من سُنَّة السلف أن يشيِّعوا الغزاة، وأن يستقبلوا الحاج ويقبِّلوا بين أعينهم، ويسألوهم الدعاء لهم. وفي أثر: «اللّـٰهُمَّ اغفر للحاجِّ

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٨٢)، ومسلم (٢/ ٩٨٣) من حديث أبـي هريرة.
(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٢٧٠)، ومسلم (٤/ ٢٣١٢، ٢٣١٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولِمَن استغفر لَهُ الحاجّ»[1].

ذِكْرُ فضائِلِ المدينةِ المنوَّرة

ليس بعد مكةَ مكانٌ أفضلَ من مدينة رسول الله ﷺ، والأعمال فيها مضاعفة. رُوِي عن النبي ﷺ: «صلاةٌ في مسْجِدي هذا خَيْرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سِوَاهُ إلاَّ المسْجِد الحَرام»[2]. وبعد ذلك بيت المقدس، فإنَّ فضل الصلاة فيه بخمسمائة صلاة كما في خبر[3]. ثُمَّ تستوي الأرض بعد ذلك فلا يبقى مندوب إليه مقصود لفضل دلّ الشرع عليه كما جاء في الخبر[4]: «لا تُشدُّ الرِّحال إلاَّ إلى ثَلاَثَةِ مساجد: المَسْجِد الحرام، ومَسْجدي هذا، والمَسْجِد الأَقْصى»[5]. وبعد ذلك فأيّ موضع صلح فيه

---

(١) أخرجه البزار (١١٥٥ ــ كشف)، وابن خزيمة (٢٥١٦) والطبراني في «الصغير» (٢/ ١١٤)، والحاكم (١/ ٤٤٥)، من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف؛ فيه شَريك بن عبد الله يخطىء كثيرًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠١٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرج ذلك: البزار (٤٢٢)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٦٠٩)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٨٤٥)، وإسناده ضعيف؛ فيه سعيد بن بشير الأزدي ضعيف الحديث، وأخرجه من حديث جابر بن عبد الله: الفاكهي في «أخبار مكة» (١١٨٤)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٨١)، وإسناده ضعيف جدًا؛ فيه إبراهيم بن أبي حية متروك الحديث؛ فبقي هذا الحديث على شهرته ضعيفًا.

(٤) تكرر هذا السطر مرتين في المخطوط ولا وجود له في الأصل «قوت القلوب» وبعدمه يستقيم الكلام.

(٥) أخرجه البخاري (٣/ ٧٠)، ومسلم (٢/ ٩٧٥، ٩٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري.

قلبك، وسلم لك دينك، واستقام فيه حالك، فهو أفضل المواضع لك.

وفي أثر: «البِلادُ بِلادُ الله تعالى، والخَلْقُ عِبادُه، فأيُّ مَوْضعٍ رأيت فيه رفقًا فَأقِمْ واحمد الله تعالى»[1].

وقال نعيم: رأيت الثوريّ قد جعل جرابه على كتفه، وأخذ قلته بيده، فقلت: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: إلى بلد أملؤ فيه جرابي بدرهم. وفي حكاية أخرى: بلغني أنَّ قريةً فيها رُخصٌ فأَخْرُجُ إليها. فقلت: وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ فقال: نعم، إذا سمعت في بلدٍ برخصٍ فاقصِدْه فإنه أسلم لدينك، وأقل لهمك، وكان يقول: هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين، فكيف بالمشهورين؟ هذا زمان تَنَقُّلِ الرَّجلِ، ينتقل من قرية إلى قرية، يفرّ بدينه من الفتن.

وقد كان العلماء ينتقلون في البلاد ليعلِّموا، أو يردُّوا الخلق إلى الله تعالى، ويعرّفوا الطريق إليه.

فإذا فُقِدَ العاملون فالزم موضعًا ترى فيه أدنى سلامة دين، وأقربَ صلاح قلب، وأيسر سكون نفس، ولا تنزعج إلى غيره؛ فإنك لا تأمن أن تقع في شرّ منه، وتطلب المكان الأول فلا تقدر عليه، والله غالبٌ على أمره، ولا حول ولا قوّة إلاَّ بالله العليّ العظيم.

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١/ ١٦٦)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٨٥)، من حديث الزبير بن العوام، وضعفه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٤٤)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص ١٤٧).

الفصل الثامن والعشرون
في تفصيلِ الإسلامِ والإيمانِ
مِنْ مَذاهبِ أهل السُّنَّة والجَمَاعَةِ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فعمد القلوب وكسبها هو عقودها وأعمالها.

فأمَّا عقود القلب التي هي السنَّة المجتمَعُ عليها، نقلها الخلف عن السلف:

فأن يعتقد العبد أنَّ الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويقْوَى بالعلم ويضعف بالجهل.

وأنَّ القرآن كلام الله عزَّ وجلّ، غير مخلوق، صفة من صفاته هو، متكلّم به بذاته.

ثُمَّ تسليم أخبار الصفات فيما ثبتت به الروايات، وصحَّ النقل، ولا يتأوّل ذلك، ولا يشبه بالقياس والعقل، ولكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى، وينفي التشبيه والتكييف عنها؛ إذ لا كفؤ للموصوف فيشبه به، ولا مثل له فيجنس منه، ولا نشبه ولا نصف ولا نمثل، ونَعْرف ولا نكيّف.

ويعتقد تفضيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته رضي الله عنهم ورَضُوا عنه كافة، ويسكت عما شجر بينهم، وينشر محاسنهم وفضائلهم لتأتلف القلوب بذلك؛ فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهى عقله فيما أدَّى إليه اجتهاده، وإن كان بعضُهم أعلمَ من بعض، كما أنَّ بعضَهم أفضلُ من بعض.

وليعتقد بقلبه من رضي الصحابة بإمامته، وأجمعوا على خلافته، واتفق الأئمة من أهل الشورى على تقدمته، وهو: أبو بكر الصديق، ثُمَّ عمر الفاروق، ثُمَّ عثمان ذو النورين، ثُمَّ عليّ بن أبي طالب باب مدينة العلم؛ فهؤلاء الأربعة خلفاءُ النبوّة، وهم أئمة الأئمة من العشرة، وعيون أهل الهجرة والنُّصرة، وخيار الخيار من الأصحاب.

وكان آخرهم استخلافًا هو آخرهم موتًا، فدبَّر خلافتهم على ما علم من آجالهم، ووفى لهم بما وعدهم من استخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائه السوالف، ومكَّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وبدّلهم أمنًا بعد خوفهم، كما قال الصادق فيما عهد: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، فذلك تأويل قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

ولا يكفِّر أحدًا من أهل القبلة بذنب وإن عَظُم، ولا ينزله جنَّة ولا نارًا، بل يرجو له ويخاف عليه.

وأن يصدِّق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرِّها أنها من الله تعالى، سابقةٌ في علمه، جاريةٌ في خلقه بحكمه، وأنهم لا حول لهم عن معصيته إلَّا بعصمتِه، ولا قوَّة لهم على طاعته إلَّا برحمته.

وأن يؤمن باليوم الآخر والحساب فيه، وتفاوت الخلق في يسيره وعسيره.

ويؤمن بالنظر إلى الله جلَّ جلاله عيانًا بالأبصار؛ تكشف الحجب والأستار بقدرة الله ومشيئته، ونوره ورحمته كيف شاء، وهو معنى قوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى الله تبارك وتعالى.

هذه جمل من العقائد الدينية، وبقي أصولٌ أخرى فصَّلَتْها كتبُ الكلام، وفصَّلناها في «شرح العقائد» فليرجع إليه.

ذكر مباني الإسلام وأركانِ الإيمان

اعلم أنَّ مبانيَ الإسلام خمسةٌ: أوَّلها شهادة أن لا إلـهَ إلَّا الله وحده وأنَّ محمَّدًا ﷺ عبدُه ورسوله، وإقام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت.

فهذه الخمس كواحدة منهن في إيجاب العقد واعتقاد الوجوب.

وأركان الإيمان سبعة:

١ ــ الإيمان بالله وصفاته.

٢ ــ والإيمان بكتب الله تعالى وأنبيائه.

٣ ــ والإيمان بالملائكة والشياطين.

٤ ــ والإيمان بالجنة والنار.

٥ ــ والإيمان بالبعث بعد الموت.

٦ ــ والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرّها، حُلْوِها ومُرِّها، أنَّها من الله تعالى قضاءً وقدرًا ومشيئةً وحكمًا.

٧ ــ والإيمان بما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ وقبول جميعه، وافتراض طاعته وأمره على العباد، والتزام ذلك؛ إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسول الله ﷺ من شرط الإيمان وقرنها بطاعته، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال: ١].

واشترط للرحمة طاعة الرسول كما اشترط لها تقواه، فقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾ [النور: ٥٦].

وحذَّر من مخالفة أمر رسول الله ﷺ في الاستجابة له مقامه، وجعله في المبالغة في الوصف والمدح بدلاً عنه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور: ٦٣]. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ لأنه

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وهذه أمدح آية في كتاب الله تعالى، وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله ﷺ؛ لأنه جعله في اللفظ بدلاً عنه، وفي الحكم مقامه، وليس هذا المقام من الربوبية لخلقٍ غيرِ رسول الله ﷺ.

ذِكْرُ عُرى الإيمانِ وجُمَلِ الشَّريعةِ

قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]. **فالشريعة** اسم من أسماء الطريق. وهو اسم الطريق الواضح المستقيم الواسع، وهو وصفٌ لطريقٍ جامعٍ لجوامع المَحاجِّ كلها، كأنه طريق يستوعب ويجمع سائر الطرق.

وللطريق أسماء كثيرة، منها: الصِّراط المستقيم، والسبيل، والمنهاج، والمحجَّة، والمنسك.

وجاء من اشتقاق هذا اللفظ أربعة أسماء: شارع، ومشرعة، وشِرْعة، وشريعة، وهو اسم لأوسعها وأوعبها لجميع الطرق.

فالشريعة تشتمل على اثنتي عشرةَ خصلة، هي جامعة لأوصاف الإيمان. أوَّل ذلك الشهادتان، وهي: الفطرة، والصلوات الخمس، وهي: الملة، والزكاة، وهي: الطُّهْرة، والصيام، وهو الجُنَّة، والحَج، وهو: الكمال، والجهاد، وهو: النصر. والأمر بالمعروف، وهو: الحُجَّة، والنهي عن المُنْكر، وهو: الوقاية، والجماعة، وهي: الأُلفة. والاستقامة، وهي: العصمة، وأكل الحلال، وهو: الورع. والحب والبغض في الله، وهو: الوثيقة.

ذِكْرُ شَرْطِ المُسْلِمِ الذي يكونُ به مُسْلمًا

أن لا يقيمَ على كبيرةٍ، ولا يأكلَ حرامًا، وأن يكونَ كافَّ اللسانِ واليدِ عن أعراض المسلمين وأموالهم، ويكون ناصحًا لجميع المسلمين مشفقًا عليهم، يَسُرُّه ما يسرّهم ويسوؤه ما يسوؤهم. ويكونَ مخلصًا أعمالَه كلّها لله تعالى.

ذكر حُسْنِ إسلام المَرْءِ
وعلاماتِ محبَّةِ اللَّـهِ تعالى

أن يكون محبًّا للخير وأهله، مجانبًا للشرِّ وأهله. مسارعًا إلى ما ندب إليه أو أمر به، إذا قدر عليه، حزينًا على ما فات من ذلك إذا أعجزه. تاركًا لما لا يعنيه من الأقوال والأفعال، بريئًا من التكلُّف، وهو: اجتناب ما لم يؤمر به ولم يندب إليه من تَرْكٍ وفعلٍ، مصلِّيًا للخمس في جماعة إذا أمن الفتنة وسلم له دينه، مجتنبًا للغيبة ولذكر الناس، يحبّ للكافَّة ما يحبّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، مسارعًا إلى الخيرات، مسابقًا إلى أعمال البرّ والقُربات، لَيِّنَ الجانب، ذليلاً للمؤمنين، عزيزًا على المتكبِّرين، لا يماري في الباطل، ولا يداهن في الدِّين، ولا يبغض على شيء من الحقّ وإن كان عليه، أو من أبعد الناس منه، ولا يحبّ على شيء من الباطل وإن كان له، أو من أقرب الناس إليه، كارهًا للمدح ممَّن يحبّه، قائلاً للنصح ممَّن يبغضه، يكون المدح والذمّ يجريان من قلبه مجرى واحدًا. صدوقًا فيما يضرّه، غيرَ متصنّع بما يستعجل نفعه، سريرته أفضل من علانيته، محتملاً لأذى الخلق، صابرًا على بلاءهم. منفردًا بحاله عنهم. تاركًا لكثير من مجالسهم واجتماعتهم.

ذِكْرُ حَقِّ المُسلمِ على المُسلمِ
وهو وجوب حُرمةِ الإِسلامِ على المُسلمين

وذلك عشر خصال، كثرت الأخبار[1] بها:

أن يسلّم عليه. ويجيبه إذا دعاه. ويشمّته إذا عطس. ويعوده إذا مرض. ويشهد جنازته إذا مات. ويبرّ قسمه إذا أقسم عليه. وينصح له إذا استنصحه. ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنه. ويحبّ له ما يحبّ لنفسه. ويكره له ما يكره لنفسه.

فهذه الخصال المذكورة جامعة مختصرة في حرمة المسلمين، ووجوبِ حقّ بعضهم على بعض، لا عُذر لأحد منهم في تركها إلاّ من عذرته السُّنَّة، وبعضها أوكد من بعض، وأكمل المؤمنين إيمانًا أقومهم بها وأسرعهم إليها.

ذِكْرُ سُنَنِ الجَسَدِ

وفي الجسد اثنتا عشرة سنَّة:

خمس منها في الرأس، وهي: المضمضة، والاستنشاق، والسِّواك، وقصّ الشارب، وفَرْقُ شعر الرأس.

ومنها سبع في الجسد، وهي: الختان، والاستحداد، والاستنجاء، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وغسل البراجم، وتنظيف الرواجب.

فأما البراجم: فهي معاطف ظهور الأنامل، لم تكن العرب تكثر

---

(١) انظر في ذلك منها: «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري (٣/ ٨١، ٤١٤، ٤/ ٢٣٤، ٢٣٥).

غسل ذلك؛ لتركها غسل أيديها عقيب الطعام، فكان يجتمع في تلك المكاسر الوسَخ، فأُمِروا بغسلها.

وأمّا **الرواجب**: فهي جمع راجبة، وهي: واحدة الأنامل، ما بين عقد الأصابع من باطن، ويدخل في ذلك تنظيف ما تحت الأظفار.

ويستحب إحْفاء الشوارب، وإعفاء اللحية، أي: جعل الشوارب حَفًّا في الشفة، أي: حولها؛ لأنَّ حفاف الشيء حوله، ومن ذلك آية: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، فإحفاء الشارب: الأخذ منه حتى يبدو حرف الشفة من فوق.

وإعفاء اللحية توفيرها وتكثيرها، ومن هذا آية ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ [الأعراف: ٩٥]، أي: كثروا.

ويكره في اللحية نتفُ شيبها تغطيةً للتكهُّل، والنقصان منها والزيادة فيها، والتصنُّع بتسريحها، وإظهار التزهُّد بتركها متفتلة شعثة. وأُنشد لبعض العرب:

لَعَمْرك ما الفتيان أن تنبت اللحى ... ولكنما الفتيان كل فتى ندي

ولم يكن الأشياخ يستنكفون أن يتعلَّموا من الشباب ما جهلوا، ولا يزدرون عليهم لصغر سنّهم؛ إذ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، لا مانع لما أعطى الله من صبيّ أو غيره، ولا معطي لما منع الله من كبير أو غيره.

وقد قيل لأبي عمرو بن العلاء: أَيَحْسُنُ بالشيخ الكبير أن يتعلَّم من الصغير؟ فقال: إن كانت الحياة تحسن به فإنَّ التعلُّم يحسن به؛ فإنه يحتاج إلى العلم ما دام حيًّا.

وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل ــ وقد رآه يمشي خلف بغلة

الشافعي رضي الله عنه ــ : يا أبا عبد الله، تترك حديث سفيان بعلوٍّ وتمشي خلف بغلةِ هذا الفتى وتسمع منه؟ فقال أحمد: لو عرفتَ منه ما أعرفُ لكنت تمشي من الجانب الآخر، إنّ علم سفيان إن فاتني بعلوٍّ أدركتُه بنزولٍ، وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بعلوٍّ ولا نزول.

وقد روي عن ابن عبَّاس وغيره: ما آتى الله تعالى عبدًا العلم قطّ إلاَّ شابًّا، والخير كلُّه في الشباب، ثُمَّ تلا قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وتلا قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ [مريم: ١٢].

ذِكْرُ شيءٍ من النَّوافل والحثِّ عليها

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [ق: ٤٠]، فسَّره عليّ رضي الله عنه بركعتي الفجر، وكذلك فسَّر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٤٠] بركعتي المغرب، وهذا على قراءة من كسر الألف، فأمَّا من فتحها فمعناه أدبار الصلوات، أي: أعقابها وأواخرها.

والتسبيح: اسم الصلاة النافلة؛ لكون التسبيح فيها، وتسمَّى النافلة: سُبحة.

فمن النوافل في أدبار الصلوات وقبلها: تسعَ عشرةَ ركعة، لا ينبغي ترك شيءٍ منها، وبعضها أوكد من بعض، فأوَّل ذلك ركعتا الفجر، ثُمَّ أربعٌ قبل الظهر، وركعتان بعدها، وأربعٌ قبل العصر، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وثلاث ركعات الوتر.

ومن المأثور ركعتا الضحى إلى ثمان، إذا أشرقت الشمس وارتفعت إلى أن تنبسط وتكون في ربع السماء من المشرق.

وأكثر ما رُوي من صلاة النبـي ﷺ بالليل ثلاث عشرة ركعة، والذي كان يداوم عليه إحدى عشرة ركعة[١].

ويُستحبّ أن يصلِّي قبل المغرب ركعتين بعد غروب الشمس، فقد كـان الصحـابـة رضـوان الله عليهـم، إذا أذَّنَ المغـرب يَبْتَـدرونَ السَّـواري يُصلون ركعتين[٢].

* * *

(١) تقدم (ص ٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢/١٠٦)، ومسلم (١/ ٥٧٣) من حديث أنس.

الفَصْلُ التَّاسِعُ والعشرون
في شَرْحِ كبائِرِ الذُّنوب

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فاشترط لتكفير الصغائر من السيئات اجتناب الكبائر الموبقات.

وقد رُوي في عدتها أقوال:

قال الإمام أبو طالب المكِّيُّ رحمه الله: والذي عندي في جملة ذلك مجتمعًا من متفرق، المأثور فيه سبعَ عشرةَ، تفصيلها:

أربعة من أعمال القلوب، وهن: الشرك بالله تعالى. والإصرار على معصية الله تعالى. والقنوط من رحمة الله تعالى. والأمنُ مِنْ مكر الله تعالى.

وأربعة في اللسان، وهي: شهادة الزور، وقذف المحصَن، وهو الحرّ البالغ المسلم، واليمين الغموس، وهي التي تُبطِلُ بها حقًّا وتُحِقّ بها باطلاً. وقيل: هي التي يقتطع بها مال مسلم ظلمًا ولو سواكًا من أراك، وسُمِّيت غموسًا لأنها تغمسه في غضب الله تعالى. وقيل: لأنها تغمس صاحبها في النار وتستوجب له عذاب الجبار تعالى.

والسّحر، وهو: ما كان من كلامٍ أو فعل يوهم قلب الأعيان، أو تغييرها، كفعل المشعوذين، ورقى الدَّجالين الضالِّين المضلِّين، فإنَّ الدِّين يأمر بقول الحقِّ وفعله، وينهى عن قول الباطل وفعله، وتضليل العقول والأفكار.

وثلاثة في البطن، وهي: شرب الخمر والمسكر من الأشربة. وأكل مال اليتيم ظلمًا. وأكل الرِّبا.

واثنتان في الفرج، وهما: الزنا، وأن يعمل عمل قوم لوط في الأدبار.

واثنتان في اليدين، وهما: القتل، والسرقة.

وواحدة في الرجلين، وهي: الفرار من الزحف، غير متحرف إلى الإمام، ولا متحيِّزًا إلى فئة، ولا معتقدَ الكرَّة.

وواحدة في جميع الجسد، وهي: عقوق الوالدين. وتفسير العقوق جملة: أن يُقسما عليه في حق فلا يَبَرَّ قسمهما، وأن يسألاه في حاجة فلا يعطيهما، وأن يُؤَمِّناه فيخونهما، وأن يجوعا فَيَشْبَعَ ولا يُطْعِمَهما، وأن يستبّاه فيضربهما.

فهذه الكبائر التي كثرت الأخبار فيها، وهي الموبقات التي من اجتنبها كفرت عنه ما دونها من السيئاتِ الصغائر، قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾، وقال من بعد الكبائر: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ومن كان عاملاً للحسنات وهو في ذلك يرتكب بعض الكبائر فإنَّ أعمال برّه وفضائله موقوفة إلى التوبة، فإن تاب واستقام كفرت توبته ما سلف من كبائره. وبَدَّلت استقامتُه على الطاعات سيئاتِه حسنات.

وأكثر ما يوبق الناس من الكبائر المظالم.

وكل عبد توبته متقبَّلة ما لم تبلغ الروح الحلقوم، فإذا بلغت التراقي غلِّق عليه باب التوبة ومات على الإصرار. ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [القيامة: ٢٧]، أي: من يرقَى بروحه، ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القيامة: ٢٨]، أيقن أنه قد فارق الدُّنيا بمعاينة الآخرة، وفارق النَّاسَ والأهل بمعاينة الملائكة. فإن مات عن غير توبة كان ممَّن قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، قيل: التوبة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤].

ولما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وحضورُ الموت يكون عند معاينة ملك الموت إذا خرجت الروح من جميع الجسم، فلم يبق إلَّا ما بين القلب والعينين، فهو الوقت الذي قال الله عزَّ وجلّ فيه: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وهو الذي خَوَّفَ منه في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، يعني: عند الموت، وهذا لأهل المعاينة ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، يعني: يوم القيامة، وهذا لأهل البرزخ ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وهو اليأس الذي يقع عنده من الدُّنيا اليأس من طلوع الشمس من مغربها، وهو آخر التوبة، ويؤمن معه كلُّ كافر، فقال سبحانه:

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، أي: من قبل المعاينة ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، قيل: التوبة، وهو الوقت الذي قال الله تعالى، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، يعني: طريقته وشأنه الذي مضى في الخلق لا تبديل له ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

* * *

الفصل الثلاثون

في الإِخلاصِ وشَرْحِ النِّيّاتِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنِّيَّات وإنما لكل امرىء ما نوى»[1].

فينبغي أن يكون للعبد في كلِّ شيءٍ نيَّة حسنة حتى في مطعمه، ومشربه، وملبسه، ونومه، ونكاحه، إذْ لو لم يكن له ذلك كان في الدُّنيا على مثال الأنعام التي تتصرف عن غير عقول.

فالنية الصالحة هي أول العمل الصالح، وهو مكان الجزاء، وإنما يكون للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله تعالى له من النيّات، فربما اتفق في العمل الواحد نيّات كثيرة على مقدار ما يحتمل من النيَّة، فيكون للمرء بكل نيَّة حسنة.

وصورة النيَّة معنيان: صحةُ قصد القلب إلى العمل بحسن التيقُّظ فيه، والإِخلاصُ به لوجه الله تعالى ابتغاء ما عنده من الأجر.

فكل عمل كان على علم بهذه النيَّة فهو صالح متقبَّل بفضل الله تعالى ورحمته؛ لأنَّ صاحبه قد اتَّقى الشِّرك والجهل والهوى، فعمله مرفوع في الخزائن، مدَّخر له الجزاء.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ١٢٩).

وحقيقةُ الإِخلاص سلامته من وصفين، وهما: الرِّياء، والهوى؛ ليكون خالصًا، كما وصف الله تعالى الخالص من اللبن، فكان ذلك تمام النعمة علينا، فقال: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ [النحل: ٦٦]، فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصًا، ولم تتم النعمة به علينا، ولم تقبله نفوسنا، فكذلك معاملتنا لله عزَّ وجلّ، إذا شابَها رياءٌ بخلق أو هوى من شهوة نفس لم تكن خالصة، ولم يتمّ بها الصدق والأدب في المعاملة، ولم يقبلها الله تعالى منّا فاعتبروا.

وكذلك جاء في الخبر ــ وهو أصل من أصول الدِّين ــ قول ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنِّيَّاتِ، ولكُلِّ امرىءٍ ما نوى، فمن كانت هِجْرتُهُ إلى الله ورسوله فهِجْرَتُه إلى الله ورسوله. ومنْ كانتْ هِجْرَتُه إلى دُنيا يُصيبُها أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُها فهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إلَيْهِ». فأخبر أنْ لا عمل إلاَّ بالنيَّة، ثُمَّ جعلَ لكُلِّ عبدٍ نيَّةً، ثُمَّ رَدَّ طالبـي الدُّنيا والأزواجِ إلى نيّاتهم، وحكم عليها بها، وجعلها نصيبهم من الله تعالى، وفق ذلك لهم أو لم يوفقه، فبطلت هجرتهم بفساد نيّاتهم، وصارت همَّتهم بدنياهم وهواهُمْ سببَ حرمانهم ما أعد للمخلصين بحسن نيّاتهم وطلب آخرتهم من الثواب العظيم.

والنيَّة عند قومٍ: الإِخلاص بعينه، وعند آخرين: الصِّدق، وعند الجملة: إنها صحَّة العقد، وحُسن القصد.

فينبغي للعبد أن يكون له نيَّةٌ خالصةٌ في جميع تصرُّفه، فليجعل جميع ذلك لله تعالى، وفيه بعقدٍ واحدٍ إمَّا حبًّا له وإجلالاً له، وإمَّا خوفًا منه أو رجاءً له، أو لأجل ما أمره به، فينوي أداء الفرائض أو لما ندبه، فينوي المسارعة إلى الخير وفيما أُبيح له، فتكون نيَّته في ذلك صلاحًا

لقلبه واستقامة حاله، وذلك كله لأجل الدِّين، وعدَّة الآخرة، لا وقوفًا مع طبع ولا جَرْيًا على عادة.

وقد تختلف النيَّات لاختلاف المقاصد، فيصير ما كان بعدًا قربًا بحسن النية، وما كان حسنًا سيِّئًا لسوء النيَّة به، من ذلك أنَّ داود المحبَّر[1] لما صنّف كتاب «العقل»، جاء أحمد بن حنبل فطلبه منه، فنظر فيه أحمدُ صفحًا، ثُمَّ ردَّه إليه، فقال: ما لك؟ قال: فيه أسانيد ضعفاء. فقال له داود: أنا لم أخرجه على أسانيد، فانظر فيه بعين الخبر، إنما نظرت بعين العمل فانتفعت به، قال أحمد: رُدَّه عليّ حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت بها. فرده عليه، فمكث الكتاب عنده طويلاً حتى اقتضاه إياه ابن المحبَّر، ثُمَّ ردَّه عليه، وقال: جزاك الله خيرًا، قد انتفعت به منفعة بيِّنة.

وقد قال بعض الأدباء: من لم يشكر لك حسنَ النيَّة فيه لم يشكر لك حسن الصنيعة إليه. وأنشدوا في معناه:

لأشكـرنَّـك معـروفـًا هممـت بـه ... إنَّ اهتمامكَ بالمعروفِ مَعْروفُ

ولا أَلــومــك إذْ لــم يمضــه قــدرٌ ... فالشيء بالقدر المكتوب مَصروفُ

ولو لم يكن في تجديد النيَّة الحسنة وتفقد الهمَّة العالية إلاَّ أنَّ صاحبها لا يزال عاملاً من عمَّال الله تعالى بقلبه وهمّه ـ وإن لم يساعده القدر على الأفعال بجوارحه ـ لكَفَىٰ.

وفي الحديث: لمّا خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال: «إنَّ بالمدينة أَقْوامًا ما قَطعْنا واديًا، ولا وطئنا موْطئًا يغيظ الكفّار، ولا أنفقنا نفقةً ولا نُصِبْنا نَصَبًا، ولا أصابتنا مخمصةٌ، إلاَّ شركونا في ذلك، وهم

---

(١) بمهملة وموحدة مشددة مفتوحة: البصري، نزيل بغداد. متروك. وأكثرُ كتاب «العقل» الذي صنَّفه موضوعات. مات سنة ٢٠٦هـ. من التقريب. (المختصِر).

بالمدينة». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: «حَبَسَهُم العُذْر»[1]، أي: فشركوا أولئك بحسن النيَّة.

وفي الخبر: «مَنْ تَزَوَّجَ امرأةً على صَدَاقٍ، وهو لا يَنْوي أَدَاءَهُ، فهو زانٍ، ومن ادَّان دينًا وهو لا يَنْوي قضاءَه فهو سارقٌ»[2].

وقد ضرب النبـي ﷺ مثل القلب بالملك، والجوارح بجنوده، قال: «فإذا صَلُح القَلب صَلُح الجَسد، وإذا فَسَدَ فَسَدَ الجَسَد»[3]. معناه إذا صلحت للعبد نيَّته دامت للعبد استقامته، وإذا فسدت نيَّته فسدت أعمال جوارحه.

وقال أبو عبيدة بن عقبة: من سرَّه أن يكمل عمله فليحسن نيَّته؛ فإنَّ اللّـٰهَ عزَّ وجلّ يأجُر العبد إذا حسُنت نيَّته حتى باللقمة.

وقال داود الطائي: رأيت الخير كلّه يجمعه حسن النيَّة، فكفاك به خيرًا وإن لم ينصَب.

وأصل ذلك كلِّه قول النبـي ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنِّيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى». وقوله صلوات الله عليه وسلامه: «إنَّ اللّـٰهَ تعالى لا يَنْظُر إلى صُوَرِكم وأموالكم، ولكن إنَّما يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُم وأعمالِكُمْ»[4].

* * *

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٨/ ١٢٦)، ومسلم (٣/ ١٥١٨) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٢) من حديث صهيب بن سنان، وإسناده ضعيف؛ فيه راوٍ لم يُسَمَّ.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٢٦)، ومسلم (٣/ ١٢١٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٧) من حديث أبـي هريرة.

الفصل الحادي والثلاثون

في آدابِ الأطْعمةِ

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، أمر بالأكل من الطيِّب إرشادًا لارتياد الحلال، وقرنه بالشكر لذكرَى المنعم وإحسانه.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨]، زجرًا عن أكل الحرام.

وقال ﷺ: «إنَّ الرجل ليؤْجَرُ حتى في اللقمة يرفعها إلى فيِّ امرأته»(١). وسُئل ﷺ: ما الإيمان؟ فقال: «إطعامُ الطَّعام، وبَذْلُ السَّلام»(٢).

وقال ﷺ في الكفَّارات والدرجات: «إطعام الطعام، وإفشاء السَّلام، والصَّلاة باللَّيل والنَّاس نِيام»(٣).

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٩/ ٤٩٧)، ومسلم (٣/ ١٢٥٣) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (١/ ٥٥)، ومسلم (١/ ٦٥) من حديث عبد الله بن عَمْرو.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٥)، وابن حبان (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة، وإسناده صحيح.

وكان ابن عمر يقول: مِن كرم الرجل طيبُ زاده في سفره، وبذله لأصحابه.

وعن عليّ رضي الله عنه: لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحبّ إليَّ من أن أعتق رقبة.

وعن النبي ﷺ قال: «إذا وضع الطعام، وأُقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء قبل الصلاة»[1]. فكان ابن عمر ربَّما سمع الإقامة وقراءة الإمام فلا يقوم من عشائه.

وكان سهل يقول: من لم يحسن أدب الأكل لم يحسن أدب العمل.

قال الإمام أبو طالب المكي رضي الله عنه: والأكل يشتمل على مائة وسبعين خصلةً، ما بين فرض وسنَّة وأدب وفضيلة واستحباب وكراهة ومروءة وفتوَّة، من طريق السلف وصنائع العرب.

فمن ذلك: وهو أوَّل خصاله أن يكون المأكول حلالاً، وعلامة الحلال ثلاث: أن تكون عينه معروفة لم يخالطها عينٌ ذَمَّها العلمُ من ظلم وخيانة. وأن يكون سببه مباحًا لم يحتوه بسبب محظور في الشرع لأجل هوى أو مداهنة في دِين ودُنيا، وأن يكون قد وافق فيه حكمَ السُّنَّة، فلا يكون على وصف مكروه.

ثُمَّ ينوي بالأكل التقوِّي على البرِّ والتقوى، ويعرف في النعمة أنَّها من المنعم وحده لا شريك له فيها، ويعتقد الشكر له عليها، ويؤثر التقلل على الاتِّساع، والأدب فيه على الشَّرَه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠٣).

ثُمَّ غسل اليد في أوله وفي آخره. والتسمية في أوله. والحمد في آخره. والأكل باليمين. وأن لا يذمّ مأكولاً، ولا يعيبه؛ إن أعجبه أكل وإلاَّ تركه. والرضا بالموجود من الرزق. وأن تَكْثُرَ الأيدي على الطعام. وتصغير اللقمة. وتجويد المضغ. وأن لا ينظر في وجوه الآكلين، ولا يتفقَّد مأكلهم، ولا يأكل متَّكئًا ولا مضطجعًا، ولا يكون أوَّل من يبتدىء بالأكل حتَّى يسبق صاحب المنزل والأكبر فالأكبر، إلاَّ أن يكون إمامًا يُقتدى به، أو يكون القوم منقبضين فيبسطهم بالابتداء، ولا يجمع بين التمر والنَّوى في طبق، ولا يجمعهما في كفّه، وليضع النواة على ظهر كفه من فيه ثُمَّ يلقيها، وكذلك ما كان في معناه مما له عَجَمٌ أو ثُفْلٌ[(١)]، ولا يقرن بين تمرتين، وأن يأكل بعد الجوع، ويرفع يده قبل الامتلاء.

قال حكيم: إنَّ الدواء الذي لا داء فيه هو أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيَه، وترفع يدك عنه وأنت تشتهيه.

وليأكل مما يليه إلاَّ الفاكهة، فله أن يجيل يده فيها. وأن لا يصمتوا على الطعام فإنه مقبض للصدر، وليتكلَّموا بالمعروف. وأن لا يُكْثِرَ قولَ: «كُلْ» على أخيه؛ فإنَّ ذلك يحشمه وربما قطعه. ولا ينبغي لأخيه أن يحوجه إلى تفقُّده في الأكل وتكرير قوله له: كُلْ. ولا يدع شيئًا من المأكول يشتهيه لأجل نظر الغير إليه فإنه من التصنع، فإن تركه إيثارًا لإخوانه أو قدَّمه إلى أخيه فحسن، ولا ينقص من أكله المعتاد في الوحدة، وإن زاد لأجل مساعدة الجماعة، أو بنيَّة فضل الأكل مع الإخوان فلا بأس بذلك.

---

(١) انظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ٢١٦).

ومن اللطائف قول بعضهم: الحلاوة بعد الطعام خيرٌ من كثرة الألوان، والتمكُّن على المائدة خير من زيادة لونين.

وقال آخر: شرب الماء البارد على الطعام خير من زيادة الألوان.

وقال أبو سليمان الداراني: أكل الطيِّبات يورث الرضا عن الله تعالى.

وقال المأمون: شرب الماء بثلج يخلص الشكر لله عزَّ وجلّ.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ كانَ يُؤمنُ باللّهِ واليومِ الآخرِ فليُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1]. ومن إكرام الضيف تعجيل الطعام لهم، وأفضل ما قُدِّمَ إليهم اللحم، وخير اللحم السمين النضيج، فإن كان بعد اللحم حلاوةٌ فقد جمع لهم الطيبات. ينظم هذه المعاني قوله عزَّ وجلّ: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٤]، قيل: في المكرمين قولان: أحدهما: خدمته إياهم بنفسه. والثاني: أكرمهم بتعجيل الطعام إليهم. وقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود: ٦٩]، أي: فما احتبس ولا أقام، والحنيذ: النضيج. وقال تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٦]، الروغان: الذهاب بسرعة. وقيل: الذهاب بخِفْية. وقيل: إنه جاء بفخذ من لحم، فسمِّي عجلاً لأنه عجَّله، ولم يلبث به. وقال في وصف الطيِّبات: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٥٧]، المنّ: العسل. والسلوى: اللحم.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [طه: ٨١]، فاللحم والحلاوة من طيِّبات الرزق.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٣٦)، ومسلم (١/ ٦٨) من حديث أبـي هريرة.

وليأكل الرجل في منزل أخيه سجيَّةَ أكلِه في منزله، بغير تكلُّف ولا تزيُّن؛ لأنه قد يدخل من الرِّياء والتزيُّن في الطعام مثل ما يدخل في سائر الأعمال.

ولتكن نيَّته مع إخوانه إكرامهم بذلك، وإدخال السرور عليهم، والتبرُّك بالجماعة. وليسمِّ الله تعالى في أول لقمة، وليشرب الكوز في ثلاثة أنفاس، ولا يرفع يده قبل إخوانه، إذا كانوا يحتشمون أو يحتاجون إلى بسط، فإن كان قليلَ الأكلِ، تَرَبَّصَ حتى يضعوا أيديهم فيأكلوا صدرًا من الطعام، ثُمَّ يقعد بعدهم ليستوي أكله مع أكلهم.

ولا يتكلَّف لإخوانه من المأكول ما يثقل عليه ثمنه، أو يأخذه بدين، أو يكتسبه بمشقَّة أو من شبهة، ولا يدخر عنهم ما بحضرته، ولا يستأثر بشيء دونهم، ولا يضر بعياله.

ويكره أن يقصد الرجل قومًا يتحيَّن حضور طعامهم ليصادفه؛ فإنَّ ذلك من المفاجأة، وقد نهي عنه؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، يعني: منتظرين حينه ونضجه. ولكن إن صادفهم يأكلون فسألوه أن يأكل معهم، وعلم أنهم يحبون أكله معهم، فلا بأس، وليس ذلك داخلاً في المفاجأة. فإن لم يعلم أنهم يحبون أن يأكل معهم ــ وإنما قالوه حياءً ــ كره له الأكل معهم. وإن كان جائعًا فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتحيَّن وقت أكله فلا بأس بذلك.

ويُستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إذا انصرف إلى باب الدار.

ويكره أن يخرج الضيف من المنزل من غير إذن صاحبه، وأن يقيم ضيفًا فوق ثلاثة أيَّام حتى يحرجه أو يتبرَّم به.

وكان السَّلف ينهون عن التكلُّف ويقولون: لا ندري أيهما أعظم وزرًا، الذي يحتقر ما يقدَّم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه؟

ولا ينبغي للمدعوّ أن يقترح على الداعي شيئًا بعينه، فيقول: أريد كذا. إلاَّ إذا كان اقتراحه عليه مما يحبّه فلا بأس بذلك؛ فقد فعله الشَّافعي مع الزعفراني رحمهما الله تعالى، كان نازلاً عليه ببغداد، فكانا يخرجان يوم الجمعة إلى الصَّلاة، فكان الزعفراني يكتب في رقعة للجارية ما تُصْلِحُ من الألوان، فدعا الشافعي ذات يوم الجارية فنظر فيها، ثُمَّ زاد لونًا اشتهاه، فلما جاء الزعفراني وقدَّمت الجارية ذلك اللون أنكره، إذ لم يأمرها به، فسألها عنه، فأخبرته أنَّ الشافعي زاد ذلك في الرقعة، فقال: أريني الرقعة، فلما نظر إلى خط الشافعي في الرقعة بذلك اللون فرح بذلك وأعجبه، فقال: أنت حرَّة لوجه الله تعالى. فأعتقها سرورًا منه بفعل الشَّافعي ذلك. وإليه نسب درب الزعفراني في الجانب الغربي من بغداد.

ولا بأس بالخِلاَل بعد الأكل، وكذلك لا بأس بغسل اليد في الطست، وليس من الأدب التنخم فيه.

وحُكي أنَّ هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير، فصبَّ الرجل على يده في الطست، فلما فرغ قال له: يا أبا معاوية، أتدري من صبَّ على يدك؟ قال: لا. قال: أمير المؤمنين. قال: يا أمير المؤمنين، إنما أكرمت العلم وأجللته، فأجلَّك الله عزَّ وجلّ وأكرمك كما أجللت العلم وأكرمته.

وليقل عند فراغه من الطعام: الحمدُ للّه الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا.

وكان السلف لا يجيبون دعوة من يباهي بطعامه، وكرهوا أكل طعام المباهاة والمباراة، كما كرهوا أن يقدمه المرء لإخوانه بهذه النيّة؛ لأنَّه قد عرَّضهم لتناول ما يكرهون، ودلَّس عليهم ما لا يعلمون، وأيضًا فإنه شيء قدم لأجل الله تعالى فلا يصلح أن يَستثني ارتجاع شيء منه، بمنزلة من يخرج شيئًا إلى السائل فيجده قد انصرف، فكره أن يرجع فيه فيأكله، بل يعزله حتى يأتي سائل آخر فيدفعه إليه.

وينبغي أن يعزل أنصبة أهل البيت قبل تقديم الطعام إلى إخوانه، لئلاّ يرجع شيء منه فيكون ذلك مضرًّا بالأهل.

ولا ينبغي أن يقدم إلاَّ ما يحب أن يأكلوه من كل شيء، ومقدار الحاجة والكفاية من المأكول فيجمع بين السُّنَّة والفضيلة.

ومن دعا رجلاً في غير دعوةٍ عامةٍ وعنده قوم أو رجل بعينه فليعلمه بمن عنده؛ ليدخل على بصيرة، فلعل أن يكون عنده من يكره هذا المدعوّ الاجتماع معه أو لعله أن يجيبه؛ لأنه يحسب أن ليس عنده غيره؛ لأنَّ الأكل معاشرة، وليس كلّ إنسان يحبّ أن يعاشر كل أحدٍ، خاصةً الرؤساء.

ومن دعا أخاه فكره الحضور فلا يُلِحَّنَّ عليه، وقد قالوا: لا تُكرم أخاك بما يشق عليه، ولا تزيدنَّ على ثلاث مراتب، فإنَّ الإلحاح واللجاج ما زاد على ثلاث مرَّات، وليس ذلك من الأدب.

وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يقول: الطعام أهون من أن يحلف عليه.

وكان الحسن وابن المبارك إذا أرادا الغداء أو العشاء فتحا بابهما، فمن دخل عرضا عليه الأكل.

وقد كان هذا من سيرة السلف، أنهم يفتحون الباب عند حضور الطعام، ومن صادف دخوله أكل معهم، ومنهم من كان يقعد في دهليز داره، ويفتح الباب، فكل من مرَّ عليه في الطريق دعاه إلى طعامه.

ومن دعا رجلاً إلى طعامه وهو يعلم أن الأحب إليه أن لا يأكل، فمكروه له أن يأكل، ولا يعبأ بقوله إذا علم منه خلافه، فإن لم يعلم حقيقة ذلك فله أن يجيبه على ظاهر قوله، وليس له أن يسيء الظن به.

ومن علم من أخيه أنه يحبّ أن يأكل من طعامه فلا بأس أن يأكل بغير إذن؛ لأنَّ علمه بحقيقة حاله ينوب عن إذنه له في الأكل، وكان من عذل في ذلك يتلو آية الأكل، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. قال الحسن: الصديق من استروحت إليه النفس واطمأنَّ إليه القلب.

وليحذر عادة المتكبِّرين الذين لا يجيبون الدعوات، حتى قال قائلهم: أنا لا أجيب دعوة. قيل: ولم؟ قال: انتظار المرقة ذلّ.

وقال آخر: إذا وضعت يدي في قصعة غيري ذلَّت له رقبتي، ومن المتكبِّرين مَن لا يجيب الفقير ويجيب الأغنياء لعظمهم في عينه.

ومن أبناء الدُّنيا مَن لا يجيب إلاَّ نظراءَه وأشكاله من مثل طبقته

ومرتبته في الرئاسة في الدُّنيا. وهذا على خلاف سنَّة رسول الله ﷺ من أفعاله؛ أنه كان يجيب دعوة المسكين ويجيب دعوة العبد، ومن قوله: «بِئْسَ الطَّعام الوليمة يُدعى إليها الأغنياء، ويُتْرك الفُقَراء»(١).

وإن دعاك أخوك وأنت صائم، فعلمت أنه يسرّ بأكلك، فلا بأس أن تفطر لأجله. وإن أكلت مع أخيك تريد إكرامه بذلك فهذه نيّة صالحة. وقالوا: تُحفة الصائم الدُّهن والمجمرة، فيستحب لمن كان صائمًا فحضر ولم يأكل، أن يطّيب ويحيَّـى فذاك زاده.

ومن الأدب أن لا يُنْتَظَر بالطعام غائب إذا حضر جماعة، ولكن يأكل من حضر؛ فإنَّ حرمة الحاضر مع حضور الطعام أوجب من انتظار الغائب.

فأما طعام المآتم فهو على ضربين: نوعٌ، مَن يصنعه أهل الميت، للنوائح والبواكي ومن يعينهم على الجزع، فأكل هذا مكروه منهيّ عنه. ونوعٌ يحمل إليهم لشغلهم عن أنفسهم وإصلاح طعامهم بميّتهم، فهذا لا بأس به وبحمله إليهم، ويجوز الأكل منه إن أطعموه غيرهم؛ لأنه من البرِّ والمعروف إن لم يُرَدْ به النوائحُ ولا المجالسة على القبور للجزع والأسى.

وقد رُوِّينا عن رسول الله ﷺ أنه قال لمّا جاء نعي جعفر بن أبي طالب: «إنَّ آلَ جعفر شُغلوا بميتهم عن صنيع طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون»(٢). فهذا سنَّة في حمل الطعام إلى أهل الميت.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٥٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٥)، وأبو داود (٣١٣٢)، والترمذي (٩٩٨)، وابن ماجه (١٦١٠)، والحاكم (١/ ٣٧٢)، والبيهقي (٤/ ٦١) من حديث عبد الله بن جعفر، وحسّنه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٩).

وقد روى أبو بكر المروزي: أنه دخل على أبـي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله، وقد حذق ابنه، وقد اشترى جوزًا يريد أن يعدَّه على الصبيان يقسمه عليهم[1]. ولا يحرم نثر الدراهم والسكَّر وغيرهما في العرس والحذاق ونحوهما، وكرهه بعض السلف لمحاكاته النهبة.

ولا بأس بقرض الرغيف والخمير.

وممَّن لا تجاب دعوتهم: آكلُ الرِّبا، والفاسق المعلِن بفسقه، ومن كان الأغلبُ على ماله الحرامَ، ولم يرتدع عن الآثام، في معاملته الأنام.

ومن أكره على طعام حرام فليأكل ما يسدّ رمقه، وما يخاف التلف بنفسه إن هو فارقه.

وقد كان بشر بن الحارث يقول في الأكل من الشبهات: يد أقصر من يد، ولقمة أصغر من لقمة.

* * *

---

(١) مثله الآن ما يهيء يوم ختم الولد القرآن من صرر الحلوى لتوزَّع على الأولاد في المدرسة أو في دار الخاتم، فلا بأس به، ويدلّ على أنَّ هذا الإعداد من سنَّة السلف الصالح. اهـ. (المختصِر).

الفصل الثاني والثّلاثون
في آدابِ المُسَافِرِ

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [النمل: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

فمن سار فكانت له بصيرةٌ اعتبر وعقل، ومن مرَّ على الآيات فنظر إليها منها تذكَّر وأقبل.

وقد أمر سبحانه وتعالى بالمشي في مناكب بساطه والأكل من رزقه، بعد إظهار نعمته بتذليل مهاده، فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]. قيل: في أسواقها. وقيل: قُراها. وقيل: جبالها.

وكان بشر الحافي يقول: يا معشر القرّاء، سيحوا تطَّيَّبوا، فإن الماء إذا كثر مقامه في موضع تغيَّر.

قيل: إنما سُمِّي سفرًا؛ لأنه يسفر عن أخلاق النفس، وأيضًا يسفر عن آيات الله تعالى سبحانه وقُدَره وحِكَمه في أرضه.

فإذا عزم على السَّفَرِ فليصلِّ ركعتي الاستخارة، وليعقد التوكُّل على الله عزَّ وجلّ. ولْيَنْوِ في سفره الاعتبار بالآثار، والنظر إلى الآيات بالاستبصار. والابتغاء من فضل الله سبحانه فيما ندبه إليه من الأسباب، واستصلاح قلبه، ورياضة نفسه، وامتحان أوصافه؛ ليعرف خفايا نفسه ومكافّها.

فإن خرج سائحًا في طلب العلم؛ فقد جاء ذلك في تفسير قوله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. قيل: في طلب العلم. وقيل: هم طلبة العلم.

وقد كان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد.

وقال الشعبي: لو سافر رجل من الشَّام إلى أقصى اليمن في كلمة تدل على هُدى، ما رأيت أنَّ سفره كان ضائعًا.

ورحل جابر بن عبد الله من المدينة، وغيره من الصَّحابة إلى مصر، فسار شهرًا في حديث بلغه عن عبد الله بن أُنيس الأنصاري، يحدِّثه عن رسول الله ﷺ حتى سَمِعَهُ(١).

وفي الحديث: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يلتمسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّـهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٠) وغيرهما، بإسناد حسنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/ ١٧٤)، وقد أفرده بالتصنيف الحافظ ابن ناصر الدِّين الدمشقي، وهو مطبوع.

عزَّ وجلّ لَهُ طَرِيقًا إلى الجنَّةِ»[1].

وسافر بعض السلف إلى قرية في رُخْص، فسُئل عن ذلك، فقال: إذا بلغك عن قرية فيها رخص فأَقِمْ بها؛ فإنه أسلم لدينك وأقلّ لهمّك.

وكان سريّ السقطي يقول لأصحابه: إذا خرج الشتاء ودخل آذار، وأورقت الأشجار، فقد طاب الانتشار.

ومن أفضل الأسفار ما خُرج له في سبيل الله عزَّ وجلّ: من الجهاد، والحج، والرِّباط، وزيارة الأخ في الله عزَّ وجلّ.

ومن قصد في سفره أحد المساجد الثلاث المندوب إليها لشدّ الرحال فهو أفضل، المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد بيت المقدس.

وإن سافر طلبًا للحلال وهو يأمن طعمة الحرام فذانك له قربتان، وقد فعله صالحو السَّلف في كُلِّ زمان.

وليكن العبدُ في سفره مراعيًا لهمّه، حافظًا لقلبه من التشتت والطمع في الخلق والتعرُّض للمسألة.

وليلة الضيافة واجبة؛ وفي الحديث: «الضِّيافَةُ حَقٌّ»[2].

والمسافر هو ابن السبيل الذي أوجب الله حقه في الأموال؛ لأنَّ

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٦٣)، وفي «الأوسط» كما في «مجمع البحرين» (٢٩١٨) من حديث التّلب بن ثَعلبة. وقال الحافظ المنذري في «الترغيب» (٣/ ٣٤٩): «بإسناد فيه نظر»، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٧٦): «وفيه من لم أعرفه».

السبيل هو الطريق، وراكبها ابنها؛ لأنه صاحبُ طريقٍ وسالكُه.

وليس عليه في الثواء عند أخيه المسلم ثلاثةَ أيام شيءٌ؛ لأنه مقيم على ما أُبيح له.

وقال رسول الله ﷺ: «الضيافة ثَلاثَةٌ، فما زاد فهو صَدَقَةٌ». وفي رواية: «ولا يُقِمْ فوق ثلاث؛ فيحرجَه»(١)، أي: يضيق عليه، فإن سألوه الإقامة فوق ثلاث، أو علم أنهم يحبون الإقامة فلا بأس بذلك.

وليحافظ على صلاته في أوقاتها بحسن طهارة وجميل أداء.

وفي السفر كشف لأخلاق العبد.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للرجل الذي زكَّى عنده رجلاً لما سأله عنه ليقبل شهادته، فقال له: صحبته في السفر الذي يستدلّ به على مكارم الأخلاق؟ فقال: لا. قال: ما أراك تعرفه.

وعن بعض السَّلف: إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكّوا في صلاحه إذ ذاك؛ لأنَّ السفر يسيء الأخلاق، ويكثر الضجر، ويخرج مكامن النفس من الشحّ والشره.

وكل من صلُحت صُحبته في السَّفر صلحت صُحبته في الحضر، وليس كلُّ من صُحِبَ في الحضر صلح أن يُصحب في السفر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٤٥)، ومسلم (٣/ ١٣٥٣)، والترمذي (١٩٦٨)، من حديث أبي شريح الخُزاعي وفيه: «... الضِيافَةُ ثلاثة أيامٍ، فما كانَ بعد ذلك فهو صَدَقَةٌ، ولا يَحِلُّ له أنْ يثوي عِنْده حتَّى يُحْرِجَهُ».
ومعنى «يثوي» أي: يقيم عنده حتى يشتدَّ على صاحبه فيحرجه ويُضيق عليه.

وقال بعض السلف: ثلاثة لا يلامون على الضجر: الصائم، والمريض، والمسافر.

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يُسافر الرجل وحده[1]؛ لأنَّ الأسفار والنُّزَه لا تطيب إلاَّ في جماعة، فإذا كانوا بقلب واحد على حال واحد فهو حسن، وفيه معاونة على البرّ والتقوى.

قال الله عزَّ وجلّ فيمن منعه النصرة وحرمه منه الصحبة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٣]، فمن نصره الله على نفسه فقد صحبه، ومن لم يصحبه سلط عليه نفسه وسخَّره لها.

وجملة الأمر أنَّ السفر عمل من الأعمال، يحتاج إلى نية وإخلاص، فمنه فرض، وهو ما هرب به من معصية، ومنه فضل، وهو: ما طلب به طاعة. ومنه مباح، وهو: ما ضرب به في تجارة، ومنه معصية، وهو: ما سُعِيَ به في فساد.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٩١) من حديث ابن عمر، وصححه الحافظ العراقي (٢/ ٢٥٢)، وأصله في البخاري (٦/ ١٣٧).

الفصل الثالث والثلاثون
في حُكْمِ الإمامِ وَوَصْفِ الإمامَةِ والمأْمُوم

أول ما على الإمام من الشروط: أن يكون مجتنبًا للفسوق والكبائر وغير مصرّ على الصغائر، قارئًا لكتاب الله عزَّ وجلّ أو لما يُحْسِن منه بغير لحن ولا إحالة معنى، عالمًا بفرائض الصلاة وسُننها، وما يفسدها، وما يوجب السهو وما لا يوجبه منها، وإن حدثت عليه حادثة في الصلاة، أو ذَكَرَ أنه على غير وضوء ورِعَ واتقى الله عزَّ وجلّ، وخرج من صلاته، وأخذ بيد أقرب الناس منه فاستخلفه في مقامه.

وليكن الإمام مأمونًا على طهارته بأكمالها، مأمونًا في صلاته بإقامتها، مخلصًا بالإمامة يريد بها وجه الله تعالى وما عنده، وعليه أن يراعي أوقات الصلوات؛ ليصلِّي في أوائلها، فيدرك رضوان الله عزَّ وجلّ.

وليتم الركوع والسجود والاعتدال والقعود بينهما؛ فيكون ذلك قريبًا من السواء، معتدلاً كله، حتى يدرك من وراءه من الضعفاء والمرضى، فتلك كانت صلاة رسول الله ﷺ.

وعلى المأموم: أن يكبِّر ويركع ويسجد ويرفع ويضع بعد الإمام، ولا يخرّون سُجَّدًا حتى تقع جبهة الإمام على الأرض وهم قيام، ثُمَّ

يخرّون بعده، كذلك كانت صلاة الصحابة خلف رسول الله ﷺ[1].

ولا يكبِّر الإمام حتى يعتدل الصف وراءه، وليلتفت يمينًا وشمالاً، فإن كان أعوج أشار بيده، وإن رأى خللاً أمر بسدّه؛ فإنَّ تسوية الصف من تمام الصلاة. وكانوا يحاذُون بين المناكب ويتضامُّون في الكعاب[2].

والإطالةُ في قراءة الفجر والتغليسُ سنَّة، وقال أنس: كان رسول الله ﷺ مِن أخفِّ الناس صلاةً في تمام[3]، ثُمَّ قال أيضًا: «كان رسول الله ﷺ يأمر بالتخفيف في الصلاة، ويقول: إذا صلَّى أحدكم بالناس فليخفف؛ فإنَّ فيهم الكبيرَ والضعيفَ وذا الحاجة»[4].

وليسبِّح في ركوعه وسجوده سبعًا، أو خمسًا؛ ليدرك من وراءه ثلاثًا؛ لأنهم يركعون ويسجدون بعده.

وللإمام إذا أحسّ بداخل وهو راكع أن ينتظره؛ ليدرك معه الركوع.

وللمؤذن أن ينتظر الإمام، وليس على الإمام والمأموم انتظار المؤذن إذا دخل الوقت.

والصلاة في أوَّل وقتها أفضل من انتظار الجماعة لها؛ وقد تأخَّر رسول الله ﷺ من صلاة الفجر، وكانوا في سفر، وإنما تأخَّر للطهارة، فلم ينتظروا وقدَّموا عبدَ الرحمنِ بنَ عوف فصلَّى بهم، حتى فاتت

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٥)، ومسلم (١/ ٣٤٥) من حديث البراء.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٦)، وأبو داود (٦٦٢)، من حديث النعمان بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٢٠١)، ومسلم (١/ ٣٤٢) من حديث أنس.

(٤) أخرجه البخاري (٢/ ١٩٩)، ومسلم (١/ ٣٤١) من حديث أبي هريرة.

رسول الله ﷺ ركعة، فقام يقضيها، قال: فأشفقنا من ذلك، فقال: «أَحْسَنْتم، هكذا فافعلوا»[1].

وتأخَّر ﷺ مرَّة في صلاة الظهر، فقدموا أبا بكر رضي الله عنه، حتَّى جاء وهم في الصَّلاة فقام إلى جانبِهِ[2].

ويسنُّ أن يقرأ في صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة السَّجدة، و ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾[3].

ويكره للإمام أن يخصّ نفسه بدعاءٍ دون مَن خلفه، فإن دعا في صلاته فليجمع بالنون، فيقول: نسألك ونستعيذك. ينوي بذلك نفسه ومن خلفه.

وإذا حضر أئمةٌ قُرّاءُ فليتقدَّم أفقهُهُم بالعلم، وإن اتفق رجلان، أحدهما قد جمع كل القرآن إلاَّ أنَّ الآخر أحسن تجويدًا وتثقيفًا لما يقرأه منه وليس يحفظ جميعه، فليقدم أقومهم قراءة إذا كان عالمًا بالصلاة.

ويُستحبّ للإمام إذا سلّم أن يسرع الانفتال بوجهه إلى الناس.

ومن سَمِعَ الأذان من مسجد وهو في طريق يمشي، فليدخل فليصل، ولا يؤخر إلى مسجد آخر، إلاَّ لأحدِ معنيين: أن يكون على يقين من لحوق إمام آخر أفضل من هذا، أو يكون يعرف هذا بفسوق. وإلاَّ فالصَّلاة مع أوّل مَن قام بها من المسلمين أفضل.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣١٨) من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ١٦٧)، ومسلم (١/ ٣١٦) من حديث سهل بن سعد.

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٩) من حديث ابن عباس.

ومن كان في جنبه مسجدان، فأولاهما بالصلاة فيه أقربهما منه، إلاَّ أن يكون له نيَّة في كثرة الخُطا إلى الأبعد، أو يكون إمام الأبعد هو الأفضل. وقيل: أقدمهما، ورُوي هذا عن أنس بن مالك وبعض الصحابة، أنهم كانوا يجاوزون المساجد المُحْدَثَةَ إلى العتق.

ويستحب للإمام أن يتحوَّل إذا صلَّى المكتوبة، فلا يصلي في موضعه نافلة، وفي الخبر المشهور أنَّه ﷺ لم يكن يقعد إلَّا قدر قوله: «اللَّهُمَّ أنتَ السَّلام ومنك السَّلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام»، ثُمَّ ينصرف[1].

وإن تحوَّل المأموم فصلَّى النافلة في غير مكان الفريضة ـ ولو بِقَدَمٍ ـ فحسن، فإن جلسا للتسبيح والدعاء فلا بأس.

* * *

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤١٤) من حديث ثوبان، وعائشة.

الفصل الرابع والثلاثون

في آداب الأُخوة والصُّحْبَة ومَحَبَّةِ الإخوانِ وأوصافِ المُحِبّين

ذكَّر الله عزَّ وجلّ عبادَه المؤمنين نعمتَهُ عَليهم في الدِّين، إذ ألَّف بينهم بعد أن كانوا متفرقين، فأصبحوا بنعمته إخوانًا، بالأُلفة متفقين، وعلى البرِّ والتقوى مُتعاونين، ثُمَّ ضَمَّ التذكرة بالنعمة عليهم إلى تقواه، وأمر بالاعتصام بحبله وهداه، ونهى عن التفرّق إذ جمعتهم الدار، وقرن ذلك بالمنَّة منه عليهم إذْ أنقذهم من شفا حُفرة النَّار، وقد جعل ذلك كله من آياته الدَّالة عليه سبحانه وتعالى، وسبله الواصلة بالهداية إليه، فقال في جمل ما شرحناه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد كانت المؤاخاة في الله تعالى، والصّحبة لأجله، والمحبة له في الحضر والسفر طرائق للعاملين؛ لما في ذلك من الفضل، ولما جاء فيه من الأمر والنَّدب، إذ كان الحبّ في الله عزَّ وجلّ من أوثق عُرى الإيمان، وكانت الأُلفة والصُّحبة لأجله، والمحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين.

وفي الخبر عنه ﷺ: «المُؤْمِنُ مَأْلفٌ، ولا خَيْرَ فيمَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ»(١).

وقال صعصعة بن صوحان لابن أخيه: خصلتان أوصيك بهما، فاحفظهما: خالِصِ المؤمنَ مخالصة، وخالِقِ الفاجرَ مخالقة، فإن الفاجر يرضى منك بالخُلقِ الحسن، وإنه لحق عليك أن تخالص المؤمن.

وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه قبله: إنا لَنَكْشرُ في وجوه أقوام وإنَّ قلوبنا لتلعنهم.

قال أبو طالب المكي رحمه الله: معنى هذا على التَّقية والمُداراة؛ ليدفع بذلك شرّه وأذاه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

وقد كان أفضلُ الحسناتِ إكرامَ الجُلساء، ومنه قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠]، قيل: بالرغبة والرهبة والحياة والمداراة. وكذلك معنى قولهم: خالص المؤمن وخالق الفاجر. فالمخالصة بالقلوب من المودَّة، واعتقاد المؤاخاة في الله عزَّ وجلّ، والمخالقة: المخالطة في المعاملة، والمبايعة وعند اللقاء.

قال محمد بن الحنفية ابن علي بن أبـي طالب رضي الله عنهم: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يَجِدُ من معاشرته بدًّا، حتى يجعل الله عزَّ وجلّ له منه فرجًا، فمعاملة غير التَّقيّ ومكالمته من أحوال الاضطرار، ومعاشرة التقيّ ومصافاته من حسن الاختيار.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٠)، والحاكم (١/ ٢٣)، من حديث أبـي هريرة بإسناد حسن.

وقد كانوا يتآخون ويتعارفون لمنافع الآخرة الباقية، لا لمرافقة الدُّنيا الفانية. وأفضل الأُخوةِ المحبَّةُ الدائمة، والأُلفة اللازمة؛ مِنْ قِبَلِ أنَّ الأخوةَ والمحبَّةَ عملٌ، وكلُّ عمل يحتاج إلى حُسْن خاتمة به، ليتم العمل فيكمل أجره.

ومن علامة التُّقى حُسْن المقال عند التفرُّق، وجميل البشر عند التقاطع، كما قال الحكيم:

إن الكـــريـــمَ إذا تقضَّـــى ودُّه   يُخفـي القبيـحَ ويظهـرُ الإحسـانـا
وتــرى اللئيــمَ إذا تَصَــرَّمَ حبلُــهُ   يُخفـي الجَميـلَ ويظهـر البهتـانـا

وقد كان أبو الدرداء يقول: معاتبة الصديق خير من فقده، ومن لك بأخيك كلِّه، هُنْ لأخيك ولِنْ له، ولا تطع الشيطان في أمره؛ غدًا يوافيه الموت فيكفيك فقده، كيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة تركت وصله.

وكان بعض السلف إذا مرَّ بقبور أخلائه ينشد:

أَلا حيِّـــي القبـورَ ومــن بِهِنَّــهْ   وجــوهٌ فــي التُّــراب أُحِبُّهُنَّــهْ
فلـــو أن القُبــورَ أَجَبْــنَ حيًّــا   إذن لأَجَبْنَنـــــي إِذْ زُرْتُهُنَّـــــهْ
ولكِـــنَّ القُبـــورَ صَمَتْـــنَ عنــي   فــأُبْــتُ بحســرةٍ مِــن عِنـدِهِنَّـهْ

وعن عليّ رضي الله عنه: أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأَبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه معناه: لا يكن حبك كلفًا وبغضك تلفا. قال أسلم قلت: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحببت فلا تكلَفْ كما يكلَف الصبيّ بالشيء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضًا تحب أن يَتْلَفَ صاحبك ويهلك.

وقال الأحنف: من حقِّ الصديق أن يحتمل له ثلاث: أن يجاوز عن ظلم الغضب، وظلم الهفوة، وظلم الدالة.

وفي الحديث: «لا تُمارِ أَخاكَ، ولا تُمازِحْهُ، ولا تَعِدْهُ مَوْعِدًا فَتُخْلِفَهُ»[1].

وفي خبر عن رسول الله ﷺ: «إنَّكُم لا تَسعُونَ النَّاس بأموالِكم، ولكن لِيَسعْهم مِنْكُم بَسْطُ وجوه، وحُسنُ خُلُقٍ»[2].

ولا تصح المحبة في الله عزَّ وجل إلَّا بما شرط فيها من الرحمة في الاجتماع، والخُلطة عند الافتراق، بظهور النصيحة، واجتناب الغيبة، وتمام الوفاء، ووجود الأُنس، وفقد الجفاء، وارتفاع الوحشة، ووجود الانبساط، وزوال الاحتشام.

وكان الفضيل يقول: إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأُخوة.

وقال الجنيد: ما تآخى اثنان في الله عزَّ وجل فاستوحش أحدهما من صاحبه واحتشم منه إلَّا لعلَّة في أحدهما.

وقال ابن عباس في وصيَّته لمجاهد: ولا تذكر أخاك إذا تغيَّب عنك إلَّا بمثل ما تحبّ أن تُذكر به إذا غبت، واعفه بما تحب أن تعفى به.

ومن حسن الوفاء في الإخاء أن يكون له ولأهله من بعده، كما كان له في حياته، وبه فُسِّرَ حديث: «اجتمعا على ذلك أو تفرقا»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٥) من حديث ابن عباس، وقال الحافظ العراقي (٢/ ١٨٠): «من حديث ليث بن أبـي سليم، وضعفه الجمهور».

(٢) تقدم تخريجه في (ص ١٠٧).

(٣) قطعة من حديث: «سبعة يظلمهم الله...»، وقد تقدم تخريجه (ص ٢١٥).

قال بعضهم: قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة. وكذلك كان السَّلف فيما ذكره الحسن وغيره، قالوا: كان أحدهم يخلف أخاه في عياله بعد موته أربعين سنة لا يفقدون إلاَّ وجهه، وكان منهم من إذا ادّان دينًا ثقيلاً يقضيه عنه أخوه وهو لا يعلم.

فمن حقيقة المؤاخاة في الله عزَّ وجلّ: إخلاصُ المودَّة له بالغيب والشَّهادة، واستواءُ القلب مع اللسان، واعتدال السرِّ مع العلانية في الجماعة والخلوة، فإذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأُخوة، وإن اختلف ذلك ففيه مداهنةُ الأُخوة.

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: إذا تغيَّر أخوك وحالَ عمَّا كان فلا تدعه لأجل ذلك؛ فإنَّ أخاك يعوجُّ مرّة ويستقيم أخرى.

وقال الحسن: أي الرجال المهذّب؟! وكان يقول: دارِ أخاك ولا تطع فيه حاسدًا فتكون مثله.

وعن رسول الله ﷺ: «شِرارُ عباد اللّـهِ المشَّاؤونَ بالنَّميمةِ، المُفَرِّقونَ بين الأحبَّةِ، الباغُونَ البُرَآءَ العَنَتَ»(١).

وكان بعضهم يقول: لقاء الإخوان مسلاة للهمّ ومذهبة للأحزان.

وعن عطاء كان يقول: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم، وإن كانوا نسوا فذكِّروهم.

وكان سعيد بن العاص يقول: لجليسي عَليَّ ثلاث: إذا دنا رَحَّبْتُ به، وإذا حدَّث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧) من حديث عبد الرحمن بن غنمة، وإسناده ضعيف؛ لإرساله وضعف شهر بن حوشب، وضعفه الحافظ العراقي (٢/ ١٨٥).

وكان الأحنف يقول: ثلاث خلال تجلب بهن المحبة، الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدَّة، والإنطواء على المودَّة.

وقال أكثم بن صيفي لبنيه: تقاربوا في المودة، ولا تتّكلوا على القرابة.

وأول ما تصحّ له المحبة في الله عزَّ وجلّ أن لا تكون لأجل معصية، ولا على حظٍّ من دُنياه، ولا لسبب موافقته على هواه، ولا لأجل ارتفاقه به اليوم لمنافعه ومصالحه في أحواله.

ولا يقدح في الأخوة لله تبارك وتعالى مثل أن يحبّه لحسن خلقه، وفضل أدبه، وحسن حلمه، وكمال عقله، وكثرة احتماله وصبره، أو لوجود الأُنس به، وارتفاع الوحشة منه، أو للأُلفة التي جعل الله بينه وبينه.

وحقيقة الحبِّ في الله عزَّ وجلّ أن لا يحسده على دُنيا، وأن يؤثره بالدُّنيا إذا كان محتاجًا إليها كنفسه. وهذان شرط الحب في الله عزَّ وجل اللذان ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، ثُمَّ وصف محبتهم، إذ كان يصف حقًّا ويمدح محقًّا فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩]، يعني: من دُنيا. والحاجة في هذا الموضع الحسد.

ثُمَّ قال عزَّ وجلّ في الشرط الثاني: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فهذا فصل الخطاب، وجملة نعت الأحباب، فينبغي أن يؤثر أخاه بنفسه وماله إن احتاج إلى ذلك، فإن لم يكن في هذه المنزلة وهو مقام الصديقين، فيساويه في حاله وهذا من مقام الصادقين، وهذا أقل منازل الأُخوة، وهو من أخلاق المؤمنين.

وإنما آخى رسول الله ﷺ بين الغنيِّ والفقير ليساوي الغني الفقير فيعتدلان.

وينبغي أن يقدِّمه على أهله وولده، وأن يحبَّه فوق محبتهم، ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه.

وقال بعضهم:

فلا تَصْحَبْ أخا الجَهْلِ ... وإيَّاكَ وإياهُ
فكم مِنْ جَاهِلٍ أَردى ... حليمًا حين آخاهُ
يُقاسُ المرءُ بالمرء ... إذا ما هوَ ماشاهُ
وللشيء من الشيءِ ... مقاييسٌ وأَشْباهُ
وللقلب على القلبِ ... دليلٌ حين يلقاهُ

ثُمَّ قال أبو طالب المكي رحمه الله: وروِّينا عن الحسن بن علي رضي الله عنهما في وصف الأخ كلامًا رَجَزًا جامعًا مختصرًا:

إن أخاكَ الحقَّ من كان معكَ ... ومن يضرّ نفسه لِينْفَعَك
ومن إذا رَيْبُ الزَّمان صَدعك ... شتّتَ شملَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَك

ولا تصح صحبة فاسق على فسوقه، وقد تصح الأُخوة بين العالم والجاهل لنيات له فيها، كحُسْن خلقه وجميل معاملته، أو لتواضع العالم، أو ليعلمه ما جهل فيعينه بعلمه كما يعينه بماله، فإنَّ فقر الجهل أشد من فقر المال، وإن الحاجة إلى العلم ليست بدون الحاجة إلى المال.

وكان الفضيل يقول: إنما سُمي الصَّديق لتصدقه، والرفيق لترفقه، فإن كنت أغنى منه فارفقه بمالك، وإن كنت أعلم منه فارفقه بعلمك.

وينبغي أن ينصح له فيما بينه وبينه، ولا يوبِّخَه بين الملأ، ولا يطلع على عيبه أحدًا، فقد قيل: إن نصائح المؤمنين في آذانهم.

وقال جعفر بن برقان: قال لي ميمون بن مهران: قل لي في وجهي ما أكره، فإنّ الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره، فإن كان أخوه الذي نصح له صادقًا في حاله أحبَّه على نصحه، فإن لم يحبَّه وكره ذلك منه دل على كذب الحال. قال الله سبحانه وتعالى في وصف الكاذبين: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقد كان بعض الصَّالحين يقول: أحب الناس إليَّ من أهدى إليّ عيوبي، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ـ ويأمر أصحابه بذلك ـ: رحم الله امرأً أهدى إلى أخيه عيوب نفسه.

ومن أخلاق السَّلف: أنّ الرجل منهم كان إذا كره من أخيه خلقًا عاتبه فيما بينه وبينه، أو كاتبه في صحيفة.

قال أبو طالب: وهذا لعمري فَرْقٌ بين النَّصيحة، والفضيحة؛ فما كان في السرِّ فهو نصيحة، وما كان على العلانية فهو فضيحة، وقلما تصحّ فيه النيَّة لوجه الله تعالى، لأن فيه شناعة.

وكذلك الفرق بين العتاب، والتوبيخ؛ فالعتاب: ما كان في خلوة، والتوبيخ: لا يكون إلاَّ في جماعة.

وكذلك الفرق بين المداراة والمداهنة؛ فالمداراة: ما أردت به وجه الله تعالى، وطريق الآخرة، مِنْ دَفْعٍ عن دين، أو قصدت به سلامة أخيك من الإِثم، وصلاحَ قلبه لله تباركَ وتعالى.

والمداهنة: ما اجتلبت به دينًا وأردت به حظ نفسك.

وكذلك الفرق بين الغبطة والحسد: أن الغبطة: أن تحب لنفسك ما رأيته من أخيك، ولا تحب زواله عنه، بل تبقيته له وإتمامه عليه. والحسد: ما أردت أن يكون ذلك منه لك، وأحببت زواله عنه، وكرهت تبقيته عليه، فهذا مكروه؛ فإن سعيْت في ذلك بقول أو فعل فهو البغي زيادة على الحسد، وهو من كبائر المعاصي.

وكذلك الفرق بين الفراسة وسوء الظن، أن الفراسة: ما توسَّمته من أخيك بدليل يظهر لك، أو شاهد يبدو منه، أو علامة تشهدها فيه، فتتفرس ذلك فيه ولا تنطق به إن كان سوءًا، ولا تظهره، ولا تحكم عليه، ولا تقطع به فتأثم. وسوء الظن: ما ظننته من سوء رأيك فيه، أو لأجل حقد في نفسك عليه، أو لسوء نيّة تكون أو خبث حال فيك تعرفها من نفسك، فتحمل حال أخيك عليها، وتقيسه بك، فهذا هو سوء الظن والإثم، وهو غيبة القلب، وذلك محرَّم؛ لقول النبي ﷺ: «إن الله تعالى حرَّم من المؤمن دمه وماله وعرضه، وأن تظن به الظن السوء»[(١)].

وقوله عليه السلام: «إيَّاكُم والظَّن، فإنَّ الظنَّ أَكْذَبُ الحديث»[(٢)].

فهذه خمس معانٍ وأضدادها، بينها فرقٌ عند العلماء، فاعرف ذلك.

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٧٧): «أخرجه الحاكم في «التاريخ»، من حديث ابن عباس دون قوله: وعرضه، ورجاله ثقات إلَّا أن أبا علي النيسابوري قال: ليس هذا عندي من كلام النبي ﷺ، إنما هو عندي من كلام ابن عباس. ولابن ماجه (٣٠٥٨) نحوه من حديث ابن عمر، ولمسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة: كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حرامٌ دَمُهُ ومَالُهُ وعِرْضُهُ». اهـ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٨١)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥) من حديث أبي هريرة.

وينبغي أن ينصر أخاه، ويعينه بماله، ولسانه، وقلبه، وأفعاله. فإنّ النصرة في الله تعالى تكون بهذه المعاني الأربع: بالنفس إن احتاج إليك في الأفعال. وباللسان إن ظلم في المقال. وبالمواساة إن احتاج إلى المال، وأقل ذلك بالقلب أن يساعده في الهمّ والكرب وجميل النية له. وعليه أن يحفظ غيبه، وأن يحسب الثناء عليه، وينشر فضله، ويطوي زلله، ويقبل علله.

ويقال: ما من الناس أحدٌ إلاَّ له محاسن ومساوىء. فمن ظهرت محاسنه فغلبت مساوئه فهو المؤمن المقتصد. فالأخ الشفيق الكريم يذكر أحسن ما يعلم في أخيه، والمنافق اللئيم يذكر أسوأ ما يعلم فيه. ومن هذا جاء في الخبر: «اسْتعيذوا باللَّـهِ من جارِ السُّوء الذي إن رَأَى خَيْرًا سَتَرَهُ، وإِنْ رَأَى شَرًّا أَظْهَرَهُ»[1].

وقد قال الإمام الشَّافعي رحمه الله في وصف العدالة قولاً استحسنه العلماء، وهو ما رواه عنه محمد بن عبد الحكم، قال: سمعت الشَّافعي يقول: ما أحد من المسلمين يطيع الله عزَّ وجلّ حتَّى لا يعصيه، ولا أحد يعصي الله عزَّ وجلّ حتى لا يطيعه، فمن كانت طاعاته أكثر من معاصيه فهو العدل. قال ابن عبد الحكم: وهذا كلام الحُذَّاق.

وقال الشَّافعي أيضًا قولاً فصلاً في التوسط بين الانقباض والانبساط، وهو: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/١٧٧): «أخرجه البخاري في «التاريخ» من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، وللنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح: تعوذوا بالله مِنْ جارِ السوء في دار المقام». اهـ.

مجلبة لقرناء السوء. فكن بين الانقباض والانبساط.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالصَّبر والرحمة في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]، ونعتهم بالذلة لبعضهم في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذا كله داخلٌ في الاهتمام به، وهو حقيقة صدقه في الصداقة له، كما قال: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠١]، أي: هميم، من الاهتمام به[1]، أي: مهتم بأمره. ففيه دليل أن الصديق لك هو المهتم بك، وأن الاهتمام حقيقة الصداقة.

وروي أن عيسى عليه السلام قال لحواريّيه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائمًا فكشفت الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغطيه، فقال: بل تكشفون عورته. قالوا: سبحان الله، من يفعل هذا؟ فقال: أحدكم، يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها.

وهذا مخرجه من الحسد الكائن في النفس، والغلِّ المستكن في القلب، أن يزيد الرجل على الشيء مما يسمع، أو يتبعه بمثله، فيظهر هذا غله. وهذا هو الذي أمر المسلمون أن يستعيذوا منه في قولهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) قال أبو طالب قبل ذلك أيضًا: معنى حميم: هميم، أبدلت الحاء هاء، لتقاربهما. مأخوذ من الاهتمام. اهـ. وهو من غرائب التفسير، والأظهر أنه على معناه، وهو الذي يحتد ويحمي بدنه حماية لك، وعناية واهتمامًا؛ لأن من شأن الصديق الصادق أن يكون كذلك. اهـ. جمال الدِّين.

وينبغي أن لا يخالفه في شيء، ولا يعترض عليه في مراده؛ قال بعض السلف: إذا قال الأخ لأخيه: قم بنا. فقال إلى أين؟ فلا تصحبه. وقال الآخر: إذا قال: أعطني من مالك. فقال: كم تريد؟ أو ماذا تصنع به؟ لم يقم بحق الإخاء.

قال أبو سليمان الداراني: كان لي أخ بالعراق، فكنت أجيئه في النوائب فأقول: أعطني من مالك شيئًا. فكان يلقي إليّ كيسَه فآخذُ منه ما أريد. فجئته ذات يوم، فقلت أحتاج إلى شيء فقال: كم تريد؟ فخرج حلاوة إخائِه من قلبي.

وعن ابن عمر وأبي هريرة: لم يكن أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه.

وروِّينا عن رسول الله ﷺ: «لا تَبَاغَضوا، ولا تَدابروا، ولا تَحاسدوا، ولا تَقاطعوا، وكونوا عِبادَ الله إخوانًا. المُسْلمُ أخو المُسْلِم لا يَظْلِمُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، ولا يَخْذِلُه، بِحَسْبِ المرءِ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِم»(١).

وقال عبد الله بن الحسن: إياك ومعاداة الرجال؛ فإنك لن تعدم مكر حليم، أو مفاجأة لئيم.

وقال بعض الحكماء: ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد، ولا يزيدك لطف الحقد إلا وحشة منه.

وقال بعض السَّلف: أعجز الناس من قصَّر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٤٨١)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥) من حديث أبي هريرة.

وقال الحسن: لا تشتر عداوة رجل بمودَّة ألف رجل.

وقال عمر بن عبد العزيز: إيَّاك ومَنْ مودته على قدر حاجته إليك، فإذا قَضَيْتَ حاجتَه انقضت مودَّتُه.

وعن الحسن أيضًا قال: من أخلاق السَّلف: أنه لم يكن أحد منا يقول في رحله: هذا لي، وهذا لك. بل كان كل من احتاج إلى شيء استعمله عن غير مؤامرة.

قال أبو طالب: وقد وصف الله عزَّ وجلّ المؤمنين بهذا في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٨]، معنى أمرهم: أمورهم، ذكر جماعها كالشيء الواحد. وقوله: ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، أي: مشاع غير مقسوم، ولا يستبد به واحدٌ، هم فيه سواء ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٨]، أي: كانوا خلطاء في الأموال، لا يميز بعضهم رحله من بعض، أي: شركاء.

وحكي أنه جاء عتبة الغلام ــ وهو من مشاهير الصَّالحين ــ إلى منزل رجل كان قد آخاه فقال: أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف. فقال: خذ ألفين. فأعرض عنه، وقال: آثرت الدُّنيا على الله عزَّ وجل: أما استحييت أن تدَّعي الأُخوة في الله عزَّ وجل وتقول هذا؟!

وجاء فتح الموصلي ــ وهو من الصالحين المعروفين ــ إلى منزل أخ له، وكان غائبًا، فأمر أهله فأخرجت صندوقه، ففتحه، فأخذ من كيسه حاجته، فذهبت الجارية إلى مولاها فأعلمته، فقال: إن كنتِ صادقةً فأنتِ حرَّة لوجه الله تعالى ــ سرورًا بما فعل ــ .

وروي أن ابن أبـي شبرمة قضى لبعض إخوانه حاجةً كبيرةً، فجاءه الرجل بهدية جليلة، فقال: ما هذا؟ فقال: ما أَسْدَيْتَ إليّ. فقال: خذ مالك، عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها، فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعدَّه في الموتى.

وعلى ذلك قال بعضهم: إذا استقضيت أخاك الحاجة فلم يقضها، فذكِّره ثانية، فلعلَّه يكون قد نسي، فإن لم يقضها فعاوده ثالثة فقد يكون شغل عنها بعذر، فإن لم يقضها فكَبِّرْ عليه واقرأ عليه هذه الآية: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال ميمون بن مِهْران: من رضي من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور.

وجاء رجل إلى أبـي هريرة فقال: إني أُريد أن أواخيك في الله عزَّ وجل. فقال: أتدري ما حقُّ الإخاء؟ قال: عرّفني. قال: لا تكون بدرهمك وديناركِ أحقّ مني. قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد. قال: فاذهب عني.

وقال ابن مسعود: لا تسأل امرءًا عن ودّه إيّاك، ولكن انظر ما في قلبك، فإنَّ في قلبه لك مثل ذلك.

وأنشد بعض السَّلف هذا البيت:

وجدتُ مصيباتِ الزَّمان جميعها ... سوى فُرقة الإخوانِ هيِّنةَ الخَطْبِ

ثُمَّ قال: لقد عهدت أقوامًا فارقتهم منذ ثلاثين سنة، ما تخيّل لي أن حسْرتهم ذهبت من قلبـي.

وقال بعضهم: ما هدَّني شيء ما هدَّني موتُ الأقران.

ويقال: إذا مات صديق الرجل فَقَدْ فَقَدَ عضوًا من أعضائه.

وأنشدونا عن العُتبي:

ولقد بلوتُ النَّاس ثُمَّ خَبرْتهم ووصلت ما قطعوا من الأَسبابِ
فإذا القرابَةُ لا تقرّب قاطعًا وإذا المودَّةُ أقربُ الأنسابِ

قال أبو طالب: وحُدِّثتُ عن أخويْن انقلب أحدُهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه التقِيّ: ألا تقطعه وتهجره؟ فقال: هو أحوج ما كان إليّ في هذا الوقت ــ لِمَا وقع في عثرته ــ أن آخذ بيده، وأتلطَّفَ له في المعاتبة، وأدعُوَ له بالعود إلى ما كان عليه.

ومن أحبّ أن يؤثر أخاه بما آثره به، ولا يقتضيه حقّ إخائه فقد أحسن.

وقد فعل ذلك عبد الرحمن بن عوف؛ لَمّا آثره سعد بن الربيع بالمال والأهل، فقال: بارك الله لك فيهما، فآثره بما به آثره، فكأنه استأنف هبته له ــ لأنَّه قد كان ملَّكه إيّاه ــ لسخاوة نفسه، وحقيقة زهده، وصدق مودَّته.

وكان مضر بن عيسى وسليمان يقولان: من أحبّ رجلاً ثُمَّ قصَّر في حقه فهو كاذب في حبّه.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: لو أنَّ الدُّنيا كلّها لي فجعلتها في فم أخٍ من إخواني لاستقللتها له.

قال أبو طالب: واعلم أنَّ إطعام الطَّعام والإنفاق على الإخوان مضاعف على الصدقات وعلى العطاء للأجانب، بمنزلة تضعيف الثواب في الأهل والقرابات.

روي عن عليّ رضي الله عنه: لعشرون درهمًا أعطيها أخي في الله عزَّ وجلّ أحبّ إليّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين.

وقال أيضًا: لأن أصنع من طعام وأجمع عليه إخواني في الله عزَّ وجلّ أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة.

ولا ينبغي للأخ أن يخون أخاه في غيبه بما يكرهه إن كان ذلك في شيء مباح إذا كرهه. ولا ينكر عليه ما لا يقوم في علمه إذا فعله إن كان أخوه أعلم منه، أو كان له وجه يخرج عليه، ولا ينبغي أن يكذبه في أمره. ولا يفشيَنَّ له سرًّا، ولا يعرضنّه لغيبة ولا نميمة، ولا يحوجه إلى مداراة. ولا يلجأ إلى اعتذار، ولا يتكلّفنَّ له ما يشق عليه أو ما لا يحبّه هو منه.

وقال العباس لابنه عبد الله: إنِّي أرى هذا الرجل ـ يعني: عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ يقدِّمك على الأشياخ ويقرِّبك دونهم، فاحفظ عنِّي ثلاثًا: لا تفشيَنَّ له سرًّا، ولا تغتابنّ عنده أحدًا، ولا يجربنَّ عليك كذبة.

وفي بعض الروايات: ولا تعصين له أمرًا، ولا يطلعن منك على خيانة. قال الشعبي: كل كلمة خير من عشرة آلاف.

وأفشى بعضهم إلى أخيه سِرًّا، ثُمَّ قال له: حفظت؟ قال: بل نسيت.

وقيل لبعض الأدباء: كيف حفظك السرّ؟ قال: أنا قبره.

قال أبو طالب: ومن أحسن ما سمعت في حفظ السرّ، ما حدَّثني

بعض أشياخنا عن إخوان له دخلوا على عبد الله بن المعتزّ، فاستنشدوه شيئًا من شعره في حفظ السرّ، فأنشدهم على البديهة:

ومُستـودِعـي سِـرًّا تبـوَّأت كتمَـه ... فـأودعتـه صـدري فصـار لـه قَبْـرًا

قال: فخرجنا من عنده، فاستقبلنا محمد بن داود الأصبهاني، فسألنا من أين جئنا؟ فأخبرناه بما أنشدنا ابن المعتزّ في السِّرّ. فاستوقفنا، ثُمَّ أطرق مليًّا، ثُمَّ قال: اسمعوا قولي:

وما السِّرُّ في صدري كثاوٍ بقبره ... لأنـي أَرى المقبـور ينتظـر النَّشْـرا

ولكنَّنـي أنسـاه حتَّـى كـأنَّنـي ... بما كان منه لم أحِطْ ساعةً خبرا

ولـو جـاز كتـمُ السّـرّ بينـي وبينـه ... عن السرِّ والأحشاءِ لم يعلم السِّرا

وعن عليّ رضي الله عنه: شرّ الأصدقاء من تُكُلِّفَ له.

وقال الفضيل: إنما تقاطع الناس بالتكلف، يزور أحدهم أخاه فيتكلَّف له ما لا يفعله كل واحد منهما في منزله، فيحشمه ذلك من الرجوع إليه.

وقال أحمد بن حَنْبل: يقال: إن ملل الإخوان ليس من أخلاق الكرام.

وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول: يستحسن الصبر عن كل شيء إلاَّ عن الصديق. وقال: أستحب للمتآخيين في الله عزَّ وجلّ أن يلتقيا في كل يومٍ مرتين.

وقال الحسن وأبو قلابة: ليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه.

وروي عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّما يَتجالس المُتَجالسانِ بالأمانَةِ

فلا يَحِلُّ لأحدهما أن يُفشِيَ على أخيه ما يكره»[1].

وكان بشر بن الحارث يقول: لا تخالط من الناس إلاَّ حسن الخلق فإنه لا يأتي إلاَّ بخير، ولا تخالط سيِّء الخلق فإنه لا يأتي إلاَّ بشرّ.

وقال الشَّافعي رحمه الله: من استُغْضِبَ فلم يَغضب فهو حمار، ومن استُرضِيَ فلم يرض فهو شيطان.

وقال عمرو بن دينار: زهدك في راغبٍ فيك نقص حظ، ورغبتك في زاهد فيك ذلّ نفس.

وكان ابن سيرين يقول: يحتمل الرجل لأخيه إلى سبعين زلَّة، ويطلب له المعاذير، فإن أغناه ذلك وإلاَّ قال: لعلَّ لأخي عذرًا غاب عنِّي.

وكان ذو النون يقول: لا خير لك في صحبة من لا يحبّ أن يراك إلاَّ معصومًا.

وقيل لبعض العلماء: مَنْ يُصْحَبُ من الناس؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكلُّف، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفُّظ.

وكان جعفر الصادق بن محمد الباقر رضي الله عنهما يقول: أثقل إخواني عليّ من يتكلَّف لي وأتحفَّظ منه، وأخفّهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي.

قال أبو طالب: يريدون بهذا كله، أنَّ مَن لم يكن على هذه

(١) أخرجه أبو بكر بن لال في «مكارم الأخلاق» من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف، قاله الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٧٩).

الأوصاف، دخل عليه التصنُّع والتزيُّن، فأخرجاه إلى الرياء والتكلُّف، فذهبت بركة الصحبة، وبطلت منفعة الأُخوة.

وقال بعضهم: لا تعاشر من الناس إلاَّ من لا تزيد عنده ببرّ، ولا تنقص بإثم، ومن يتوب عنك إذا أذنبت، ويعتذر إليك إذا أسأت، ويحمل عنك مؤنة نفسك، ويكفيك مؤنة نفسه. وهذه من أعزّ الأوصاف في هذا الوقت.

وقال بشر بن الحارث: يكون للرجل ثلاثة إخوان: أخٌ لآخرته، وأخٌ لدنياه، وأخٌ يأنس به. فأخبر أنَّ أخ المؤانسة قد لا يكون متقرّبًا عابدًا.

واعلم أنَّ الأُنس يحتاج إلى وجود معانٍ، فمن اجتمعت فيه كمل فيه الأُنس، وحصل الرَّوْح من الكروب، والاستراحة من الغمّ، وطمأنينة القلب؛ ومن لم تكمل فيه وجد فيه بعض الأنس. وتلك المعاني سبع: علم، وعقل، وأدب، وحسن خلق، وسخاء نفس، وسلامة قلب، وتواضع. وأضدادها وحشة كلها؛ لأنَّ الجاهل لا أنس فيه. والأحمق لا أنس به. والبخيل سيِّء الخلق لا أنس عنده. والخبيث والمتكبِّر لا أنس معه. فاعرف هذا.

وقال بعضهم:

إذا كُنتَ لا تُرجى لدفعِ مهمةٍ ... ولم تَكُ يَوْمَ الحَشْرِ ممن يُشَفَّعُ
ولا أنتَ ذا مالٍ يجود بمالِهِ ... فعودُ خِلالٍ من إخائِك أنفَعُ

وقال أبو سليمان الداراني: لا تصحب إلاَّ أحد رجلين: رجلٌ ترتفق به في دنياك، أو رجلٌ تزيد معه وتنتفع به في آخرتك. والاشتغال بغير هذين حمق كبير.

ومن حق الأخوة في الله عزَّ وجلّ ما نقل من سيرة السلف، قال: كان الرجل يجيء إلى منزل أخيه من حيث لا يعلم، فيقول لأهله: هل عندكم دقيق؟ ألكم زيت؟ تحتاجون إلى كذا؟ فإن قالوا: ليس عندنا. اشترى لهم مصالحهم. قال: ولم يكن الأخ يفرّق بين عياله وعيال أخيه، يقاسمهم المؤونة. قال: ويلقى أخاه فلا يُعْلِمُه بشيءٍ من ذلك.

وكان سعيد بن أبـي عَروبةَ يعلّق كل ثوب عنده على الحبل، ويظهر كل صنف من الطعام فيصفه، وربما اشترى المسلوخ فيعلقه، ويفتح بابه، ويَدْخُلُ عليه إخوان في الله عزَّ وجلّ؛ فكان من أراد طعامًا أكل، ومن اشتهى لحمًا قطع وشوى أو طبخ، ومن احتاج إلى ثوب لبس من غير إذن ولا مؤامرة، قد عرفوا ذلك من أخلاقه رحمه الله.

وكان مِثْلُه رحمه الله جماعةٌ متخلِّقين بهذه الأخلاق.

ومن حقّ الأُخوَّة: الدعاء له والاستغفار في الغيب.

وكان محمد بن يوسف الأصبهاني يقول: وأين مثلُ الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك، وهو منفرد بحسرتك، مهتمّ بما قدمت، يدعو لك في ظلمة الليل، وأنت تحت أطباق الثرى.

ويقال: **الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء في الدُّنيا.**

ومِن أشدّ الناس وحشةً في الدُّنيا من لم يكن له خليلٌ يأنس به، وصديقُ صدقٍ يسكن إليه.

قال بعضهم:

وليسَ غريبًا من تناءت ديارهُ ... ولكنَ من يُجفى فذاك غَريبُ
ومن كانَ ذا عهد قديمٍ وذا وفا ... ولو جاوز السَّدين فهو قريبُ

وليتَّق أن يعاشر أخاه بخمس خصال، فليست من الأدب، ولا المروءة:

أوَّلها: أن لا يُلْزِمَه بما يكره مما يشقّ عليه.

والثانية: أن لا يسمع فيه بلاغة، ولا يصدق عليه مقالة.

والثالثة: أن لا يكثر مسألته: من أين تجيء؟ وإلى أين تذهب؟

والرابعة والخامسة: أن لا يتجسَّس عليه، ولا يتحسَّس عنه.

والفرق بينهما أنَّ التجسس يكون في قفو الآثار، والتحسُّس يكون في تطلُّع الأخبار، وقد نهى الله ورسوله عنهما، وجعلهما رسول الله ﷺ من شرط الأُخوة، مع ترك التدابر والتقاطع، فقد رُوِّينا في الخبر السائر: «لا تَجسَّسوا، ولا تحسَّسُوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا»(١). والمقاطعة: أن تقطع مواصلته، وتنحرف عن جريان عادته. والتدابر: أن توليه الدبر إعراضًا وجفاء.

وسُئل الحسن عن الصديق الذي يأكل ماله بغير إذن منه، وهو الذي ذكر في آية: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، فقال: من استراحت إليه النفس، وسكن إليه القلب، فإذا كان كذلك، فلا إذْنَ له في ماله.

قال أبو طالب: وإذا علمت أنَّ أخاك يُسَرُّ بأخذك من رحله أو ملكه، أو علمت أنه لا يكره ذلك إن فعلته، حلّ لك أن تأخذ، وإن كان لم يأذن لك، لأنَّ علمك يقوم مقام إذنه، وعلامة هذا منك انشراحُ صدرك بذلك، وخفته على قلبك، فذلك دليل على سروره به.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٨٨).

وعلى قياسه من علمت من الناس أنه يكره تناولك من ماله شيئًا، أو عرفته ببخل ضنًّا بما في يديه، فإنه يكره لك أن تأكل من ماله شيئًا، وإن أذن لك، بعد أن تعلم أنَّ الأحبّ إليه أن لا تأخذ. ففي الورع وإن أعطاك أن لا تقبل. فإنَّ بذْله مع علمك بأمره لغوٌ لا حقيقة له. ودليل ذلك ضيق صدرك به، ووجود الحشمة والوحشة في القلب، ففي الأثر: «الإثمُ ما حاكَ في صَدْرِكَ»[1].

قال أبو طالب: وكان بعض الناس يفجؤه الضيف، فلا يكون عنده ما يقدمه إليه، فيذهب إلى منزل أخيه فيأخذ خبزًا وقِدْرًا كان طبخها، فيحمله إلى ضيفه، فيلقاه أخوه بعد ذلك فيستحسنه منه، ويأمره بفعل مثل ذلك في كل نائبة.

وقال بعض السَّلف: إذا عمل الرجل في منزل أخيه أربع خصال فقد تمَّ أنسه به: إذا أكل عنده، ودخل الخلاء، ونام، وصلَّى. زاد بعضهم خامسة، وهي: أن يكون معه زوجه ويغتسل.

قال: فإذا فعل هذه الخمس فقد تمَّ أنسه به؛ لأنَّ هذه الخمس لأجلها تُتَّخذ البيوت، ويقع الاستخفاء؛ لما فيها من التبذُّل والعورة، ولولاها كانت بيوت الله سبحانه أروح وأطيب، ففي الأُنس بالأخ وارتفاع الحشمة من هذه الخمس مثال حال الأُنس في الوحدة بالنفس، من غير عيبٍ من عائب ولا ضدٍّ، ولكن من اتفاق جنسه.

واعلم أنَّ للناس في التعارف سبعَ مقامات، بعضها فوق بعض:

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٠) من حديث النوَّاس بن سمعان.

فأوّل ذلك: المعرفة عن الرؤية أو السمع فقط، فلهذا حرمة الإسلام وحق العامَّة.

ثُمَّ: المجاورة، وله حق الجوار، وهو ثاني حقوق الإسلام، وهذا هو: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾.

ثُمَّ: المرافقة في طريق أو سفر، وهذا هو: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦] في أحد الوجهين من الآية، فلهذا ثلاثة حقوق.

ثُمَّ: الصُّحبة، وهي: الملازمة والاتباع، فهذا فوق ذلك.

ثُمَّ: الصَّداقة، وهي: حقيقة الأخوة، ومعها تكون المعاشرة، وهو اسم تكون معه المخالطة، وتوجد فيه المؤانسة، وهو يحكم بالمزاورة والمبايتة والمؤاكلة، وهذا جملة العِشْرة؛ فالمعاشرة مأخوذة من العشير، وهو: الخليط المقارب.

ثُمَّ: الأُخوة فوق الصداقة، وهذا لا يكاد يكون إلاَّ بين النظراء في الحال، والمتقاربين في السن والمَعَاني؛ بأن يوجد في أحدهما من القلب والهمة والعلم والخلق ما يوجد في الآخر وإن تفاوتا، فهذه أخوة الحال، وهي حقيقة الصداقة.

ثُمَّ: المحبَّة، وهي: خاصِّيَّة الأخوة بارتياح القلوب، وانشراح الصدور، ووجود السرور، وفقد الوحشة، وزوال الحشمة.

ثُمَّ: الخليل، وهذا فوق الحبيب، ولا يكون هذا إلاَّ في عاقلين عالمين عارفين على معيار واحد وطريق واحد. والخُلَّة مأخوذة من تخلُّل الأسرار، ومعها تكون حقيقة الحبّ والإيثار.

ثُمَّ: إنَّ الحرمات في الأخوة تتزايد، وتعظم الحقوق بطول الصحبة، وجميل العشرة.

وقد ضمَّ الله عزَّ وجلّ الصديق إلى الأهل، ووصله بهم، ثُمَّ رفع الأخ وقدَّمه على الصديق، وذلك في قوله عزَّ وجلّ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، كان الأخ يدفع مفاتح خزائنه إلى أخيه، ويتصرف في الحضر، ويتقلَّب في السفر، ويقول لأخيه: حكمك فيما أملك كحكمي، وملكي له كملكك، فكان أخوه يتحرَّج فيُقَتِّر على نفسه لأجل غيبة أخيه، ويقول: لو كان حاضرًا لاتَّسَعْتُ وأَكَلْتُ رغدًا؛ للورع الذي فيه، والنُّصح والإيثار لأخيه؛ فرحم الله تحرجهم، وشكر تورُّعهم؛ فأطلق لهم الإذن، ووسّع عليهم في الأكل، فقال عزَّ وجلّ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، أي: لا إثم ولا حرج: ﴿أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

ثُمَّ نسق الأقارب على ترتيب الأحكام وضمَّ إليهم الأخ؛ لما وصفه بتمليكه مفاتحه أخاه، فأقام ذلك مقام ملك أخيه؛ لأنه أقام أخاه مقامه، فقال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، ثُمَّ أخَّر الصديق بعده؛ إذ لم يكن بحقيقة وصفه، ثُمَّ قال عزَّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا﴾ [النور: ٦١] بحضرة الإخوان ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]، في حال تفرُّقهم، فسوَّى بين غيبتهم وشهودهم؛ لتسوية إخوانهم بينهم وبين أملاكهم، واستواء قلوبهم مع ألسنتهم في البذل والمحبَّة لتناول المبذول.

وقد جاء في مخالصة المسلمين، وفي الأكل مع الإخوان،

والاختلاط بالعامَّة، والمشي في الأسواق، واشتراء الحوائج وحملها للتواضع ما يكثر رسمه ويطول وصفه.

وكذلك كان سيرة الصحابة وشيمة التابعين لهم بإحسان، منهم: عمر رضي الله عنه كان يحمل القربة على ظهره لأهله، وعليّ رضي الله عنه كان يحمل التمر والملح في ثوبه ويده، ويقول:

لا ينقصُ الكاملَ من كمالِهِ ما جرَّ من نفعٍ إلى عيالِه

ومنهم أُبَيٌّ، وابن مسعود، وحذيفة، وأبو هريرة، كانوا يحملون حزم الحطب وجُرُب الدقيق على أكتافهم وظهورهم.

وسيِّد المرسلين، وإمام المتَّقين، ورسول رب العالمين، محمد ﷺ كان يشتري الشيء فيحمله بنفسه، فيقول له صاحبه: أعطني أحمله عنك. فيقول: «صَاحِب الشَّيء أحقُّ بحملِهِ»[1].

فلو أيقن المتصنِّع للخلق ــ الأسير في أيديهم، الرهين لنظرهم ــ أنَّ الخلق لا ينقصون من رزق، ولا يزيدون في عمر، ولا يرفعون عند الله ولا يضعون لديه، وأنَّ هذا كله بيد الله عزَّ وجلّ، لا يملكه سواه، لاستراح من جهد البلاء؛ إذ يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾

(١) أخرجه أبو يعلى (٦١٦٢)، والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع البحرين» (٤٢٢٠)، من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف جدًا؛ فيه يوسف بن زياد منكر الحديث، وعبد الرحمن بن زياد الأفريقي ضعيف الحديث، وضعَّفَ الحديث الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٢٤١).

[الأعراف: ١٩٤]، فلو عقل ذلك لاطَّرح الخلق عن قلبه، وأعرض عن الناس بهمّه، نظرًا منه إلى مهمّه؛ فلم يبال أن يراه الناس على كل حال يراه فيه مولاه؛ إذ كان لا يعبد إلاَّ إيّاه، ولا يضره ولا ينفعه سواه؛ فعمل ما يصلحه، وإن كان عند الناس يضعه؛ وسعى فيما يحتاج إليه، وإن كان عند الملإ يزري عليه؛ ولكن ضعف يقينه، فقوي إلى الخلق نظره لإثبات المنزلة عندهم، ولاستخراج الجاه لنفسه، فيفخر بالخيلاء والعجب، فموه بحال على من لا حال له، ووهم بمقام عند من ليس له مقام؛ واعتقدوا فضله بذلك لنقصهم، وتوهَّموا به علمه لجهلهم، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢١].

قال أبو طالب: حدثونا عن يونس بن عبد الأعلى، قال: قال لي الشَّافعي رضي الله عنه: والله ما أقول لك إلاَّ نصحًا، إنه ليس إلى السلام من الناس سبيل، فانظر ما يصلحك فافعله.

وحدثونا عن الثوريّ قال: رضا الناس غاية لا تُدرك، فأَحْمَقُ الناس مَن طَلَبَ ما لا يُدرَك.

وقد قال بعض الحكماء في معناه قولاً منظومًا:

مــن راقــبَ النَّــاس مــاتَ غمًّــا وفــازَ بــاللــذَّة الجَســورُ

ونظر أبو محمد سهل رحمه الله إلى رجل من الفقراء، فقال له: اعمل كذا وكذا. فقال: يا أستاذ، لا أقدر على هذا لأجل الناس. فالتفت إلى أصحابه فقال: لا ينال العبدُ حقيقةً مِن هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين:

عبدًا يسقط الناس عن عينه، فلا يرى في الدار إلاَّ هو وخالقه، وأنّ

أحدًا لا يقدر أن يضرّه ولا ينفعه. وعبدًا أسقط النَّاس عن قلبه، فلا يبالي بأيّ حالٍ يرونه.

قال أبو طالب: وحدَّثونا عن إمام الأئمة الحسن بن يسار البصري رحمه الله: أنَّ رجلاً قال له: يا أبا سعيد، إنَّ قومًا يحضرون مجلسك، ليس بغيتهم الفائدة منك، ولا الأخذ عنك، إنما همّهم تتبُّع سقط كلامك وتعنُّتك في السؤال؛ ليعيبوك بذلك، فتبسَّم الحسن ثُمَّ قال: هوِّن عليك يا ابن أخي، فإني حدَّثتُ نفسي بسكنى الجنان فطمعت، وحدَّثت نفسي بمعانقة الحور الحسان فطمعت، وما حدثت نفسي قط بالسَّلامة من الناس؛ لأنِّي قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم، فكيف أحدِّث نفسي بالسلامة منهم.

وقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول في زمانه: كان الناس ورقًا لا شوك فيه، وهم اليوم شوك لا ورق فيه؛ إن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك، فأقرضهم من عرضك ليوم فقرك.

وعن لقمان الحكيم: يا بنيّ، لا تكن حلوًا فتبلَع، ولا مُرًّا فتُلفَظ.

وهو قول متوسِّط، معناه: لا تمكِّن الناس من نفسك فتتابعهم في كل شيء، فلا يبقوا عليك وينبسطوا إليك. ولا تنافرهم وتخالفهم في كلّ شيء، فيجانبوك ويرفضوك ويقعوا فيك.

وقال بعض علماء العرب: الصَّاحب كالرقعة في الثوب؛ إن لم تكن من جنسه شانته.

وقال بعض الحكماء: كل إنسان مع شكله كما أنَّ كل طير مع جنسه.

ويقال: إذا اصطحب اثنان برهة من الزمان، ولم يتشاكلا في الحال فلا بدَّ أن يفترقا: وفيه قيل:

وقـــائـــلٌ لِمَـــا تفـــرَّقْتُمـــا فقلـــتُ قـــولاً فيـــه إنصـــافُ
لـــم يـــكُ مـــن شكلـــي ففـــارقتُـــهُ والنَّـــــاس أشكـــــالٌ وآلافُ

وقال بعض العلماء: الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته، ومعاتبته خير من القطيعة، والقطيعة أحسن من الوقيعة.

وقـال بعـض الأدبـاء: النَّـاس ثـلاثـة فـاصحـب رجليـن واهـرب مـن الثالث: رجل أعلم منك، فاصحبه تتعلَّم منه، ورجل أنت أعلم منه، يقبل منك، فاصحبه تُعَلِّمه، ورجل معجب بنفسه، لا علم عنده ولا تعلُّم، فاهرب من هذا.

واعلم أنَّ الأُخوَّة في الله عزَّ وجلّ، والمحبَّة في الله تعالى، وحُسن الصُّحبة كانت طرائق السَّلف الصالح، واليوم قد درست محاجّها، وعَفَت آثارها؛ فمن عمل بها فقد أحياها، ومن رزقه الله أخًا صالحًا تطمئنّ به نفسه، ويصلح معه قلبه، فهي نعمة من الله عزَّ وجلّ مضافة إلى محاسن نعمه، والحمد لله وحده.

* * *

الفصل الخامس والثلاثون
في فَضْلِ الزَّواجِ وآدابِ النِّكاحِ

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٣٢].

فأمر المحتاجين، وندب المعصومين، فالنكاح فرض مع الحاجة، وسِنَّة على الكفاية، ثُمَّ وعدهم تعالى الغِنَى على الفقر؛ إذ قد يكون فقيرًا بالضيعة والشتات، وفقد المنزل والأثاث، فيغنيه بوجود ذلك. وأحكمه عزَّ وجلّ بما عقبه من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٢٣٢]، فهو واسع لغناهم من فقرهم، عليم بحالهم وما يصلحهم فيما لا يعلمون.

ورُوِّينا عن النبي ﷺ: «إذا أَتَاكُم من تَرْضَوْنَ دينَهُ وأمانتَهُ فأَنْكِحُوه، إلاَّ تفعلُوهُ تكُنْ فتنةٌ في الأَرْضِ وَفَسادٌ كبيرٌ»[1].

وذُكِرَ النساءُ في مجلس معاوية فذمّهن قوم، فقال: لا تفعلوا، فما عَلَّلَ المريضَ، ولا نَدَبَ الميت، ولا عَمَّرَ البيوتَ مثلُهن، ولا احتاجت الرجال إلى مثلهن.

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (١٠٨٥)، والبيهقي (٧/ ٨٢)، من حديث أبي حاتم المُزَني، وهو حديث حسن بشواهده.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يتمّ نسك الشاب حتى يتزوَّج.

وكان يجمع غلمانَه لما أدركوا ــ عكرمةَ وكُرَيْبًا وغيرَهما ــ فيقول: إن أردتم النِّكاح أنكحتكم؛ فإنَّ العبد إذا زنا نُزِعَ نورُ الإيمان من قلبه.

ومن سنَّة السلف تكثير الأزواج، وقد سُئل بعضهم عن سبب إكثارهم منهن فقال: لما غضوا أبصارهم في الظاهر فضيّقوا على قلوبهم في الخواطر، فاتَّسعوا في النكاح فأكثروا منه لما ضيّقوا على جوارحهم عن الانتشار في الأبصار.

وكان أحدهم يقول تحدثًا بنعمة الإكثار من التزويج وثمرته: منذ أربعين سنة ما خطر على قلبي خاطر معصية.

وكان ابن عمر رضي الله عنه من زهَّاد أصحاب النبي ﷺ وعلمائهم، وكا إذا صام ربما أفطر على الجماع قبل الأكل، وربما جامع قبل أن يُصلِّي المغرب ثُمَّ يغتسل ويصلِّي.

وروي عنه: أنه جامع أربعًا من جواريه في رمضان قبل صلاة عشاء الآخرة.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنه يقول: خير هذه الأمة أكثرها نكاحًا.

وكان سفيان بن عيينة يقول: كثرة النساء ليست من الدُّنيا؛ لأنَّ عليًّا رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ، وكان له أربع نسوة، وسبعةَ عشرَ سُرِّيَّةً؛ فالنِّكاح سنَّةٌ ماضية، وخُلُق من أخلاق الأنبياء صلوات الله عليهم.

ويُحكى أنَّ الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه تزوَّج اليوم الثاني من وفاة أم عبد الله ولدِه.

ويقال: إنه لم يبت عَزَبًا بعد وفاتها إلاَّ ليلة.

وقد كان ابن مسعود يقول: لو لم يبق من عمري إلاَّ عشرة أيام أموت في آخرها لأحببتُ أن أتزوَّج، ولا ألقى الله عزَّ وجلّ وأنا أعزب.

وماتت امرأة معاذ بن جبل رضي الله عنه في الطَّاعون، وكان هو أيضًا مطعونًا، فقال: زوِّجوني فإني أكره أن ألقى الله عزَّ وجلّ عَزَبًا.

وفي الخبر المشهور: «مَنْ ٱسْتَطاعَ مِنْكم البَاءَة، فَلْيَتَزَوَّج؛ فإنَّهُ أَغضُّ للبَصَرِ وأَحْصَن للفرْجِ، ومَن لا، فَلْيَصُمْ فإنَّ الصوم له وِجَاء»[1]. وفي الخبر الآخر: «مَن أَحبَّني فليستَنَّ بِسُنَّتي»[2]، يعني: النِّكاح.

وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، فعدَّ الأزواج والذرِّيَّة من مدحهم، وذكرها في وصفهم، وكذلك ألحق بهم أولياءه في المدح والفضل في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، فسألوا اللَّهَ عزَّ وجلّ من فضله.

وكلّ ما ذكرناه من فضل النكاح يشترك في فضله النساء، بل هو لهنّ أفضل وأثوب؛ لسقوط المكاسب عنهن. وفي الخبر: «خَيْر نِسائكم التي

---

(١) أصل الوجاء رَضّ الخصيتين للفحل من الغنم؛ لتذهب فحولته وضرابه، فكانت العرب تجأ بحجرين فتقطع ضرابه فيسكن لذلك عهره ويسمن. ومنه خبر: «ضحَّى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين موجوأين»، يعني: أبيضين مرضوضي الخصية. اهـ. أبو طالب.

والحديث أخرجه البخاري (٩/ ١١٢)، ومسلم (٢/ ١٠٠٨) من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه بنحوه أبو يعلى (٢٧٤٨) عن عبيد بن سعد مرفوعًا، وإسناده صحيح، إلاَّ أنَّ عبيدًا هذا تابعي، وأصل الحديث في البخاري (٩/ ١٠٤)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠) من حديث أنس وفيه: «وأتزوج النساء، فَمَنْ رَغِبَ عن سنتي فَلَيْسَ مِنِّي».

إذا نَظَر إليها الرَّجُل سَرَّتْه، وإذا أَمَرها أطاعتْه، وإذا غابَ عنها حفظته في نَفْسِها وماله»[1].

ومن لم تتم كفايته بواحدة ضمَّ إليها أخرى، إلى أربع، إذا قام بما عليه لهنّ من العدل في النفقة والمبيت، أو سَمَحْنَ بحقوقهن من النفقة والمبيت له.

ومعلوم أنَّ الزوجة جعلت لسكون النفس إليها، ولتكون المودَّة والرحمة متحقِّقة بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فمتى وَجد العبدُ سكونَ النفسِ ورحمةَ القلبِ، ومودَّة المرأة في الواحدة كانت كفايتَه وغُنْيَتَه، وإن لم يجد السُّكون ولا الرَّحمة ولا المودَّة إلاَّ في الزيادة على الواحدة، كان في ذلك كفايته وغنيته لمن قوي على العدل وقام به، ولمن لم يقدر على العدل؛ بأن خاف الجَوْرَ فيهن فإنَّه مردودٌ إلى الواحدة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، ففي دليل الخطاب اشتراط العدل، ثُمَّ ذكره بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾ [النساء: ٣]، يعني: أقرب أن لا تجوروا. وقد قال بعض الفقهاء من أهل الحجاز واللغة: لا تعولوا، أي: لا تكثر عيالكم.

قال أبو طالب: والأول أحبّ إليّ؛ لأنه أشبه بالقرآن، كأنه عطف على النَّص، ويصح هذا الوجه أيضًا في لغة من قال: عال يعول، بمعنى: أعال يعيل. وأكثر العرب فرَّقت بين ذلك؛ يقولون: عال يعول: إذا جار. وأعال يعيل: من العيلة، إذا كثر عياله، وشاذٌ نادر من يجعلهما لغتين بمعنى.

---

(١) أخرجه النسائي (٦/٦٨) بلفظ قريب منه من حديث أبي هريرة، وصححه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/٣٩).

فليتوخَّ العدل بين أزواجه من جمع بينهنّ في النفقة والكسوة والمبيت، ولا يَحَفْ على بعض فيقصِّر عن كفايتها وواجبها في ذلك، ولا عَدْلَ عليه في المحبة والجماع؛ لأنَّ ذلك لا يملك إذا سوَّى بينهن في البيتوتة، ولا عليه أيضًا أن يجامع من بات عندها إنما عليه المبيت ليلة وليلة.

ورُوِّينا عن رسول الله ﷺ أنه: كان يقسم بين نسائه في العطاء والمبيت، وكان يقول: «اللّهُمَّ هَذا جَهْدي فيما أَمْلِكُ، ولا طاقةَ لي فيما تَمْلِك ولا أَمْلِك»(١)، يعني: في المحبّة، فقد كان يحبّ بعضهنّ أكثر من بعض، وكانت عائشة رضي الله عنها أحبَّهنَّ إليه(٢).

ثُمَّ قال الله عزَّ وجلّ: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩]، يعني: على واحدة دون الأخرى في التقصير والنفقة ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]، أي: موقوفة غير مستقرَّة كأنها لا ذات زوج ولا مطلقة، أي: لا أَيِّمٌ فتحتمل لنفسها، ولا ذات زوج ينفق عليها فتستغني بزوجها.

فعليه أن يقسم بينهن أيامه ولياليه، فيكون عند كل واحدة يومًا وليلة، إلاَّ أن تهب لصاحبتها ليلتها، أو تسمح له بذلك، وقد وهبت سودة بنت زمعة ليلتها لعائشة رضي الله عنهما، فكان صلوات الله عليه وسلامه يقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ليلة ليلة(٣).

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٧/ ٦٤) من حديث عائشة، وهو صحيح.

(٢) في «صحيح البخاري» (٧/ ١٨)، و «صحيح مسلم» (٤/ ١٨٥٦) عن عمرو بن العاص أنه قال لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أَحَبُّ إليك؟ قال: «عائشة»، قلت: مِنَ الرِّجال؟ قال: «أبوها».

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٣١٢) من حديث عائشة.

وعلى الرجل في شأن الجماع أن يفعل ما هو أقرب إلى تحصين زوجه وأثبت لعفافها، ويختلف ذلك باختلاف رغبتها في ذلك وقلّة همّتها له، وعليها أن لا تمنعه ليلاً ولا نهارًا في كلِّ وقت، إلاَّ إن كانت صائمة فرضًا أو حائضاً أو نفساء.

قال أبو طالب: ولعمري، إنَّ المرأة تحتاج إلى فضل مداراةٍ، ولطيفٍ من الحكمة، وطرف من المواساة، وباب من الملاطفة، واتِّساع صدر للنفقة، وحسن خلق، ولطف لفظ؛ وهو لا يحسنه إلاَّ عالم حليم، ولا يقوم به إلاَّ عارف حكيم. فمن لم يقم بذلك، ولم يهتد إليه، ولم يعتدّ للنفقة، ولم يألف الجماعة، وكان قد ألف وحدته، واعتاد الانفراد بأكلته، وكان ضيّق القلب، بخيل الكف، سيِّء الخلق، غليظ القلب، فظّ اللفظ؛ فالوحدة لهذا أصلح، والبعد من النساء لقلبه أروح، فمتى تزوَّج مَن هذا وصفه: عذَّب وعُذِّب، وآذى وتَأَذَّى، وأَثِمَ وأُثِم به؛ لأنَّ النساء يحتجن إلى فضل حُلم يحمل سفههن، وإلى سعة علم يغمر جهلهن، وإلى حسن لطفٍ وحكمة يداري أخلاقهن، ويتغافل عن زللهن؛ فإذا كان الرجل جاهلاً سفيهًا، أو كان سيِّء الخلق فظًّا غليظًا؛ اجتمع الجهل، فافتقر العقل، وتقادح الجفاء، وغلظ القلب، والأذى، فأفسد أكثر مما يصلح، وتنافرا، ولم يكن بينهما أبدًا صُلْح، وليس هو وصف العقلاء.

ويُستحبُّ للرجل إذا أراد التزوُّج أن يشرح حاله ويبيِّن أخلاقه للمرأة؛ حتى تكون على بصيرة من أمره، ويقينٍ من حاله، ويدخل على اختيار منها، فذلك من الورع، وقد فعله بعض السلف، وقد تزوَّج رجل على عهد عمر رضي الله عنه، وكان يخضب بالسواد، فلمَّا دخل بامرأته نصل خضابه فظهرت شيبته، فاستعدى أهلُ المرأة وقالوا: نحن حسبناه

شابًّا! فأوجعه ضربًا، وقال: غرّرت القومَ! وفرَّق بينهما.

قال أبو طالب رحمه الله: ورُوِّينا عن شعيب بن حرب ـ لمّا أراد أن يتزوَّج ـ قال للمرأة: إنِّي سيِّء الخلق. فقالت: يا هذا، أسوأ خلقًا منك من يُحْوِجُك إلى سوء الخلق.

ثُمَّ قال: ورُوِّينا ضدّ هذا: أنَّ رجلاً أراد أن يتزوَّج، فقال للمرأة: إنَّ لي أخلاقًا أوقفك عليها، فإن رضيتِ بها تزوَّجتُك. فقالت: قل. فقال: أنا رجلٌ ملولٌ، حقودٌ، سيِّءَ الظنِّ، غيور، ضيِّق الصَّدر، إن كثَّرْتِ عندي مَلِلْـتُ، وإن أبعـدتِ قلِقْـتُ، وإن تكلَّمـتِ أوْغَـرْتِ صـدري، وإن سكـتِّ أشغلتِ قلبـي، فقالت المرأة: أمَّا بعد، فقد ذكرتَ من نفسك أخلاقًا ما كنّا نرضاها لبنات إبليس، فكيف نرضاها لبنات آدم؟ انصرف راشدًا، لا حاجة لنا بك.

ومن خشي على نفسه الآفات، ووفِّق له امرأةٌ فيها بعض الخصال المحمودة، فالتزويج له أفضل؛ فليكن له حينئذٍ في التزويج نيّات؛ لأنَّه من أكبر الأعمال، ولا يكون نكاحه لأجل هواه مجرَّدًا، بل تكون نيَّته إقامة سنَّته، وصلاح قلبه، وسلامة دينه، وغضّ بصره، وتحصين فرجه؛ فقد أمر بذلك، ويحتسب في الكسب على العيال المثوبة من الله عزَّ وجلّ، وفي الحديث: «ما أنفق الرجل على أهله فهو له صدقة، وإنَّ الرجل ليؤجَر في رفع اللقمة إلى فِيِّ امرأته»(١).

---

(١) أخرج البخاري (١/ ١٣٦)، ومسلم (٢/ ٦٩٤) من حديث أبـي مسعود البدري عن النبـي ﷺ قال: «إذا أنفق الرَّجل على أهلِهِ نفقةً ـ وهو يحتسبها ـ كانت له صدقة».
ولهما من حديث سعد المتقدم (ص ٢٥٨): «ومهما أنفقت فَهُوَ لك صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى فيّ امرأتك».

ومَنْ عزم على النّكاح فلا يكن هَمُّهُ مِنَ النِّساء إلَّا ذات دين وصلاح وعقل وقناعة؛ فليس تخلص له النيّات التي ذكرناها آنفًا إلَّا على هذه القواعد، وفي الحديث عن النبـي ﷺ: «تُنْكَحُ المرأَةُ؛ لِمالِها، وجَمَالِهَا ودِينها، فعليكَ بذاتِ الدِّين»[1].

وكان مالك بن دينار يقول: يَترك أحدهم أن يتزوَّج يتيمة فيؤجر فيها! إن أطعمها أو كساها تكون خفيفة المؤنة، ترضى باليسير! ويتزوَّج بنت فلانٍ وفلانٍ، يعني: أبناء الدُّنيا، فتشتهي الشهوات عليه، وتقول: اكسني ثوب كذا، واشتر لي مرط حرير، فيتمرَّط دينه.

وقد اختار بعض السلف امرأة عوراء على أختها صحيحة جميلة، فسأل: من أعقلهما؟ قيل: العوراء، فقال: زوِّجوني إياها.

ويستحبّ له أن ينظر إلى وجهها قبل التزوُّج بها؛ ففي النظر إلى الوجه أحاديث مأثورة، فإن ضمَّ إلى الوجه النظر إلى الكفين فلا بأس بذلك عند كثير من العلماء[2].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «إذا أوقع الله عزَّ وجلّ في نفس أحدكم من امرأة شيئًا فلينظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينهما»[3]. يعني بيؤدم:

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٣٢)، ومسلم (٢/ ١٠٨٦) من حديث أبـي هريرة.

(٢) قال بعض الحكماء: الحكمة في النظر إلى الوجه أنه مَجْمَعُ المحاسن، وإلى الكفين أنه يعلم منها خصب البدن، أي: سمنه من هزاله من اعتداله. (المختصر).

(٣) أخرج أحمد (٤/ ٢٤٤، ٢٤٥)، وابن ماجه (١٨٦٥)، والحاكم (٢/ ١٦٥) عن أنس أن المغيرة بن شعبة خطب امرأةً، فقال له النبـي ﷺ: «اذْهبْ فانْظُر إليها فإنه أجدر أن يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا» وإسناده صحيح. =

وقوع الأدمة على الأدمة، وهو أبلغ من البشرة؛ لأنَّ البشرة ظاهر الجلد، والأدمة باطنه، جاء هذا في المبالغة على ضرب المثل.

وقد كان الأعمش يقول: كل تزويج يقع عن غير نظر يكون آخره غمًّا وهمًّا.

ولا يغالي في المهر، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى عن المغالاة بمهور النساء، ويقول: ما تزوَّج رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا زَوَّج على أكثر من أربعمائة درهم(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: كانت مهور أزواج رسول الله ﷺ اثني عشر أُوقية ونشًّا(٢).

ومرَّة زوَّج ﷺ بعض أصحابه على وزن نواة من ذهب(٣).

قال أبو طالب: والنّواة صغيرة، وهي نواة التمر الصيحاني، يقال: قيمتها خمسة دراهم. ويقال: قُوِّمت بثلاثة دراهم وثلث.

= وأخرج أحمد (٣/ ٤٩٣)، والبيهقي (٧/ ٨٥) من حديث محمد بن مسلمة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ألقي في قلْبِ امْرِىءٍ خِطْبةٌ لامرأةٍ، فلا بأس أن ينظُرَ إليها» وإسناده ضعيف إلاَّ أنه قوي بطرقه التي منها عند الحاكم (٣/ ٤٣٤)، وعند أحمد (٤/ ٢٢٦).

(١) أخرجه أبو داود (٢١٠٦)، والترمذي (١١١٤ مكرر)، وابن ماجه (١٨٨٧)، وقال الترمذي: «حسن صحيح» وهو كما قال.

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٤٢) وفيه قالت عائشة للراوي عنها: أتدري ما النَّشُّ؟ قال لا: قالت: نصفُ أوقية، فتلك خمسمائة درهم.

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٢٠٤)، ومسلم (٢/ ١٠٤٢) عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف زوج امرأة على نواة من ذهبٍ.

ويقال: من بركة المرأة سرعة تزويجها، وسرعة رحمها ــ يعني: الولادة ــ ويسر مهرها.

قال أبو طالب: ولا يحلّ للزوج أن يدفع شيئًا ليأخذ أكثر منه، ولا يحلّ لهم أن يهدُوا إليه شيئًا ليضطرّوه أن يكافىء بأكثر منه، وليس عليه أن يزيد بأكثر من قيمته إن كافأ، وله أن لا يقبل هديَّتهم إن علم ذلك منهم. وهذا كله بدعة في النكاح، وهو كالتجارة في التزويج، وهو داخل في الرِّبا، وهو يشبه القمار، ومن زوَّج أو تزوَّج على هذا بهذه النيَّة فهي نيَّة فاسدة، وليس نكاحه هذا للدِّين ولا للآخرة.

وكان الثوري يقول: إذا تزوَّج الرجل وقال: أي شيء للمرأة[1]، فاعلم أنَّه لصّ فلا تزوِّجوه.

ولا يجوز للوليّ أن يزوِّج موليته من فاسق أو ظالم أو شارب خمر أو آكل ربا، فمن فعل ذلك فقد ثلم دينه وقطع رحمه، ولم يُحسن الولاية لموليته؛ لأنه ترك الإحسان، وليس هؤلاء أكْفَاءَ للحرَّة المسلمة العفيفة. وقال بعض السلف: لا تُنكِحْ كريمتك إلاَّ تقيًّا، فإنه إن أحبَّها أكرمها، وإن أبغضها أنصفها.

وليتعلَّم المتزوِّج علم الحيض، واختلاف أوقاته، وزيادته، ونقصه، وأحكام الاستحاضة من ذلك، وعلم وقت الأطهار؛ ليعلِّمها ذلك، وليعينها

---

(١) أي: أيُّ شيء أشتري للمرأة من جهازها بمهرها الذي أعطيته؟ فإنه لصّ، أي: يريد أن يسترد ما أعطى بطريق خفية، فيأخذه أو يهيمن عليه، ولا حقَّ له فيه؛ لأنَّ مهر المرأة ملكها تتصرَّف فيه كيف شاءت، ولها أن لا تقتني منه شيئًا، ولا تجهز نفسها بشيء منه لا قليلاً ولا كثيرًا، فمن السفه والجهل واللؤم النظر إلى ما تجهز نفسها منه. اهـ. جمال الدِّين.

بذلك عن السؤال، والظهور إلى الرجال. ثم ليعلم أهله علم ما لا يسعهم جهله من الفرائض، وأحكام الصلاة، وشرائع الإسلام، واعتقادات المؤمنين من السنَّة، فإذا فعل ذلك لم يكن عليها أن تخرج إلى العلماء. وإن قصّر عن تعليمها ذلك فلها أن تخرج إلى السؤال عمّا لا يسعها جهله.

وليس للمرأة أن تحمِل زوجها على المكاسب الحرام، ولا تكلِّفه ما يقترف به الآثام. ولا للرجل أن يدخل في مداخل السوء، ولا يبيع آخرته بدنياه؛ فإن صبرت معه على البرّ والتقوى أمسكها، وإن حملته على الإثم والعدوان فارقها ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠].

وقد قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦]، فأضاف الأهل إلى النفس، وأمرنا أن نقيهم النار بتعليم الأمر والنهي كما نقي أنفسنا النار باجتناب النهي. وقال النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّ راعٍ مسؤولٌ عنْ رعيَّته، فالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ على مالِ زوجِها وهي مسؤُولةٌ عَنْهُ، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِهِ وهو مَسؤُولٌ عنهم»(١).

فإن أمرها بما يصلِحُها ممّا أبيح لهما فخالفته وعظها وزجرها، فإن عادت لخلافه هجرها في المضجع، فبعض العلماء يقول: يوليها ظهره. وبعضهم يقول: يعتزل فراشها من ليلة إلى سبع ليالٍ. فإن لم ينجح فيها ذلك ولم تبال به ضربها، أي: ضربًا خفيفًا لتأديبها.

ولا ينبغي أن يقتِّر على أهله من الإنفاق.

ورُوِّينا عن رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٢٥٤)، ومسلم (٤/ ١٤٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) من حديث عائشة بإسناد صحيح.

وإن كانت من أهله زلَّةٌ أو هفوةٌ احتمل ذلك، ورفق بها، ولم يعسفها. وقد كان أزواج النبي ﷺ يراجعنه القول، وتهجره إحداهنّ يومًا إلى الليل، فيعفو ويصفح[1]. وكان ﷺ يمزح مع أزواجه ويقاربهن في عقولهن في المعاملة والأخلاق، وفي الخبر: «كان رسول الله ﷺ من أَفْكَهِ الناس مع نسائه»[2].

وعن لقمان الحكيم: العاقل في بيته ومع أهله كالصَّبيّ، فإذا كان في القوم وُجد رجلاً. وفي أحد المعاني في قوله عزَّ وجلّ: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝﴾ [القلم: ١٣]. قيل: الفظُّ اللسان الغليظ القلب على أهله.

ورُوِّينا في الخبر: «غيرة يبغضها الله عزَّ وجلّ: غيرة الرجل على أهله في غير ريبة»[3]. كأن يكون من سوء الظن الذي نهى الله عزَّ وجلّ ورسوله عنه.

وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما: عن رسول الله ﷺ: «لا تَمْنعوا إِمَاءَ اللَّـهِ مَساجِدَ اللَّـهِ». فقال بعض ولده: بلى والله لَنَمْنَعهُنَّ، فضربه

---

(١) أخرجه البخاري (٩/٢٧٨، ٢٧٩)، ومسلم (٢/١١١١) من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) قال الحافظ العراقي (٢/٤٦): «رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس دون قوله: مع نسائه، وفي إسناده ابن لَهِيعة».

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٥/٤٤٦)، وأبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٥/٧٨) من حديث جابر بن عتيك، وفي إسناده جهالة إلاَّ أن له شاهدًا من عقبة بن عامر الجهني عند أحمد (٤/١٥٤)، والحاكم (١/٤١٧، ٤١٨) فالحديث حسن.

وغضب عليه وقال: تسمعني أقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تَمْنَعُوهُنَّ» وتقول: بلى نَمْنَعُهُنَّ![1].

قال أبو طالب: فلا بأس بالحرَّة العفيفة أن تخرج لشيء لا بدَّ لها منه من قضاء حوائجها، وكذلك يخرجن في الأعياد خاصَّة؛ أطلق ذلك لهنَّ رسول الله ﷺ ـ أي: لشهود صلاة العيد وخطبته كما في الصحيح ـ ولكن لا يخرجن إلاَّ بإذن أزواجهن، وعن رضاهم، ولا يخرجن أيضًا إلاَّ فيما يعني مما لا بدَّ منه. ومهما استغنين عن الخروج، وأن لا يراهن رجل، فهو أفضل لهن وأصلح لقلوبهن.

والزوج مأجور على احتماله هفوات أهله وصبره على أذاهن، ومثاب على حسن عشرتهن. وقد كان محمد بن الحنفيَّة يقول: ليس بحكيم مَن لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًّا، حتى يجعل الله له منه فرجًا ومخرجًا.

فإن كانت ـ الزوجة ـ بذيئة اللسان، قليلة القبول، عظيمة الجهل، كثيرة الأذى، فطلاقها أسلم لدينهما، وأروح لقلوبهما.

والطلاق مكروه بغير سبب، لتفرقة الألفة. قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]، أي: لا تطلبوا طريقًا إلى الفرقة ولا إلى خصومة وأمرٍ مكروه. ولا بأس أن تفتدي المرأة من زوجها إذا خافت أن لا تقيم حدود الله فيه، ولا تقوم بواجب حقوقه عليها. ويكره أن يأخذ في الفدية أكثر مما أعطاها، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وهذا

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٢٧).

هو الخلع الجائز عند أكثر العلماء. ولا يحل لامرأة أن تسأل زوجها طلاقها، ولا أن تختلع منه بغير رضاه.

وقد شبّه الله عزَّ وجلّ حسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين، فقال فيهما: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وقال في أمر النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ثم أجمل في النساء ما فرّقه من حق الزوج في كلمة واحدة، فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال في عظيم حقّهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، قيل: هي المرأة. وآخر ما أوصى به رسول الله ﷺ ثلاث، كان يتكلّم بهنّ حتّى تلجلج لسانه وخفي كلامه، جعل يقول: «الصلاةَ الصلاةَ، وما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم، لا تُكَلِّفُوهُم ما لا يُطيقون، اللّٰهَ اللّٰهَ في النِّساء، فإنَّهنَّ عوانٍ في أيديكم ـ يعني: أسرى ـ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِعَهْدِ الله، واستحلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بكلِمَةِ اللّٰهِ»(١).

وينبغي أيضًا إذا أراد النكاح أن يتعلّم ما تحتاج إليه المرأة من حسن العشرة، والقيام بما لها عليه، وجميل المداراة ولطف المفاوضة، ويعلّمها حسن قيامها بما يجب له عليها، ويعرفها ما أوجب الله له عليها من ذلك.

وأوصى السماءُ بن خارجة الفزاري ـ وكان من حكماء العرب ـ ابنته ليلة زفافها، فقال: يا بنيّة، قد كانت والدتك أحقّ بتأديبك منّي

(١) طرف الحديث الأول أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٠)، وابن ماجه (١٦٢٥) وغيرهما، وصححه الحافظ البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٥٤٠)، وأما الوصية بالنساء فقد أخرجه مسلم (٢/ ٨٨٩) من حديث جابر الطويل في الحج.

لو كانت باقية، وأما الآن فإنِّي أحقّ بتأديبك من غيري، افهمي عنِّي ما أقول: إنَّكِ قد خرجتِ من العشّ الذي فيه درجت، وصرتِ إلى فراشٍ لا تعرفيه، وقرين لم تألفيه؛ كوني له أرضًا يكن لك سماءً، وكوني له مهادًا يكن لك عمادًا، وكوني له أمة يكن لك عبدًا، لا تلحفي به فيقلاكِ، ولا تتباعدي عنه فينساك، إذا دنى فاقربي منه، وإن نأى فابعُدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه لا يشمّ منك إلاَّ طيِّبًا، ولا يسمع إلاَّ حسنًا، ولا ينظر إلاَّ جميلاً.

ويكره العزلُ كراهةً شديدةً، وهو دقيقةٌ من الشركِ الخفي، وفيه نهيٌ مأثور عنه ﷺ[1]، ولم يكن خيار المتَّقين يعزلون، وأقلّ ما فيه الخروج من التوكُّل على الله عزَّ وجلّ. وكان ابن عباسٍ رضي الله عنه يقول: العزل هي الموؤودة الصغرى. وذلك لأنه قد يكون في الإمناء بالرحم تكوين نسمة فيسبّب العزل عدمها؛ إذ لم يفعل ما يتأتَّى منه الولد، فذهب فضله، وحسب عليه قتله.

وإنما قلنا إنَّ العزل دقيقة من الشرك؛ لأنَّ أهل الجاهلية كان سبب قتلهم بناتهم معاني: **أحدها**: خشية العار بهن. **ومنها**: كراهة الإنفاق عليهن. **ومنها**: الشحُّ وخوف الفقر والإملاق.

وكان العرب مَنْ وُلِدَ لَهُ بنون وبنات فمات البنون وعاش البنات

---

(١) وذلك لما رواه مسلم (٢/ ١٠٦٧) أنَّ الصحابة سألوا النبي ﷺ عن العَزْلِ، فقال رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ الوأدُ الخفي».
كما ورد أحاديث مسلم في إباحة العزل، وقال البيهقي: رواية الإباحة أكثر وأحفظ ذكره الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٥٢).

سمّوه أبتر، وذموه بذلك. وكان رسول الله ﷺ بهذا الوصف الذي يكرهون، مات ولده الذكورُ وعاشَ البناتُ، ولذا ذمّه العاص بن وائل حتى قال له: إنك أبتر، أي: لا ذكر لك بعد موتك؛ لموت الذكور من ولدك، فردَّ الله عزَّ وجلّ عليه بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣][1]، أي: هو الذي ينقطع ذِكْرُه وثَنَاؤُه، فلا يُذكر بخير بعد موته، فأما أنت فقد رفعت لك ذِكْرُك، تُذكرُ معي إذا ذُكِرتُ.

وأحمد ما يكون المولود عاقبةً إذا علق به بعد الطهر من الحيض، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ولضد ذلك في الكراهة والذمّ أمر تعالى باعتزالهن في الحيض.

ولا يحلّ للرجل من امرأته إلاَّ الفرج لا غير، على أيّ حال شاء. ومن جامع فليتمهَّل على أهله، وليتوقف حتى تقضي هي نهمتها كما قضى هو نهمته، فربما تأخر إنزال المرأة بعد الرجل، فيكون ذلك كريهًا إليها.

وينبغي أن يعلِّمها أنَّ المرأة إذا احتلمت ــ أي: أنزلت الماء في منامها ورأت أثره يقظة ــ يجب عليها الغسل، كما يجب على الرجل؛ فإن في ذلك سنَّة؛ لأنَّ أمّ سليم سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فأمرها بذلك، وقالت عائشة: نِعم النِّساءُ نساءُ الأنصار، لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الحياءُ أن يتفقَّهنَ في الدِّين[2].

وإذا كانت المرأة حائضًا كان لزوجها المتعة بجميع جسدها كيف

---

(١) انظر: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي (٦/ ٤٠٣، ٤٠٤).

(٢) دمج المؤلف بين حديث أنس عن أم سليم وحديث عائشة، وكلاهما في «صحيح مسلم» (١/ ٢٥٠، ٢٦١).

شاء إلَّا تحت المئزر، وله أن يضاجع الحائض كيف شاء، وتناوله ما شاء، وأن يؤاكلها ولا يجانبها في شيء من الأشياء إلَّا الجماع في الفرج.

والأصل فيما ذكرناه من فعل النكاح، قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، فأمر بالنكاح، وهو أعلم بالخير والصلاح، والأيامى: جمع أيم، وهي: التي لا بعل لها. وقد يسمَّى به الرجل الذي لا زوجة له أيضًا، كما يقال ثيِّبًا وبكرًا. ثم قال: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، فلولا أنَّ النكاح فاضلٌ ما خصَّ به الصالحين، وضمّه إلى فضلهم، وهم أهل ولايته؛ ولقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦].

قال أبو طالب رحمه الله: والله سبحانه ما افترض النكاح ولا العزبة، وافترض: صلاح القلب، وسلامة الدين، وسكون النفس، والدخول في الأوامر عند الحاجة إليها؛ فمن كان صلاحه في التزويج فهو أفضل له، ومن كان استقامته وسكون نفسه عند الزيادة على الواحدة فجائز له طلب السكون وصحة الحال مع القيام بالأحكام، ومن وقعت كفايته بواحدة فالواحدة أصلح له وأفضل؛ لأنها إلى السلام أقرب، ومن كان صلاح حاله واستقامة قلبه وسكون نفسه في العزبة فذلك له أسلم. ولله الأمر من قبل ومن بعد، والحمد للّٰه وحده.

* * *

الفصل السادس والثلاثون

في آدابِ دُخولِ الحَمَّامِ

يباح دخول الحمَّام، وقد دخل أصحاب رسول الله ﷺ بالشَّام الحمَّامات، وفي دخول الحمَّام ثمانية أحكام: أربعة فرائض، وأربعة نوافل.

فأما الفرائض:

فستر العورة، وغضّ البصر، وأن لا يباشر جسده غير يده، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كأن يرى عُريانًا فيقول له استتر. أو: هذا حرام عليك، أو: هذا لا يحلّ لك، أو: قد نهى رسول الله ﷺ، أو: حرَّم دخول الحمام بغير إزار. فأي هذه الألفاظ قاله سقط عنه ما وراء ذلك من كل شيء يراه من المنكر، وليس عليه القبول ولا الإجبار على المعروف، لأن هذا على الإمام القائم بصالح الدِّين بالبطش والقوة، وهو ساقط عن الرعية بحمد الله ومَنِّه.

وأما النوافل الأربع:

فأن يرى الطهارة لأجل الدِّين، والنظافة للعبادة، وأن يعطي صاحب الحمَّام الأُجرة قبل الدخول، ليكون معلومًا له ما يأذن في مقابله، وأن لا يكثر صبّ الماء عليه من غير حاجة، ولا يستعمل ما يكفي رجلين وثلاثة، لا سيَّما من الماء الحارّ؛ فإن له مؤنة، ولا يستعمل من ذلك إلاَّ ما

لو رآه الحمَّامي لم يَكْرَه ذلك منه ولم يسؤه، وما علم أنَّ الحمَّامي لو رآه يستعمل من الماء الكثير لشق عليه ذلك فإنه مكروه له في غيبه، والرابعة: أن يتذكّر النار بحرارة الحمَّام، فيكون له فيه عبرة؛ إذ عِبَر أولي الأبصار، ومواعظُ أهل التقوى لا تنقضي.

وليعرف بدخوله نعمة الله عزَّ وجلّ، وتسخيره له من شاء من خلقه بالتعب منهم والكد فيه؛ فهذا من لطيف إفضال الله عزَّ وجلّ على المتنعمين به.

ولا بأس أن يباشره رجل بالتدليك خلا موضع العورة، ولا بأس أيضًا بغمز الجسد والظهر.

وأمرَ بعضُ الأطباء بالنورة في كل شهر، وبالنوم بعد الخروج من الحمام، وبملازمته في الصيف لأنه أنفع منه في الشتاء.

وللمرأة أن تدخل الحمَّام لضرورة من علَّة أو حيض أو نفاس أو في الشتاء.

وحكي عن الأعمش أنه دخل الحمام فرأى عريانًا، فغمض عينيه وجعل يتلمَّس الحيطانَ، فقال له العريان: يا هذا متى كُفَّ بصرُك؟! فقال الأعمش: منذ هُتك سِتْرك.

وحكى الشافعيُّ عن مالكٍ رضي الله عنهما: ثلاثةُ أشياء فيها ذلَّة: حضور المجلس بغير محبرة ولا صحيفة، وركوب السفينة بلا زاد، ودخول الحمَّام بغير كرنيب[1]، فقيل للشافعي: لم يذكر مالك المئزر. فقال: قد أحسن؛ تَرْكُ المئزر فسوق.

* * *

(١) الكَرْنيب: التَّمْر باللَّبن، «لسان العرب» لابن منظور (١/ ٧١٦ ـ ط دار صادر).

الفصل السابع والثلاثون

في آداب التَّسَبُّبِ للمعاشِ وما يَجِبُ على التَّاجر من شروط العِلْمِ

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: ١١]، فذكره فيما عدَّد من آياته ونعمته.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف: ١٠] فجعل المعاش نعمةً طالبَ بالشكر عليها.

وقال النبي ﷺ: «أحلُّ ما أكل المرء من كسب يده»[١].

وقد روي: أن النبي ﷺ كان ذات غداة جالسًا مع أصحابه، فنظروا إلى شابٍّ ذي جلد وقوة، وقد بكَّر يسعى، فقالوا: ويحَ هذا، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله عزَّ وجل.

فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا هذا، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى

---

(١) تقدم تخريجه (ص ١٦٦).

على أبوين ضعيفين أو ذريَّةً ضعافاً ليغنيهم ويكفيهم، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخرًا أو تكاثرًا، فهو في سبيل الشيطان»[(١)].

وقال ابن مسعود: إنِّي لأمقت الرجل أراه فارغًا، لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما من موطن يأتيني فيه الموت أحب إليّ من موطن أتسوق فيه لأهلي، أبيع واشتري في رحلي.

وقال أيوب: قال لي أبو قلابة: الزم السوق فإن الغنى من العافية. يعني: الغنى عن الناس.

وعلى التاجر أن يتعلم علم البيع والشراء، والأخذ والعطاء، ومعاملة الناس في البيوع، ومعرفة أبواب الرِّبا، ليعلم ذلك قبل الوقوع فيه فيجتنب ذلك ويتقيه، وليغدُ إلى المفتي فيسأله عن علم حاله كل يوم من وجوه معاملته إن لم يكن قد تقدم علمه بذلك؛ فإن لكلٍّ عمل علمًا.

ثُم لينصرف بعد العلم فيما يدخل فيه فيما أُبيح له من تجارةٍ أو صناعة، بصدق معاملة وصدق في مبايعة، ناويًا في ذلك إقامةَ سنَّةٍ، وجهادًا في سبيل الله، لأن من أخذ الحقَّ وأعطاه، وعامل بصدق ونصح فهو معاون على البرّ والتقوى، وفي جهاد العدو والهوى، لا سيما في زمان يكثر فيه الباطل؛ لأن صلاح الدِّين بصلاح الدُّنيا، وفساده بفسادها؛ لتعلق أحدهما بالأخرى، وحاجة كلٍّ واحد منهما لصاحبه.

وعليه الصدق في القول، والنصح في معاملة الناس، ويكون أبدًا

---

(١) أخرجه الطبراني في «معاجمه الثلاثة» من حديث كعب بن عجرة بسند ضعيف، قاله الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٦١).

مقدّمًا للدِّين والتقوى في كلِّ شيء، فإن انتظمت دنياه بعد ذلك حمد الله، وكان ذلك ربحًا ورجحانًا، وإن تكدرت كان قد أحرز دينه وتقواه.

وعليه أن يكون مراعيًا لموافقة حكم الله الذي ورد به الشرع في الشراء والبيع، مراعيًا للسبب الذي يصل به الدرهم، بأن يكون السبب معروفًا في العلم مباحًا في الحكم، فيكون متورِّعًا في عين الدرهم المعتاض، لا يكون من خيانةٍ أو سرقةٍ أو فسادٍ أو غصبٍ أو غيلةٍ أو حيلةٍ، فهذه وجوه الحرام التي تحرم بها المكاسب المباحة.

وليجتنب السوقي البيوع الفاسدة، مثل: بيع المجهول، وبيع ما ليس عنده، وبيع ما اشتراه ولم يقبضه، وليحترس من النَّجْش، وهو: أن يعطي بسلعة شيئًا وهو لا يريد أن يشتريها بشيء ليغرّ غيره بها.

وليتوقّ كل بيعٍ وشراءٍ أخبر العلمُ ببطلانه: من دخول ربا فيه، أو خروجٍ من حكم العلم به، فإن ذلك كلّه منقصةٌ للدِّين، مخبثةٌ للكسب، فإنْ أشكل عليه شيء من هذه الأمور لخفائها سأل أهل العلم والفتيا، فيأخذ عنهم على مذهب الورعين، ورأي المتقين.

وليحتط لدينه، ولينظر لنفسه، ولا يغمض في أمر آخرته، فذلك خيرٌ له وأحسن توفيقًا.

وكلّ ما كان سببًا للمعصية من آلة وأداة فهو معصية، فلا يصنعه ولا يبيعه، فإنه من المعاونة على الإثم والعدوان.

وكلّ ما أخذ من المال على عمل منكر فهو منكر.

وكلّ معين لعاص فهو شريكه في معصيته، وأخذ المال على جميع ذلك من أكل المال بالباطل.

ولا ينبغي للسوقي أن يشغله معاش الدُّنيا عن الآخرة، ولا تقطعه تجارة الدُّنيا عن تجارة الآخرة. قال الله عزَّ وجل: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

ولا تقعدنّ في السوق لغير معاشٍ أو حاجةٍ، فقد كره ذلك.

وإذا سمعت التأذين للصلاة فلتأخذ في أمر الصلاة، ولا تؤخِّرها عن الجماعة. وقد كان السلف من أهل الأسواق إذا سمعوا الأذان ابتدروا المساجد يركعون إلى وقت الإقامة، وهذه سنَّة قد عفت، من عمل بها فقد نعشها.

وعن مالك رضي الله عنه في رجل باع بعد النداء يوم الجمعة: أنه يفسخ ذلك البيع.

وقد كان بعض السلف يقول: تخيَّروا لأولادكم الصنائع. وفي خبر: «إن الله عزَّ وجل إذا عمل عبده عملاً أحبَّ أن يحكمه»(١).

وليجتنب التاجر الاحتكار لما يؤكل ويقتات، وأشد ذلك الحنطة التي هي قوت الكافة، وقد روي في كراهة الاحتكار والتشديد فيه أخبار كثيرة(٢)، ومن العلماء من كان يرى أن وعيد الاحتكار عامّ في ما يقتات وغيره مما تدعو الحاجة إليه كالعدس والعسل والشيرج والجبن.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٣٠) من حديث عائشة ولفظه قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن اللّهَ تعالى يُحِبُّ إذا عَمِلَ أَحَدُكم عملاً أن يتقنه». وإسناده صحيح، وله عنده (٤٩٣١) طريق أخرى وإسنادها ضعيف.

(٢) منها ما أخرجه مسلم (٣/ ١٢٢٧) من حديث معمر بن أبي معمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ احْتكَرَ فهو خاطئٌ». وانظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (٢/ ٥٦٥).

قال أبو طالب رحمه الله: وحدثونا عن بعض السلف: أنه كان بواسط، فجهّز سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بع هذا الطعام في يوم تدخل البصرة ولا تؤخِّره إلى الغد، قال: فوافق السعر فيه سَعة، قال له التجَّار: إن أخَّرته جمعةً ربحتَ فيه أضعافًا، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله، وكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا، قد كنَّا قنعنا أن نربح الثلث مع سلامة ديننا، وإنك قد خالفت أمرنا، وقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابي فخذ المال كلّه فتصدَّق به على فقراء أهل البصرة، وليتني أنجو من الاحتكار كفافًا لا عليّ ولا لي.

ثُمَّ قال: وحدثونا عن رجل من التابعين، كان بالبصرة له غلام بالسوس، فجهِّز إليه السُّكر. فكتب إليه الغلام أنّ قصب السّكر قد أصابته آفة في هذه السنة، فاشتر السّكر. قال: فاشترى سكّرًا كثيرًا، فلما جاءَ وقته ربح فيه ثلاثين ألفًا، قال: فانصرف بها إلى منزله، فأفكر ليله في الربح، فقال: ربحت ثلاثين ألفًا وخسرت نصحَ رجل من المسلمين، فلما أصبح غدا إلى الرجل الذي كان اشترى منه السُّكَّر فدفع إليه الثلاثين ألفًا، فقال: هذه لك بارك الله لك فيها، قال: ومن أين صارت؟ قال: لما اشتريت منكَ السُّكَّر لم آت الأمْر من وجهه، إنَّ غلامي قد كان كتب إليّ: إن قصب السُّكر أصابته آفة، فلم أعلمك ذلك، ولعلّك لو علمتَ لم تُكنْ تبيعني فقال: رحمك الله، قد أعلمتني الآن، وقد طيَّبتها لك، قال: فرجع إلى منزله، فبات تلكَ الليلةَ ساهرًا، وجعل يتفكر في ذلك، ويقول: لم آت الأمْر من وجهه، ولم أنصح مسلمًا في بيعه؛ لعلَّهُ استحيا منِّي فتركها لي، فبكَّر إليه من الغد، فقال: عافاك الله، خذ مالك، فهو أصلح لقلبي. قال: فدفع إليه ثلاثين ألفًا.

وقال سليمان التيمي: لقد ترك محمّد بن سيرين أربعين ألف درهم من شيء حاكَ في صدره، لم تختلف العلماء أن ليس به بأس.

ثُمَّ ليتَّق البائع مدحَ السِّلْعة وتنفيقها، وليحذر المشتري ذمَّها وعيبها بما ليس فيها للخداع.

وأما الأيمان على ذلك فهو معصية، وممحقةٌ للكسب، وقد كان السلف يشددون في ذلك.

وحكي عن يونس بن عبيد رحمه الله ــ وكان خزازًا: أنَّ رجلاً جاءه يطلب ثوب خزٍّ، فأمر غلامه أن يخرج رزمة الخزِّ، فلما فتحها، قال الغلام: أسأل الله الجنَّة. فقال: شدّ الرزمة. ولم يبع منها شيئًا، خشية أن يكون قد مدح.

ويقال: إنه كانت عنده حلل على ضربين ضربٌ منها كل حلَّة بأربعمائة، وضربٌ بمائتين، فذهب إلى الصلاة وخلف ابن أخيه ليبيع، فجاءه أعرابي يطلب حلَّة بأربعمائة، فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها فاشتراها منه، ومشىٰ بها، وهي على يده ينظر إليها خارجًا من السوق، فاستقبله يونس بن عبيد خارجًا من المسجد، فعرف حلته، فقال: بكم أخذت هذه الحلة؟ فقال: بأربعمائة. فقال: لا تساوي، إنما قيمتها مائتان. فقال: يا ذا الرجل، إن هذه تساوي ببلدنا خمسمائة درهم، فقال له يونس: إن النصح في الدِّين خيرٌ من الدُّنيا كلها، ثُمَّ أخذ بيده، فردّه إلى ابن أخيه، وجعل يخاصمه ويقول: أما اتقيت الله؟ أما استحييت أن تربح مثل الثمن وتترك النصح لعامَّة المسلمين؟ فقال: والله ما أخذه إلاَّ عن تراض، فقال: وإن رضي: ألا رضيت له ما رضيت لنفسك؟ ثُمَّ ردّ على الأعرابي مائتي درهم.

وقد فعل مثل ذلك محمَّد بن المنكدر رضي الله عنه، وكانت عنده شقاقٌ جنابية وبصرية، أثمان بعضها خمسة خمسة، وأثمان بعضها عشرة عشرة، فخلَفه غلامه في الحانوت، فغلط فباع أعرابيًا شقَّة من الخمسات بعشرة، فجاء ابن المنكدر فتفقد الشقاق، فعرف غلطه، فقال: ويلك، أهلكتنا، اذهب فاطلب الأعرابي في السوق، فلم يزل يطلبه يومه أجمع حتى وجده، فقال له ابن المنكدر: يا هذا إن الغلام غلط فباعك ما يسوى خمسة بعشرة. فقال: يا هذا قد رضيت. فقال: وإن رضيت لنفسك فإنا لا نرضى لك إلاَّ ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إمَّا أن تأخذ شقَّة من العشرات بدراهمك، وإما أن نردّ عليك خمسةً، وإما أن تردّ علينا شقَّتنا وتأخذ دراهمك. فقال: أعطني خمسة. قال: فأعطاه من دراهمه خمسة.

وكان بعضهم يقول: لا أشتري الويل من الله بحبّة، فكان إذا أخذ نقَّص نفسه بحبة، وإذا أعطى زاد غيره حبة، لقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين: ١]، يعني الذين رضوا بالتطفيف بالحبَّة والحبتين، فباعوا بذلك جنَّة الله ورضوانه، إذ اشتروا الويل بطوبى.

ولا ينبغي للمشتريّ أن يسألَ البائع الرجحان، لأن الله عزَّ وجلّ قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩]، أي: بالعدل، وهو السواء، وهو استواء اللسان في البكرة لا مائلاً إلى إحدى الكفتين.

ولا يجوز التعامل بالدراهم المزيّفة، وكان بعض السلف يقول: إنفاق درهم مزيف أشدُّ من سرقة مائة درهم.

قال: لأن سرقة مائة درهم معصية واحدة منقضية، وإنفاق دانق

مزيف سنَّة سيئة يعمل بها بعده، وإفسادٌ لمال المسلمين، فيكون عليه وزره ما بقي ذلك الدرهم يدور في أيدي الناس، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه بعده يعذب بها ويحاسب عنها.

قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [سبأ: ١٢]، أي: ما عملوا وما سنّوه بعدهم فعمل به. وقال في وصفه ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]، أي: بما قدم من عمل وما أخرّ من سنَّة عُمِل بها بعده.

وقال ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيئةً كان عليه وِزْرُها ووزرُ من عمل بها، لا يَنْقصُ من أوزَارهم شيءٌ»[1].

وكان المسلمون في الصدر الأول يتعلمون جودة النقد لأجل إحسان التعامل والتجافي عن الغش بالرديء.

ومن أخذ الرديء وألقاه ولم يخرجه إلى أحد كان فاضلاً محتسبًا محسنًا في سماحته، وله باحتسابه ذلك مثوبة وأجر.

ويبنبغي للتاجر أن يكثر من الصدقة ليكون بها كفارة لخطاياه.

وينبغي للتاجر والصانع أن يكونا مستعملين لهذه الخصال، فإنها جوامع أعمال البرّ، وهي من أخلاق المؤمنين، وطرائق المتقدمين:

منها: أن يسمح إذا باع ويسمح إذا اشترى، ويحسن إذا قضى ويحسن إذا اقتضى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٧٠٤، ٧٠٥) من حديث جرير بن عبد الله.

وأن يمشي بدَين غريمه إليه، ولا يُحْوجَه إلى اقتضائه فيشقّ عليه.

وأن يصبر صاحب الدَّيْن على أخيه، ويُحسن تقاضيه، ويحسن له النظرة، ويؤخِّر حقه إلى ميسرته.

وأن يستعمل المعامل النُّصح في البيع والشراء في الصنعة.

وأن يُفَطِّنَ كلّ من المتعاملين صاحبه بعيب إن كان في السلعة، وبنقص إن كان في الصنعة، إن لم يفطن المشتري لذلك والمستعمل.

ولما بايع النَّبي ﷺ جريرًا على الإسلام، وذهب لينصرف جَذَبَ ثوبه، واشترط عليه النُّصح لِكُلِّ مُسْلِمٍ.

قال: فكان جرير إذا أقام السلعة ليبيعها بصّر عيوبها ثُمَّ خيّر، فقال: إن شئت فخذ وإن شئت فاترك. فقلنا له: رحمك الله، إنك إذا قلت هذا لم ينفد ذلك بيع. فقال: إنما بايعنا رسول الله ﷺ على النصيحة لأهل الإسلام[1].

وكان واثلة بن الأسقع واقفًا بالنَّاس في الكوفة، فباع رجلٌ ناقة بثلثمائة درهم، وغفل واثلة، وقد ذهب الرجل بالناقة، فسعى وراءه وجعل يصوِّت به حتَّى رجع، وقال: يا هذا، أللحم اشتريت هذه الناقة؟ أم للظَّهر؟ فقال: بل للظَّهر. فقال: فإنَّ بخُفِّها نَقَبًا قد رأيته، وإنها لا تتابع السير عليه، فردّها، فنقَّصه البائع مائة درهم، فقال لواثلة: رحمك الله، أفسدت عليّ بيعي، فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ لأَحَدٍ يَبيعُ

(١) أصل الحديث في البخاري (١/ ١٣٧)، ومسلم (١/ ٧٥)، وأخرج القصة المذكورة بعد الحديث الطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٨٦، ٣٩٧، ٣٩٨).

شَيْئًا أَلاَّ يُبيِّنَ ما فيه، ولا يَحِلُّ لِمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلاَّ بيَّنه»[١].

فانظر رحمك الله إلى النصح للمسلمين الذي يتعذر فعله على كثير من المسلمين كيف جعله رسول الله ﷺ من شرط صحة الإسلام، وكان يبايع عليه، وذلك في قوله: «الدِّين النَّصيحة ـ ثلاثًا ـ»، ثُمَّ قال: «لِلَّـٰهِ، وَلِكِتابِهِ، ولرسولِهِ، ولأَئِمَّةِ المُسْلِمينَ، ولعامَّتِهِم»[٢].

والغشُّ في البيوع والصنائع محرَّم على المسلمين، ومن كَثَّرَ من ذلك فهو فاسق.

ومن الغشّ أن ينشر على المشتري أجود الطرفين من المبيع، أو يظهر من المبيع أجود الثوبين، أو يكشف من الصنعة أحسن الوجهين.

روي أن النبي ﷺ مَرَّ برجلٍ يبيعُ طعامًا فأعجبه ظاهره، فَأَدْخل يده فرأى بَلَلاً فقال: «ما هذا؟» فقال: أصابَتْهُ السَّماءُ. فقال: «هَلاَّ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حتَّى يراهُ النَّاس؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِني»[٣].

فينبغي للبائع والصانع أن يظهر من المبيع والمصنوع أردأ ما فيه وأرذله، ليقف المشتري والصانع على عيوبه، ويكونا على بصيرة من باطنه، فيكون الكسب من ذلك أحلّ وأطيب.

ولا يحلف، ولا يكذب، ولا يخلف موعدًا، ولا يمدح إذا باع

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١)، والحاكم (٢/ ٩، ١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩١٢)، من حديث واثلة بن الأسقع وإسناده ضعيف؛ لجهالة أبي سباع الراوي عن واثلة، وضعفِ أبي جعفر الرازي.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٧٤، ٧٥) من حديث تميم الداري.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٩٩) من حديث أبي هريرة.

أو صنع صنعة، ولا يذمّ إذا اشترى أو استعمل صانعًا، فإن ذاك لا يزيد في رزقه، وهذا لا ينقص منه.

وعلى الصانع أن يبلغ غاية النصح في صنعته لمستعمله، لأنه أعرف بصلاح صنعته وفسادها، وبسرعة فناء الصنعة وكثرة بقائها، وعليه أن يتقن نهاية علم الصانع بصلاح الصنعة، وحسن بقائها مع نهاية بغية مستعمله من تجويدها وإحكامها، فإذا فعل الصانع ذلك كان قد عمل بعمله.

فإذا كان المُتسبب في المعاش والمتصرف في الأسواق على ما ذكرناه من الأوصاف المحمودة فإنَّه في سبيل من سبل الله.

وإذا خالف هذه الشروط ولم يستعمل العلم في أحواله، وفارق التقوى في تصرفه فلا يبالي من أين اكتسب وفيما أنفق، فهذا يتقلّب في المعاصي والمكاره، ظهرًا لبطن، متعرضًا للمقت من الله عزَّ وجلّ.

* * *

الفصل الثَّامن والثَّلاثون
في بيانِ الحَلالِ والحَرامِ والمُشْتَبِه

روي عن ابن مسعود مرفوعًا: «طَلبُ الحَلالِ فَريضةٌ بَعْدَ الفَريضَةِ»[1]، فسوّى بينه وبين العلم في الفرض، وأوجب الطلب لهما.

فمثلُ فرض طلب الحلال للأكل مثل طلب العلم للجاهل، والفرائض إذا شرعت ثبتت إلى يوم القيامة، فإذا أمر بطلبها دلّ على وجودها؛ لأنه لا يؤمر بطلبٍ مفترضٍ علينا يكون معدومًا، فالحلال موجودٌ من حيث افترض علينا وأمرنا بطلبه، ولكن طريقه ضيِّقة، ووجوهه غامضة، والمعاون عليه قليل، والطالب غريب.

ومن لم يعرف أحكام الفرائض لم يقم بها، وكان عمر رضي الله عنه يضرب أهل السوق بالدِّرَّةِ ويقول: لا يتجر في سوقنا إلاَّ من تَفَقَّهَ، وإلاَّ أكل الرّبا.

وقد روي مرفوعًا: «يَأْتي على النَّاس زمانٌ لا يَبْقى فيه أَحَدٌ إلاَّ أكل

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٩٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٣٦٧)، من حديث ابن مسعود، وضعفه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٨٨).

الرِّبا، فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أصابه من غُباره»[1].

قال أبو طالب رحمه الله: يعني والله أعلم: أنه يدخل عليه وإن لم يعمل به، من غير قصد له ولا اكتساب؛ كما يدخل الغبار في المشام للمجتاز؛ لفشوّ الربا وانتشار مداخله مما لا يمكن التحرز منه.

وما توعّد الله عزَّ وجلّ ولا تهدَّد في معصية مثل ما توعَّد في أكل الرِّبا؛ فإنه عزَّ وجلّ عظَّمَ شأنه بوصفين عظيمين إعظامًا له وترهيبًا منه، فذكر في أوّله المحاربة لله عزَّ وجلّ ورسوله ﷺ، وفي آخره الخلود في النار، ينتظم ذلك في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ثُمَّ اشترط للإيمان ترك الربا بقوله: ﴿إن﴾، وهي للشرط والجزاء.

ثُمَّ قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ثُمَّ أوجب التوبة منه بعد إعلامه الظلم منه فقال: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ثُمَّ نصّ على تحريمه في قوله: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ثُمَّ توعَّد بالخلود بعد ذلك كلِّه فقال: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وهذا من شديد الخطاب، وعظيم العذاب.

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٦٤٧/٤)، والبيهقي في «السنن» (٢٧٥/٥، ٢٧٦)، من حديث أبي هريرة وإسناده ضعيف؛ فيه سعيد بن أبي خَيْرَة، مقبول كما في «التقريب» يعني لين الحديث، وفيه الحسن البصري لم يصرح بالتحديث.

وكان بعض العلماء يقول: تَفَقَّهْ ثُمَّ ادخل السوق فبع واشتر. وتأوّل معنى قول النبـي ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فريضةٌ على كُلِّ مُسْلمٍ»[1].

قـال: هـو طلـب علـم الحـلال والحـرام، والبيـع والشـراء، إذا أراد الإنسان أن يدخل فيه افترض عليه علمه.

وفي خبر: «مَنْ سَعَى على عيالِهِ من حِلّه، فهو كالمجاهد في سَبيل اللَّـهِ عزَّ وجلّ، ومَنْ طَلَبَ الدُّنيا حَلالاً في عفافٍ، كان في درجة الشُّهداء»[2].

وكان سهل بن عبد الله يقول: من لم يكن مطعمه من حلال لم يكشف الحجاب عن قلبه، ولم ترفع العقوبة عن قلبه، ولم يبال بصلاته وصيامه إلاَّ أن يعفو الله عنه.

وقد روي أن الصديق رضي الله عنه: أنه أكل من كسب غلامه، ثُمَّ سأله عنه، فقال: رقَيْتُ لقوم فأعطوني. وفي لفظ آخر: تكهَّنت لهم. فأدخل يده في فيه وجعل يقيء حتى استقاء عن آخر لقمة. ثُمَّ قال: اللَّـهم

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٥٤٥) من حديث أنس، وله عدة طرق صححه بها السيوطي كما في «فيض القدير» (٢٦٧١٤)، وقد جمع طرقه أكثر من واحدٍ، منهم ابن مردويه (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٠٧)، والسيوطي والزبيدي (انظر: شرح الإحياء ١/ ٩٩).

(٢) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٨٩): «أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة: من سعى على عياله ففي سبيل الله، ولأبي منصور الديلمي: من طلب مكسبه من باب حلال يكف بها وجهه عن مسألة الناس وولده وعياله، جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين، وإسنادهما ضعيف».

إنِّي أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء.

وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢] قيل: من الحلال، كما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١]، أي: من الحلال، فأمر بأكل الحلال قبل العمل الصالح.

وقد قال العلماء: إن الحلال من عشرة أوجه، ومنهم من قال: يوجد من سبعة أشياء، وأصل ذلك كله يرجع إلى ثلاثة أشياء: تجارةٌ بصدق، وصناعةٌ بنصح، وعطيّةٌ بحكم. ثُمَّ تنقسم العطيّة أربعة أقسام، فيكون: فيئًا، أو ميراثًا، أو هبة عن طيب نفس، أو صدقة مع وجود فقر.

ومدار ذلك وقطبه: أن الحلال مشتقٌّ من اسمه بمعنيين: ما انحلّ الظلم عنه، أو حلّ العلم فيه. فما انحلّ الظلم عنه انحلّت المطالبة عنه، وما حلّ فيه العلم حلّت الإباحة والأمر به.

والحلال عند العلماء: ما لم يُعص الله عزَّ وجلّ في أخذه.

وأما الأمر المشتبه فيه: فالأصل فيه حديث النعمان رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ: «الحلالُ بيِّن والحرامُ بيِّنٌ، وبينهما مُشتبهات لا يعلمها كثير من النَّاس، فَمَنْ تَرَكَها فَقَدْ استبرأَ لدينه وعِرْضِهِ، ومن يَرْتع حوالي الحِمى يوشك أَن يواقعه»[1]. ويقال: إن هذا الحديث ثلث العلم.

فالحلال: ما ظهر وتبيَّن، وكنت على يقين منه، واطمأن به قلب المؤمن العالم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٩٠)، ومسلم (٣/ ١٢١٩).

والحرام أيضًا: ما تبيَّن، وانكشف على يقين منه، ولم يختلف أحد من المسلمين فيه، ونفر قلب المؤمن واشمأز منه، وقد تطمئن بعض القلوب إلى شيء لقلة ورعها، وقد تنفر بعض القلوب من شيء لقصور علمها، وليس يقع بمثل هذين القلبين اعتبار، وإنما الاعتبار بقلب المعيار الذي قد جعل كالمحك وهو قلبُ المُؤمن المُوقن العالم.

والشبهات على وجوه:

أحدها: ما أشبه الحلال من وجه وما اختلط أيضًا بها فلم يتميز منهما، والشبهة أيضًا: ما دلّ باطن العلم على تحليله، فكان حلال الحكم، وأظهر باطنُ الورع الوقوف عنه لحيك القلوب وعدم الطمأنينة، كنحو ما روي عن النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتصمونَ إِليَّ، ولَعلَّ بَعْضَكُمْ أن يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فأَقْضِيَ له على نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ منه، وهو يعلم خلافه، فمن قضيت له على أخيه فإنما أقطع له قِطْعَةً من النَّارِ»[1] فأخبر النبي ﷺ أن يحكم بظاهر الأمر، وردهم إلى حقيقة علم العبد بما شهد، وعرف من عيب نفسه المستتر عن الأبصار.

والشبهة أيضًا: ما اختُلف فيه لخفاء أدلَّته، ولتكافؤها بالسويَّة.

ثُمَّ إن الشبهات تتفاوت لتفاوت خلالها ضدها.

فأما الحرام: فطعمَةُ الفاسقين: أكْلُه فسوق، وطلبه فسوق، وإطعامه فسوق، والمعاونة عليه فسوق، والمدمن عليه فاسق، وهو من الكبائر.

والحلال هو: ما أحله الكتاب والسنَّة، وحلّلته الأحكام والعلوم من

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٥/ ٢٨٨)، ومسلم (٣/ ١٣٣٧) من حديث أم سلمة.

سائر الأسباب، والمعاني المطلقة والمباحة التصرف في العلم، وهو بغية المؤمنين، وطُعمة المتقين؛ فطلبه جهاد، وإطعامه بر، والمعاونة عليه تقوى، وأكله عبادة، والمدمن عليه مؤمن تقيّ.

والشبهة ما اختلف العلماء فيه ولم يجمعوا عليه، أو ما التبس باطنه فاشتبه لغموض الأدلة أو خفاء الاستدلال فلم يكن بينًا ليجمع عليه، فهذه طعمة عموم المسلمين، فإن ابتليت بهذا فخذ منها حاجتك وضرورتك من كلِّ شيء تكن بذلك فاضلاً، والاستكثار منه مكروه، وتركه إذا أمكن أفضل؛ لأن في الخبر: «من تركه فقد استبرأ لدينه»، أي: تنزّه وتنظف واحتاط له. ثُمَّ قال في الخبر: «وعِرْضِهِ»، أي استبرأ لعرضه أن يتكلم الناس فيه بسوء وينسبوه إلى فحش.

وقد جُعِلت الشبهة طريقًا إلى الحرام وموقعة فيه، لما في الخبر: «من يرتع حولَ الحِمى يوشك أن يقع فيه»، أي: من يطلب الشبهة ويدمن عليها، ويستكثر منها يسرع الوقوع في الحرام، أي: تسرع إليه وتدخله فيه.

ولبعض أهل العلم في ذلك ضابط حسن قال: إن من لم يعرف أن ماله خالطه خيانة ولا معاملة ظالم فذلك حلال، ومن خالط الظلمة واكتسب المال من خيانات فما في يده حرام، وإن اختلط ماله فلم يتميز، وكان يعامل بعض الظلمة ويعامل أهل التقوى والإيمان فما في يده شبهة.

وقد جاء في الخبر: «دَعْ ما يريبك إلى ما لا يُريبك؛ فإن الخَيْرَ طمأنينةُ، وإن الشَّر ريبة»[1]. معناه: دع ما تشكّ فيه أنه حلال إلى شيء

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» من رواية بقية بن الوليد حدثني إسماعيل بن عبد الله =

آخر لا شك فيه، فإن الشرّ ريبة وليس بيقين.

وفي الخبر: «البِرُّ ما اطمأن إليه القَلْبُ وسكنت إليه النَّفس، والإِثْمُ ما حاكَ في صَدْرِكَ وكَرِهْتَ أن يطَّلعَ عليه النَّاس»[١].

وفصل الخطاب من ذلك: أنه ليس على العبد أكثر من جهده وطاقته، وأن يعمل في دينه بمبلغ علمه، وما يؤدي إليه اجتهاده ووسعه، وأن لا يرخص لنفسه بهواه برخصة، فإن قصر علمه استعان بعلم غيره، فما أخطأ حقيقته وراء ذلك فهو معفوّ الخطإ.

فينبغي للعبد أن يبتدىء بطلب الحلال، فيكون هو همَّه وقصده، فيحصّل ما استطاب من المكاسب وأعلى ما قدر عليها مما يسلم فيه، فيجعل ذلك لحاجة نفسه فيما يطعم ويلبس، ويجعل ما دخل عليه من الشبهات مما في نفسه منه حزازات فيما يرتفق به من مؤنة البيت مما لا يُطْعَم ولا يلبس مثل الحطب، وأُجرة البيت وما أشبه ذلك إلاَّ أن يضطر إليها، فيتناول منها مقدار الحاجة.

وفي الخبر: «لا تأكل إلاَّ طعام تقي، ولا يأكل طعامَك إلاَّ تقيّ»[٢].

= الكندي عن طاوس عن وثيلة فذكره وإسماعيل مجهول قاله الحافظ العراقي (انظر بإفاضة: إتحاف السادة المتقين ١/ ١٥٨).
وطرف الحديث الأول: أخرجه أحمد (١/ ٢٠٠)، والترمذي (٢٥٢٠)، والنسائي (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨) من حديث الحسن بن علي بإسناد صحيح.

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٠) من حديث النواس ولفظه: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ ما حاكَ في صَدْرِكَ، وكرِهْتَ أن يَطْلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨)، وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، والدارمي =

لأن التقي قد استبرأ لدينه واجتهد بعلمه واحتاط لنفسه، إذ التقيّ هو الورع الديّن المُتقي للحرام، المجتنب للآثام، ففي دليل خطابه: «لا تأكل طعام غير تقيّ»، والتقوى لا تصح من عبد يتصرف حتَّى يكون مستعملاً في تجارته وصناعته حكم الكتاب والسُّنَّة، ويشهد له العلم بسلامته وبراءة دينه من الخيانة والمكر في المعاملة من الكذب، والغبن في التجارة والصناعة بالصدق والنصح في جميع ذلك، وحتَّى يحلّ السبب المعتاض منهما.

وكل تجارة وصناعة يخالف العبد فيها حكم الكتاب والسنَّة فليست بتجارة ولا صناعة حلال، وإن كان الاسم موجودًا، لعدم المعنى الذي تصح به الأسماء في الحكم، لأن وجود الأسماء فارغةً لا يغني مع عدم صحة المعاني لموافقته شيئًا.

فإذن، ما يسميه الجاهلون تجارة وصناعة، وما يسميه المستحلّون بيعًا وشراءً ومعاملة ـ وهو غير موافق للعلم ـ فليس ذلك بتجارة ولا صناعة ولا معاملة، ولا يُستحل به أكل الحلال؛ لأنه باطل، واسمه عند العلماء خيانة وخلابة، أو غيلة، أو حيلة، أو مخاتلة. وهذه أسماء محرَّمة للمكاسب، لفساد معانيها، وعدم حقائقها، يتعلق عليها أحكام مذمومة لا يحلّ بها أخذ.

واعلم أن الحلال والحرام فرعان للتقوى والفجور، والعلم والجهل، فإذا كثر المتقون ووجد المؤمنون كان الحلال أظهر وأكثر؛ وإذا

= (٢/١٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٩٣٧)، من حديث أبي سعيد ولفظه: «لا تُصاحِبْ إلاَّ مؤمنًا، ولا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تقي»، وإسناده حسن.

كثر الجاهلون وظهر الفاسقون كان الحرام أغلب وأكثر، وكان الحلال قليلاً عزيزًا يخصّ الله به من يشاء من طريق التوفيق والهداية، والعصمة والوقاية.

وقد كان من سيرة القدماء من أهل الورع أن لا يستوعب أحدهم كلّ حقه، بل يترك شيئًا خشية أن يستوفي الحلال كله فيقع في الشبهة، ومنهم من كان يترك من حقِّه شيئًا عملاً بالإحسان، لقول الله عزَّ وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، قالوا: فالعدل أن تأخذ حقّك كلِّه، وتعطي الحقّ، والإحسان أن تترك بعض حقّك وتبذل فوق ما عليك من الحقّ لتكون محسنًا، ولأن الله تعالى كما أمر بالعدل قد أمر بالإحسان، لقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٨٠﴾ [البقرة: ١٨٠]، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٣٦﴾ [البقرة: ٢٣٦].

فالله الله في نفسك، انظر أيها المسكين لمعادك، واحفظ لدينك، فإنّ كسبك من دينك، وطعمتك من إيمانك، فإن تهاونت بذلك فقد تهاونت بالدين، ونبذت الأحكام، وضيّعت اليوم نفسك، ولم تنظر فيما قدمت لغد.

فإنْ كان المتصرِّف في السّوق مخالفًا للأحكام، غيرَ متَّق في كسبه، ولا مراعٍ لدين الله عزَّ وجلّ فيه وحكمه، فهو آكلٌ للمال بالباطل، قاتلٌ لنفسه، مفسدٌ لدينه، غاشٌ للمسلمين، غيرُ ناصح لله عزَّ وجلّ ولخلقه في الدين، مأمورٌ بالتوبة في جميع تصرفه، مفترضٌ عليه الإنابة في جميع تقلبه، قبل أن يبغته الموت، ويفجأه الفوت، فيلقى الله تعالى ظالمًا.

وقد قال عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝١١﴾

[الحجر: ١١]، والله لا يُصلح عمل المفسدين كما لا يضيع أجر المصلحين.

هذا آخِرُ ما قُدِّرَ لنا اقتباسه مِنْ كِتَابِ «قُوتِ القُلوبِ»، وتَمّ ذلك في مَجَالِس مِنْ أَشْهُر كان آخِرُها قُبَيْلَ عَصْرِ يَوْمِ الأربعاء ١٩ من شعبان في عام (١٣٣١هـ) في قرية جُب جَنِّين من أعمال البِقَاع، أيام تَجَوُّلي في بَعْضِ قُراه تَرْويحًا للنَّفْس مِنْ مَرَضٍ أَلَمَّ، واللَّـٰهُ الشَّافي.

وكتبه الفقير

محمد جمال الدِّين بن محمد سعيد بن قاسم القَاسِميّ الدِّمشقيّ غفر الله له ولوالديه، ولمن أَرْشَدَهُ، وَأَتَمَّ لَهُ العافيةَ بِفَضْلِهِ[1].

---

(١) بحمد الله تعالى وتوفيقه فرغت من مقابلته بأصله الذي بخط مختَصِره العلاَّمة محمد جمال الدِّين القاسمي رحمه الله تعالى، وذلك في مجالس كان آخِرُها قبيل عصر يوم السبت ١٢ من جمادى الأولى في عام (١٤٢١هـ) في جامع قرية جُب جَنِّين من أعمال البقاع، أيام تجولي في بعض قُراه، وقد عارضه معي الأخ الوفي والصاحب الحفي الشيخ رمزي دمشقية جزاه المولى عني أوفى الجزاء، والله الهادى إلى سواء السبيل.

وكتبه الفقير



فهرس الأحاديث والآثار

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة
إنَّ أحدكم إذا دخل في صلاته . . .	٢٠٦
إنَّ أم سليم سألت رسول الله ﷺ أنَّ المرأة ترى ما يرى الرجل . . . (عائشة)	٣٢٠
إنَّ بالمدينة أقوامًا ما قطعنا واديًا . . .	٢٥٦
أنَّ جابر بن عبد الله رحل في حديث بلغه عن عبد الله بن أنس . . .	٢٦٩
إنَّ الحق ثقيل . . . (أبو بكر)	٨٨
إنَّ الرجل ليؤجر حتى في اللقمة . . .	٢٥٨، ٣١٢
أنَّ رسول الله ﷺ سئل: أيّ الأعمال أفضل . . .	٤٤
أنَّ رسول الله ﷺ كان يسمع جماعة . . .	٧٠
أنَّ رسول الله ﷺ كان يصلِّي العشاء . . .	٤٣
إنَّ في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد إلاَّ . . .	٧٨
أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . .	١٨١
إنا إذا رأيناك رقَّت قلوبنا . . . (أبو هريرة)	٦
أنا عند ظن عبدي بي . . . (قدسي)	١٤٤
إنكم تختصمون إلي . . .	٢٣٩
إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق . . . (بعض الصحابة)	١١٨
إنكم لا تَسعُون الناس بأموالكم . . .	١٠٨، ٢٠٨
إنَّما الأعمال بالنيات . . .	١٢٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧
إنما بايعنا رسول الله ﷺ على النصيحة . . . (جرير)	٢٣٢
إنما الحاج الشعث التفل . . .	٢٣٣
إنما الصلاة تمسكن . . .	٢٠٣ ــ ٢٠٤
إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة . . .	٢٩٤
إنما يكتب للعبد من صلاته . . . (عمار)	٢٠٩
أنه ﷺ قرأ بسم الله الرحمن الرحيم . . .	٦٠

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة
تحوُّل الإمام إذا صلَّى المكتوبة...	٢٧٦
تداووا عباد الله...	٢٧١
التسبيح ثلاثًا وثلاثين...	٣٥
تفضل صدقة السرّ صدقة العلانية...	٦٩، ٢١٥
تنكح المرأة لمالها...	٣١٢
ثلاث منجيات...	٩٠
الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة...	٦٩
جعلت قرَّة عيني في الصلاة...	٢٠٥
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا... (عمر)	٨٨
الحج في سبيل الله...	٢٣٢، ٢٣٦
الحج المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنة...	٢٣٢
حفت الجنة بالمكاره...	١٣٤
الحق ثقيل وهو مع ثقله مريء... (أبو بكر)	١٨٣
حق المسلم على المسلم...	٢٤٦
الحلال بيِّن والحرام بيِّن...	٣٣٨
الحمد لله الذي أحياني...	٤٨
خذه، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف له...	١٦٨
خيار أمتي الذين إذا أحسنوا...	١٤٨
خير نسائكم التي إذا نظر إليها...	٣٠٧
خير هذه الأمة أكثرها نكاحًا... (ابن عباس)	٣٠٦
خير يوم طلعت فيه الشمس...	٧٥
خيركم خيركم لأهله...	٣١٥
دع ما يريبك إلى ما لا يريبك...	٩١، ٣٤٠ ـ ٣٤١

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة
دعها يا أبا بكر . . .	٢٢٠
الدِّين النَّصيحة . . .	٣٣٣
ذروة الإيمان الإخلاص . . . (أبو الدرداء)	١٦٢
رب اغفر لي وارحمني . . .	١٩٩
رُبَّ صائم حظّه من صيامه الجوع . . .	٢٠٩ت
رحم الله امرءًا أهدى إلى أخيه عيوب نفسه . . . (عمر)	٢٨٤
رخص في البول قريبًا من الصاحب . . .	١٩٣
رضيت بالله ربًّا . . . (كلما سمع العبد الأذان)	٥٥
زوَّج رسول الله ﷺ بعض أصحابه . . .	٣١٣
زيِّنوا القرآن بأصواتكم . . .	٧٠
الساعي على عياله . . . في سبيل الله . . .	١٦٧
سبحانك اللَّـٰهُمَّ وبحمدك . . .	١٩٨
سبعة يظلهم الله في ظله . . .	٢١٥، ٢٨٠
السلام عليكم ورحمة الله . . .	١٩٩
سمع الله لمن حمده . . .	١٩٩
شرار عباد الله المشاؤون بالنميمة . . .	٢٨١
شر الأصدقاء من تُكُلِّف له . . . (علي)	٢٩٣
شر الناس ذو الوجهين . . .	١١٠
شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر . . .	٨٣
صاحب الشيء أحق بحمله . . .	٣٠١
الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه . . . (ابن عباس)	١٣٢
الصبر نصف الإيمان . . .	١٤٢
صَحِبْتَه في السفر؟ . . . (عمر لرجل)	٢٧١

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة

طرف الحديث أو الأثر	الصفحة
لما نزلت براءة عائشة. . .	٢٢٠
لو أدركني موسى وعيسى. . .	١٩٠
لو نُشِر أصحاب رسول الله ﷺ ورأوكم. . . (بعض الصحابة)	١٠٧
ليس المسكين الذي تردّه الكسرة. . .	٢٢٤
ليس منا من لم يتغن بالقرآن. . .	٧٠
ليصلّ أحدكم نشاطه. . .	٤١
ما آتى الله تعالى عبدًا العلم. . . (ابن عباس)	٢٤٨
ما آمن بالقرآن من استحل محارمه. . .	١١٩
ما اجتمعا في قلب عبد. . . (خوف الذنب ورجاء. . .)	١٤٥
ما أسرّ إليّ رسول الله ﷺ شيئًا كتمه الناس. . . (علي)	٦٣
ما أنفق الرجل على أهله فهو له صدقة. . .	٣١١
ما تزوَّج رسول الله ﷺ امرأة. . . (عمر)	٣١٣
ما سئل شيئًا قط فقال لا. . . (جابر)	٥٦
ما عظُمت نعمة الله تعالى على عبد إلاّ. . .	١٣٩
ما مررت بملأ من الملائكة. . .	١٧١ ـ ١٧٢
ما من داء إلاّ له دواء. . .	١٧١
ما من موطن يأتيني فيه الموت. . . (عمر)	٣٢٥
ما هذا؟. . . (لصاحب طعام)	٣٣٣
مُرْ أمتك بالحجامة. . . (الملائكة)	١٧١ ـ ١٧٢
المرء مع من أحب. . .	١٧٨
معاتبة الصديق خير من فقده. . . (أبو الدرداء)	٢٧٩
مفتاح الصلاة الطهور. . .	١٩٢
من أحب أن يعلم منزلته عند الله. . .	٤٧

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

من آثار المحقق

١ ـ **كتاب الأوائل**: للحافظ أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، المتوفى سنة ٢٨٧هـ، دار الخلفاء، الكويت ـ ١٤٠٥هـ.

٢ ـ **فضل علم السَّلف على علم الخلف**: للحافظ زين الدِّين عبد الرحمٰن بن رجب الحنبلي، المتوفى سنة ٧٩٥هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤١٦هـ.

٣ ـ **نور الاقتباس في مشكاة وصيَّة النبي ﷺ لابن عباس**: للحافظ ابن رجب الحنبلي، المتوفى سنة ٧٩٥هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤١٤هـ.

٤ ـ **تفسير سورة الإخلاص**: لابن رجب الحنبلي، المتوفى سنة ٧٩٥هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤٢١هـ.

٥ ـ **تفسير سورة النصر**: للحافظ ابن رجب الحنبلي، المتوفى سنة ٧٩٥هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤٢١هـ.

٦ ـ **زغل العلم**: للحافظ شمس الدِّين الذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨هـ، مكتبة الصحوة الإسلامية، الكويت ١٤٠٤هـ.

٧ ـ **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في منهاج البيضاوي**: للحافظ العراقي، المتوفى سنة ٨٠٦هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤٠٩هـ.

٨ ـ **التنقيح في حديث التسبيح** (شرح حديث: كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن): للحافظ ابن ناصر الدِّين الدِّمشقي، المتوفى سنة ٨٤٢هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤١٣هـ.

٩ ـ **تحفة الإخباري بترجمة البخاري**: للحافظ ابن ناصر الدِّين الدمشقي، المتوفى سنة ٨٤٢هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤١٣هـ.

١٠ ـ **كتاب الأربعين**: للحسن بن سفيان، المتوفى سنة ٣٠٣هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤١٤هـ.

١١ ـ **صفحات في ترجمة الإمام السفاريني**: (تأليف)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤١٣هـ.

١٢ ـ **علاَّمة الكويت الشيخ عبد الله الخلف الدحيَّان حياته وآثاره**: (تأليف)، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت ١٤١٥هـ.

١٣ ـ **ثلاث تراجم نفيسة للحافظ الذهبي**: المتوفى سنة ٧٤٨هـ، دار ابن الأثير، الكويت ١٤١٥هـ.

١٤ ـ **الخطب المنبرية**: للعلاَّمة عبد الله بن خلف بن دحيان، بيت التمويل الكويتي، الكويت ١٤١٦هـ.

١٥ ـ **نوادر مخطوطات علاَّمة الكويت الشيخ عبد الله الخلف الدحيَّان**: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت ١٤١٦هـ.

١٦ ـ **أخصر المختصرات**: للبلباني مع حاشيته، لابن بدران، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان ١٤١٦هـ.

١٧ ـ **مشيخة فخر الدِّين ابن البخاري**: المتوفى سنة ٦٩٠هـ، (عناية وفهرسة للأحاديث)، الكويت ـ الأمانة العامة للأوقاف ١٤١٦هـ.

١٨ ـ **أضواء على الحجج الوقفية الأصلية في الأمانة للأوقاف**: (إعداد)، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت ١٤١٦هـ.

١٩ ــ **روضة الأرواح**: لعبد القادر بن بدران الدمشقي، الكويت ــ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٤١٧هـ.

٢٠ ــ **درَّة الغوَّاص في حكم الذَّكاة بالرصاص**: لابن بدران الدمشقي، مطبوعة مع الرسالة السابقة.

٢١ ــ **علاَّمة الشام عبد القادر بن بدران الدمشقي حياته وآثاره**: (تأليف)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان ١٤١٧هـ.

٢٢ ــ **حياة العلاَّمة أحمد تيمور باشا**: بقلم محمد كردعلي وبعض معاصريه، (جمع وعناية)، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت ١٤١٧هـ.

٢٣ ــ **سير الحاثّ إلى علم الطلاق الثلاث**: لابن عبد الهادي، (تحقيق وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان ١٤١٧هـ.

٢٤ ــ **بداية العابد وكفاية الزاهد**: للعلاّمة عبد الرحمن البعلي الحنبلي، (تحقيق وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان ١٤١٧هـ.

٢٥ ــ **الألفية في الآداب الشرعية**: لابن عبد القوي، (عناية وضبط)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان ١٤١٨هـ.

٢٦ ــ **نتيجة الفكر فيمن درَّس تحت قبة النَّسر**: للعلاَّمة عبد الرزاق بن حسن البيطار، (تحقيق وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان ١٤١٩هـ.

٢٧ ــ **مختصر الإفادات في ربع العبادات والآداب وزيادات**: للإمام محمد بن بدر الدِّين بن بلبان الدمشقي، (تحقيق وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان ١٤١٩هـ.

٢٨ ــ **ثبت مفتي الحنابلة بدمشق الشيخ عبد القادر التغلبي**: تخريج تلميذه مفتي الشافعية محمد بن عبد الرحمن الغزِّي، (عناية)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان ١٤١٩هـ.

٢٩ ــ **آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل**: (تأليف)، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت، لبنان ١٤٢٠هـ.

٣٠ ــ **تعليق لطيف على آخر حديث في رياض الصالحين**: للعلاَّمة قاسم بن صالح القاسمي (تحقيق وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان ١٤٢٠هـ.

٣١ ــ **مفتاح طريق الأولياء**: لابن شيخ الحِزاميِّين أحمد بن إبراهيم، (عناية وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان ١٤٢٠هـ.

٣٢ ــ **نبذة لطيفة ونصيحة شريفة**: للشيخ حسن بن أحمد سبط الدسوقي، مطبوعة مع الرسالة السابقة.

٣٣ ــ **الوعظ المطلوب من قوت القلوب**: للعلامة جمال الدين القاسمي، (تحقيق وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان، ١٤٢١هـ.

٣٤ ــ **العروس المجلية في أسانيد الحديث المسلسل بالأولية**: لصفي الدين البخاري، (تحقيق وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان، ١٤٢١هـ.

٣٥ ــ **إرشاد العباد في فضل الجهاد**: لحسن بن إبراهيم البيطار، (تحقيق وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان، ١٤٢١هـ.

٣٦ ــ **سر الاستغفار عقب الصلوات**: للعلامة جمال الدين القاسمي، (تحقيق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان، ١٤٢١هـ.

٣٧ ــ **ثمرة التسارع إلى الحب في الله وترك التقاطع**: للعلامة القاسمي، (تحقيق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان، ١٤٢١هـ.

٣٨ ــ **أديب علماء الشام الشيخ عبد الرزاق البيطار**: (تأليف)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان، ١٤٢١هـ.

٣٩ ــ **بلوغ القاصد جلّ المقاصد لشرح بداية العابد وكفاية الزاهد**: للعلامة عبد الرحمن البعلي الحنبلي، (تحقيق وتعليق)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ــ لبنان، ١٤٢١هـ.

• • •